القس منسى يوحنا

طريق السماء

مكتبة المحبة
MB

كلمة عن المؤلف

نيح الله نفسه

ولد الفقيد العزيز سنة ١٨٩٩ بناحية هور مركز ملوى من أبوين مسيحيين تقيين كريمي المحتد عريقي النسب. ومات أبوه وهو فى سن الطفولة فعنيت أمه بتربيته تحت رعاية جده الوقور ونظراً لما كانت عليه رحمها الله من الصلاح والورع والحكمة وكرم النفس والبر بالفقراء والمساكين والعطف على الأرامل واليتامى والمجربين فقد تشرب الفقيد منها هذه السجايا الحميدة وترعرع فى كنفها ونما فى أحضان الفضل والتقى وخصه الله فوق ذلك بذكاء حاد وعقل راجح وفكر ثاقب .

وكان حبه لكنيسته الأرثوذكسية غريزة متأصلة فى نفسه و بلغت شدة تعلقه بها أنه ألم بالكثير مما يتلى فيها وهو طالب بالمدارس الابتدائية ولم يكن قد تجاوز الثانية عشرة من العمر . ثم دفعته غيرته على تقدم الكنيسة ونمائها على أن يكرس حياته لخدمتها فالتحق بالمدرسة الاكليريكية وهو فى السادسة عشرة من عمره بعد تردد حضرة مديرها فى قبوله نظراً لصغر سنه والزعم بأنه وهو فى هذه السن لا يقوى على تحمل أعباء الدراسة بها ولكن ما ان مرت بضعة شهور على وجوده بالمدرسة المذكورة حتى أصبح موضع أعجاب حضرات مديرها وأساتذتها لما أظهره من النبوغ الفائق واستمر كل سنى الدراسة فيها متفوقاً على أقرانه مضرب المثل بينهم فى نبل الأخلاق وعلو الهمة وقوة الارادة وشدة العزيمة واصالة الرأى . ولم يكن يكتفى بما يتلقاه فى المدرسة من الدروس المقررة بل كان يحصل على كل مفيد من الكتب الكنسية ومن مؤلفات العلماء اللاهوتيين والمؤرخين و يدرسها بعناية تامة ، فاتسعت بذلك مداركه وكثرت معلوماته وعظمت ثقافته .

ولما أن تخرج من المدرسة الاكليريكية عين واعاظ لكنيسة ملوى القبطية فقوبل فيها بادئ ذى بدء مقابلة شاب فى العشرين من عمره ولكن سرعان ما وجد فيه شعبها واعظاً تقياً قديراً، ومعلماً فاضلاً حكيماً. ومرشداً صالحاً أميناً فأحبه جميع أفراد الشعب حباً جماً وأنزلوه أحسن منزلة فى نفوسهم. وان أنسى لا أنسى موقفهم الرائع حينما قرأوا فى احدى الصحف أن الطيب الذكر نيافة مطران المنيا السابق قرر نقله من كنيستهم الى كنيسة سمالوط فلقد ثارت عند ذلك ثائرتهم وقاموا قومة رجل واحد معترضين على نقله وألفوا من بينهم وفدا قابل نيافة المطران فتفضل نيافته وهدأ خواطرهم بنفيه اشاعة نقله نفياً باتاً، وأبلغهم أن واعظهم عندما زار كنيسة سمالوط تلبية لدعوة أعضائها تعلق به أهلها وأخذوا يمهدون السبيل لتعيينه فى كنيستهم ولكن نيافته لم يوافقهم على ذلك لما يعلمه من شدة محبة شعب ملوى له ودرجة تمسكهم بوجوده بينهم.

وأذكر بهذه المناسبة أن اثنين من أصحاب النيافة المطارنة عرضا عليه الخدمة معهما نظير مرتب كبير يغرى ولكنه فضل البقاء بكنيسة ملوى نظراً لما وجده فى أهلها من المحبة والاخلاص والوفاء غير ناظر الى الماديات لأنه لم يكن يبغى سوى خدمة الكنيسة والعمل على تقدمها.

ولقد رسم كاهنا لكنيسة ملوى فى يناير سنة ١٩٢٥ بناء على تزكية اجماعية من شعبها وكان يوم رسامته يوماً مشهوداً اشترك فى الاحتفال به جميع أهل المدينة على اختلاف مذاهبهم ونزعاتهم وكان الكل يهنئون بعضهم بعضاً.

وكانت حياة الفقيد ــ نيح الله نفسه ــ سلسلة جهاد متواصلة الحلقات فانه علاوة على اضطلاعه بمسئوليات الخدمة بالكنيسة وافتقاد الرعية والقيام بالوعظ والتعليم كان يدأب دائما على الاطلاع والبحث والتأليف والنشر، ولقد تمكن فى غضون تسع سنوات من تأليف خمسة عشر مؤلفاً قيماً من بينها كتاب تاريخ الكنيسة القبطية، هذا فضلاً عما كان ينشره فى الصحف والمجلات من البحوث الروحية والأدبية وعن تحمله أعباء ادارة وتحرير مجلة الفردوس.

ولقد برز الفقيد أبان الحركة الوطنية فكان خطيب ملوى الذى يشار اليه

بالبنان يدعو دائما الى الاتحاد والاخاء والجهاد فى سبيل اسعاد الوطن العزيز.

واليه يرجع الكثير من الفضل فى حمل أهالى ملوى على الاكتفساء باقامة المآتم لمدة ثلاثة أيام وكان من عادة البعض اقامتها لمدة أسبوع والبعض الآخر لمدة خمسة عشر يوما.

وظل الفقيد مع ما كان يقوم به من الخدمات العامة السالفة الذكر نشطاً فى خدمة الكنيسة عاملاً قوياً فى سبيل نهضتها وقد ألف اتحاداً من حضرات زملائه قساوسة ووعاظ كنائس المجاورة وأخذ يعمل معهم على. انعاش هذه الكنائس باقامة مجامع بها يتبادلون الوعظ فيها وكان لهذه المجامع بعون الله أثرها الفعال.

ومع ما بلغه الفقيد من سمو المكانة فى النفوس بسعة علمه وغزارة فضله وعلو همته فأنه كان بعيداً كل البعد عن الزهو والخيلاء مثالاً للتواضع وانكار الذات.

ولقد حلت به فى سنى حياته القصيرة تجارب متنوعة فتحملها بالصبر مقدماً عنها لله خالص الشكر. جرب فى أبنائه فكان كلما رزق ابناً اختطفه الموت منه، وجرب كثيراً فى صحته. ثم فجع فى اليوم الثانى من ديسمبر سنة ١٩٢٨ أى قبل انتقاله الى جوار ربه بعام ونصف عام بوفاة المرحومة والدته العزيزة التى يرجع اليها الفضل فى تربيته وتهذيبه كما فصلنا، فخسر بوفاتها أعز من فى الوجود إليه وأكثرهم حنواً وعطفاً عليه وكان حزنه عليها شديداً لدرجة أنه كان يصلى بالألحان الحزينة مناجياً روحها الطاهره وبالرغم من شدة وقع هذه المصائب فى نفسه فانها لم تنل من عزيمته أو تضعف من مجهوداته الجبارة فى خدمة كنيسته وأمته تلك الخدمة التى كرس حياته لأجلها والتى ظل يؤديها بكل أمانة ونشاط حتى أقعده المرض عنها مرغماً.

وفى يوم الجمعة ١٦ مايو سنة ١٩٣٠ تحدث إلى من كانوا فى زيارته للاستفسار عن صحته قائلاً لهم «سأموت الليلة فأرجو أن تصلوا على فى ملوى وتدفنونى فى هور». فكان شأنه فى ذلك شأن غيره من الأبرار القديسين الذين

يشعرون بدنو الأجل وقرب الساعة . وما وافت الساعة الثانية عشرة من مساء اليوم المذكور الا وفاضت روحه الطاهرة الى باريها فلاقى وجه ربه راضياً مرضياً .

وفى صبيحة اليوم السابع عشر من شهر مايو سنة ١٩٣٠ سرى نعيه بسرعة البرق فى جميع أنحاء ملوى وهور والبلاد المجاورة فاضطربت النفوس وخفقت القلوب وسالت العبرات .

وأقبل القوم على داره ووجوههم واجمة وقلوبهم دامية ، كل يريد أن يلثم يديه متبركاً منه ومودعاً له قبل أن يُلف فى كفنه ويدرج فى نعشه . واكتظت شوارع المدينة بالأهلين من جميع الطبقات والمذاهب والملل وظلوا واقفين وكأن على رؤوسهم الطير منتظرين ميعاد تشييع جنازته حتى إذا ما أطل عليهم نعشه محمولاً على الأعناق صرخوا صرخة الحزن من الأعماق وتزاحموا حواليه وخلفه باكين مولولين ، وكان اخواننا المسلمون يتهافتون على حمل نعشه قائلين للمسيحيين « دعونا نقوم بواجب الوفاء له فلقد أخلص فى حياته الود لنا بمثل ما أخلص لكم وخدمنا كما خدمكم وليس حزننا عليه بأخف من حزنكم » وسار موكب جنازته تلازمه الروعة ويحدوه الجلال حتى وصل الى الكنيسة القبطية حيث صلى على الفقيد لفيف من الكهنة وأبنه كثير من الخطباء ثم استأنفت الجنازة بعد ذلك سيرها حتى خرج به القوم من ملوى الى مدفنه ببلدة هور، خرجوا به من المدينة التى تفانى فى خدمة كنيستها وفى حب شعبها .

خرجوا به والكل باك حوله ... صفقات موسى يوم دك الطور
حتى أتوا جدثا كأن ضريحه ... فى كل قلب موجد محفور

وبعد أن ووري الفقيد التراب انصرف الجمع وهم يبكون شبابه الغض ويترحمون عليه ويذكرون فضائله ويعددون مآثره .

ووردت الى عائلته رسائل التعازى من جهات القطر ومن كافة الطوائف وكلها تنم عن تقدير مرسليها لعظم الخسارة فى فقده كما رثاه فى المجلات الدينية كثير من عارفى فضله .

ونكتفى هنا بأن نأتى بنص الكلمة التى نشرها بمجلة اليقظة الغراء جناب الأب المحترم المتنيح القمص ابراهيم لوقا راعى الكنيسة القبطية بمصر الجديدة :ـــ

« رقد فى الرب فى ليلة ١٧ مايو سنة ١٩٣٠ القس منسى يوحنا راعى كنيسة ملوى القبطية وهو لا يزال فى ريعان شبابه وزهرة عمره وكان لنعيه رنة حزن عميق وأسف شديد ليس فى ملوى فقط ولكن فى معظم أنحاء القطر نظراً لما كان عليه نيح الله نفسه من الصفات الطيبة والامتيازات الخاصة .

لقد كان القس منسى خادماً غيوراً يدأب بلا انقطاع على القيام بمسئوليات خدمته وكان واعظاً قديراً ممن تفتخر بهم منابر الوعظ والخطابة وكان مؤرخاً ضليعاً وباحثاً مدققاً وكان مؤلفاً واسع الاطلاع كثير النشر فقد وضع عدة كتب روحية وتاريخية ولاهوتية علاوة على مجلة (الفردوس) التى ظل يصدرها حتى دعاه الرب لملاقاته فى عالم الراحة الأبدية .

وكان الراحل الكريم ـــ نيح الله نفسه فى فردوس النعيم ـــ قد شرع فى طبع كتاب ثمين عنوانه (شمس البر) مع مؤلفات أخرى ولم يمهله القدر حتى يتم طبعها فكتب قبيل انتقاله بدقائق معدودة خطاباً لأحد أصدقائه الخصوصيين حضرة الخواجا منصور ميخائيل يوصى فيه بتكليف محرر هذه المجلة باتمام طبع هذه المؤلفات وأن يخصص دخلها لأحد المشاريع الخيرية وقد شرع محرر هذه المجلة فعلاً فى اتمام هذا المشروع احتراماً لوصية الراحل العزيز .

ومحرر هذه المجلة يؤلمه كل الألم أن يخط بقلمه نعى هذا الراعى الأمين لما كان بينهما من المودة الأخوية والرابطة القلبية ولكن هكذا شاءت ارادة الرب ، والتسليم واجب محتوم .

ونحن نسأل الله أن يسكب نعمة العزاء السماوى على قلب جده الشيخ الوقور وزوجته الفاضلة وأن يمنحهما قوة الصبر والاحتمال . .

وكذلك نأتى بنص كتاب التعزية الذى بعث به السيد الفاضل القس توفيق جيد سكرتير سنودس النيل :ـــ

حضرة الأخ الفاضل وهبه أفندى

سلام لكم من أب الرأفة واله كل تعزية الذى يعزينا فى كل ضيقتنا حتى نستطيع أن نعزى الذين هم فى كل ضيقة بالتعزية التى نتعزى نحن بها منه :

اليوم فقط وقع بصرى على هذا الخبر المفجع ، فكان وقعه على نفسى وقع الصاعقة . حقاً لقد شعرت اننى أمام خطب جلل وأمام كارثة مدلهمة وأمام بلوى محرقة . كيف لا وقد خسرنا شاباً من أنقى الشبان وأرقاهم علماً وخلقاً . بل خسرنا عاملاً فى كرم الرب من أفضل العمال وأقواهم فصاحة وكتابة ونطقاً لا بل خسرنا أخاً وصديقاً هو وليد مسقط رأسنا وقد رفع رأسنا فى مركزنا ومديريتنا وسائر بلاد قطرنا شمالاً وجنوباً ، غرباً وشرقاً ، فيالها من خسارة فادحة تدمع أمامها العيون وتدمى لها القلوب .

ولكننى أسمع صوتاً يقول : « أجل . لئن كنتم قد خسرتموه ياسكان الفانية فاننا قد ربحناه نحن سكان السماء ، فالراحل لم يفقد بل هو موجود وما هو الا قد غير مكانه و يالها من مبادلة رابحة أن يبدل العالم السفلى بالعالم العلوى . أرض الشقاء والعناء بسماء الراحة والهناء .

وأدى الأضطراب والدموع بجنة الأمن والهجوع . أجساد الأشرار الناقصين بأرواح الأبرار المكملين . نعم فلقد أبلى بلاء حسناً فى معترك الحياة وأنجز فى فترة قصيرة من العمر ما يعجز عن انجازه الكثيرون فى عمر مديد فاستحق أن ينقل من ميدان الجهاد الى مقر المكافأة والثواب ، ولسان حاله قول الرسول المغبوط « جاهدت الجهاد الحسن . أكملت السعى . حفظت الإيمان . وأخيراً وضع لى إكليل البر».

فتشجع ياأخى ولا تجزع ــ أصبر ولا تضجر ــ أشكر ولا تكفر . والله الذى قال « كانسان تعزيه أمه هكذا أعزيكم أنا يقول الرب » وهو يعزيكم تعزية مناسبة مع التجربة

لقد جاهد فقيد الكنيسة الشاب جهاد الأبطال ورقد الرب فنال إكليل الحياة .
جعل الله من سيرته العاطرة خير مثال يحتذيه العاملون المخلصون .

• • •

دعاء

قال الرب لنثنائيل «الحق الحق أقول لكم من الآن ترون السماء مفتوحة وملائكة الله يصعدون و ينزلون على ابن الانسان».

لأن المسيح لم يدخل الى أقداس مصنوعة بيد أشباه الحقيقية بل الى السماء عينها ليظهر الأن أمام وجه الله لأجلنا» (عب ٩ : ٢٤).

أيها الآب القدوس يامن تريد أن جميع الناس يخلصون والى معرفة الحق يقبلون. أتقدم اليك بنفس منسحقة وقلب منكسر طالباً منك أن تجعل هذا الكتاب طريقاً صالحاً وسبيلاً مستقيماً الى السماء، وكما سخرت النجم السماوى لكى يهدى المجوس الى مكان ولادة ملك اليهود، هكذا اجعل هذا الدليل مرشداً صالحاً وقائداً أميناً للكثيرين فيأتى بهم ويهديهم الى مخلصهم العظيم ومحبهم الكريم يسوع المسيح لكى يحتموا بدمه الطاهر للنجاة من الهلاك الأبدى لأنه لا دينونة على الذين هم فى المسيح يسوع السالكين ليس حسب الجسد بل حسب الروح إذ أنه هو النور الحقيقى و باب السماء والطريق والحق والحياة.

لك معه ومع روحك القدوس المجد من الآن والى الأبد آمين،

* * *

الفصل الاول
فى الحياة الفانية والحياة الباقية

«لأن ليس لنا هنا مدينة باقية ولكننا نطلب العتيدة» (عب ١٣ : ١٤)

ان السيد المسيح له المجد قد أكد لنا فناء هذه الحياة وزوالها بقول مؤثر واضح صريح أيده بمثل رائع هو أجل عبرة لمن يعتبر، ذلك هو مثل انسان كان قلبه منهمكاً انهماكاً شديداً فى محبة العالم وملذات الحياة فأخذ يرتب حسب ارشاد عقله جميع مصالحه العالمية لمستقبل بعيد المدى كأنه خالد فى الأرض وقادر على أن يفعل مايشاء و يتمتع بما يريد . و بينما هو مفكر فى هذه الأمور إذا بالحكم الأعلى وافاه وطالبه بالوديعة فى ساعة لا ينتظرها قائلاً له «ياغبى هذه الليلة تطلب نفسك منك فهذه التى أعددتها لمن تكون» (لو١٢ : ٢٠).

فما أجهل المرء الذى يظن أن الحياة فى هذا العالم تدوم ، ولا يدرى أن هذه الأرض ليست بدار خلود فلا نلبث فيها قليلاً حتى يخطفنا الموت منها و يردنا الى المكان الذى أخذنا منه .

ان كثيرين يميلون الى الخلود والبقاء فى هذه الدنيا ولكنهم لا يدركون حقيقة حالهم فان نظرة واحدة الى قبور الذين سلفوا ، ولفتة صغيرة الى توابيت الموتى التى تمر بنا فى كل ساعة تكفى لأن تقنع قلوب الجميع بأنهم على هذه الأرض سائحون ولا بد يوماً يرتحلون منها لأنهم «بنسمة الله يهيدون و بريح أنفه يفنون» (أى ٤ : ٩).

تطلع بعينيك تشاهد أمماً عديدة وممالك كبيرة بلغت من العظمة أقصاها ومن القوة منتهاها . هذه كلها ستصبح بعد حين فى حكم العدم والنسيان . وقبلها

كانت توجد ممالك أسمى شادت مجدها على أمتن الحصون وأعصى القلاع وأحرزت من السلطة والقوة والجاه ما جعل الكثيرين يضمنون لها الثبات والخلود . ولكن أين هى الآن ؟ لقد تداعت أركانها واندثرت معالمها وأدركها الفناء .

أجل . الممالك تنمو وتسمو ولكنها لا تسمو الا للسقوط ولا تعلو الا للانحطاط . كم من مرة قرأنا فى سجل التاريخ عن قيام ممالك وسقوطها وسمعنا عن تتويج ملوك وموتهم . الزوال هو الجبار القوى الذى يتبع أثر مجد هذه الحياة وقد وصل الى أقاصى العالم وختم كل الأشياء الأرضية بعلامة « الفناء » . أن نبوخذنصر عندما رأى وهو يتمشى على سطح قصره مدينه بابل العظيمة وأسوارها الشامخة العريضة قال مفتخراً « أليست هذه بابل العظيمة التى بنيتها لبيت الملك بقوة اقتدارى ولجلال مجدى » (دا ٤ : ٣٠) وكيف لا يفتخر مثله بمدينة كان علو سورها ثلاثمائة وخمسون قدماً . وكان عرضه كافياً لأن تمر عليه ثلاث عربات متجانبة فى صف واحد ؟ ولم لا يتباهى بها ويحسبها دائمة البقاء ؟

كان الرومان يدعون رومة عاصمة مملكتهم « المدينة الخالدة » ولا جناح عليهم فى ذلك لأنهم كانوا يحكمون على الأمور حسب ظواهرها . بيد أن بابل المدينة العظيمة تلاشت ومملكة رومة الواسعة الأطراف بادت : وهكذا ترى كل ممالك العالم تدور جميعها على فلك واحد وتنزل منزلة واحدة وهى النشأة فالنماء فالمجد فالانحلال فالسقوط فالفناء .

وما يصح على الجماعات ينطبق على الأفراد أيضاً فليس من شئ حى تراه الآن فى الوجود الا ولأجله نهاية ، ولا يعيش انسان الا و يزول . فقبلك كان قوم من البشر أمثالنا وكانوا يحبون الحياة كما نحبها نحن ، وكان منهم كثيرون يمتلكون القناطير من الذهب وكان منهم أصحاب مراتب عالية وجاه عظيم . ولكن لما انصرم حبل حياتهم لحقوا بمن سبقوهم وضمتهم الأرض كما ضمت أسلافهم . وقد كان من هؤلاء ملوك ووزراء وعظماء وقواد وأبطال جبابرة دوخوا البلاد بفتوحاتهم وغزواتهم . ولكن أين هم ؟ وأين جبروتهم وقوتهم وصولتهم ؟ لقد داسها الموت

ودكها المنون فكانت كأنها لم تكن كما قال المرتل « أذكر كيف أنا زائل . الى أى باطل خلقت جميع بنى آدم » (مز ٨٩ : ٤٧).

فلابد أن جميع البشر يموتون ويختفى ذكرهم من الدنيا وكل انسان يموت فينسى ويحل غيره فيخلفه من يستولى على عمله و بيته وأراضيه وشرفه وألقابه كما خلف هو غيره و يزول اسمه من أفكار الناس زوال جسده من بيته ومن بين أقربائه كقول أيوب الصديق « كل أيام جهادى أصبر الى أن يأتى بدلى » (أى ١٤ : ١٤).

فناموس الفناء هو عام على كل المخلوقات حتى الكواكب يصيبها السقوط ، وقيل أنه شوهد عن بعد قاص « حرائق هائلة » ولاحظ الفلكيون انحلال عوالم وسقوط دواثر عظيمة كنا نظن أنها تبقى لامعة الى الأبد . فلابد أذن أن يفنى جميع الناس رغماً عما يعملون ويجدون فى تخليد اسمهم وذكراهم على الأرض . فقد بنى القدماء أهراماً وحاربوا حروباً كثيرة وإليهم أشار أيوب بقوله « حينئذ كنت نمت مستريحاً مع ملوك ومشيرى الأرض الذين بنوا أهراماً لأنفسهم » (أى ٣ :١٣ و١٤) وغيرهم شادوا بيوتاً رفعوا عمادها وأحرزوا لنسلهم شرفاً رفيعاً ومقاماً سامياً فذهبت جميع مساعيهم سدى ولم تأت بالفائدة التى قصدوها وجدوا فى السير للحصول عليها . فقد فنيت أجسادهم وعفت آثارهم ونسيت أسماؤهم واندثر ذكرهم فكأنهم ما كانوا . فالإنسان « كزهر العشب يزول . لأن الشمس أشرقت بالحر فيبست العشب فسقط زهره وفنى جمال منظره » (يع ١ : ١٠ و ١١).

كان الرومانيون يعبدون قياصرتهم ويحسبونهم آلهة فإذا مات أحدهم قالوا أنه ذهب وطلع نجماً فى القبة الزرقاء ولكنك إذا ذهبت الى رومة وتفقدت بقايا تلك المدينة القديمة رأيت أنه قد طلع على خرائب قصور قياصرتها الشوك والحسك . فما أجدر أن يقال أن أسماء الناس مكتوبة على صفحات الماء فهى تمحى سريعاً وتزول من أذهان خلفائهم ولا يبقى لهم ذكر بين الناس رغم ما يفعلون لابقاء أسمائهم وتخليد ذكراهم كما قال الجامعة « ليس ذكر للأولين والآخرون أيضاً الذين سيكونون لا يكون لهم ذكر عند الذين يكونون بعدهم » (جا ١ : ١١).

ولكن مع ذلك نجد كثيرين من بنى البشر يظنون أنهم مخلوقون لهذه الأرض وان

هذه الحياة مقرهم ومقامهم ولذا تراهم يجهدون أنفسهم فى سبيل الحصول على خيراتها والتمتع بملذاتها ففى «باطنهم أن بيوتهم الى الأبد مساكنهم الى دور فدور» (مز ٤٩ : ١١) غير أن هؤلاء فى ضلال مبين لأن هذه الأرض بالنسبة الينا ليست وطناً لنا بل هى بمثابة طريق أو سبيل للوطن الحقيقى والحياة العتيدة.

قال الرسول بولس «لأننا نعلم أنه ان نقض بيت خيمتنا الأرضى فلنا فى السموات بناء من الله بيت غير مصنوع بيد أبدى» (٢ كو ٥ : ١) و بيت خيمتنا الأرضى الذى يشير اليه الرسول يفهم على ثلاثة أنواع أى يقصد به ثلاثة منازل نسكنها ما دمنا فى هذه الحياة، وهى تحقق لنا الفناء وتؤكد لنا الزوال :—

الأول : هذا العالم السفلى العنصرى الذى يشهد لنا عنه الكتاب الألهى بأنه لا بد أن يبيد و يزول بقوله «ولكن سيأتى كلص فى الليل يوم الرب الذى فيه تزول السموات بضجيج وتنحل العناصر محترقة وتحترق الأرض والمصنوعات التى فيها» (٢ بط ٣ : ١٠) ومن ذلك ينبغى حيث أن أرواحنا غير قابلة للفناء أن نهتف مع الرسول قائلين «ليس لنا هنا مدينة باقية لكننا نطلب العتيدة».

الثانى : منازلنا المادية التى نسكنها والتى مهما بذلنا الجهد فى تحسينها وتزيينها لابد لنا أن نتركها كما يقول القديس أوغسطينوس «لا تقل أن بيتك هو ملكك لأنك ورثته من أبيك لأن ذلك يدل على أن أباك قد جاز فيه وتركه ومضى وهكذا أنت تجوز فيه وتتركه لأبنك وهو أيضاً يعبر فيه جائزاً و يتركه لغيره».

الثالث : جسدنا هذا المائت القابل الفساد. ليس هو مسكن أرواحنا على حصر الكلام بل هو بمنزلة المظلة كقول الرسول بطرس «عالماً أن خلع مسكنى قريب كما أعلن لى ربنا يسوع المسيح» (٢ بط ١ : ١٤) أى أن جسدنا هو مثل الخيام التى يستظل بها المتغربون فى البرارى ولهذا نحن ننتهد من ثقله كما يشهد بذلك الرسول بولس قائلاً «فاننا نحن الذين فى الخيمة نئن مثقلين إذ لسنا نريد أن نخلعها بل أن نلبس فوقها لكى يبتلع المائت من الحياة» (٢ كو ٥ : ٤).

فاذن أين هو منزلك الحقيقى ؟ ليس هو الا اللحد لجسدك والمسكن الأبدى

لروحك . قال الجامعة « فيرجع التراب الى الأرض كما كان وترجع الروح الى الله الذى أعطاها » (جا ١٢ : ٧) فلهذا يكون من الجهل العظيم أن يهتم المسافر فى اقتناء أملاك فى احدى المدن التى يعبر عليها وهو يتأكد أنه لا يبقى بها فيجب عليك اذن أيها الانسان أن لا تدع عينيك تنظران الى كل ما تريانه فى أرض العبور وان لا تجعل قلبك يتعلق بشئ معاً .

كم من الناس شرعوا فى بناء بيوت ولكن الموت لم يمهلهم حتى يتموها وكم من أناس قاسوا التعب الشديد فى بناء البيوت حتى أتموا بناءها ولكنهم لم يسكنوها سوى مدة قصيرة ثم خرجوا منها محمولين على الأعناق دون أن يكون لهم أمل فى الرجوع اليها مرة ثانية . فسبيلنا اذن أن نوجه قلوبنا حيث تكون نهايتها لأنه مهما توفرت أسباب الراحة فى الحياة الدنيا فلابد من تركها لأنها « فانية » ولنحرص جهدنا لكى نبلغ (الباقية) الخالدة . قال سليمان الحكيم « كل الأنهار تجرى الى البحر والبحر ليس بملآن . الى المكان الذى جرت منه الأنهار الى هناك تذهب راجعة » (جا ١ : ٧) فكل شئ بطبيعته يطلب مركزه الأول ويميل اليه ، هكذا ينبغى لنفوسنا أن تحن للسماء وتشتاق للاله لأن السماء مسكنها الأبدى والله مصدرها الذى خرجت منه . قال أحدهم « لو دفعت حجراً الى العلا لرأيته قلقاً مضطرباً لا يهدأ حتى يرجع الى الأرض مركزه ، والسمك لا يعيش خارج الماء لأن هناك غايته . والطير لا يستريح فى قفصه كما لو كان طليقاً حراً وهذه رغبته . والعضو المرضوض لا راحة له إلا إذا عاد الى أصله كما أنه لا هناء للمسافر حتى يبلغ غاية سفره » هكذا عبثاً تقود نفسك الى حيث توجد الملاذ العالمية لتريحها وتشبعها فهى لا تستريح إلا إذا استقرت فى حضن مبدعها . خلق الله كل الأشياء لأجل الأنسان وخلق الانسان لأجله وحده ولكن من المؤلم أن نرى كل المخلوقات تتمم الغاية التى لأجلها وجدت أى أن تخدم الانسان وتقوم بمطاليبه ولكن الانسان وحده لا يعرف الغاية التى خلق لأجلها ولا يبالى بالاله الذى أوجده .

فاعلم أيها الانسان أن الله لم يخلقك للأرض بل للسماء ، لم يخلقك للفانى بل للباقى وهوذا الرسول يقول « اهتموا بما فوق لا بما على الأرض » (كو٣ : ٢) فمن العبث أن تقضى حياتك هنا فى طلب الفانيات فابعث بآمالك وأشواقك الى الوطن

العلوى واسمع قول المخلص « اعملوا لا للطعام البائد بل للطعام الباقى للحياة الأبدية » (يو٦ : ٢٧) لا تشيد أساساتك على الأشياء المنظورة ولا تبن بيوتك على أساس واه بل ارفع قلبك الى السماء ، « اعملوا لكم أكياساً لا تفنى وكنزاً لا ينفذ فى السموات حيث لا يقرب سارق ولا يبلى سوس لأنه حيث يكون كنزكم هناك يكون قلبكم أيضاً » (لو١٢ : ٣٣ و ٣٤) فالطبيعة الروحية لم تخلق لأمور هذه الحياة المادية بل لأمور أفضل ، فمن يشغلها بما ليس لها فقد حولها عن غايتها وانحرف بها الى الهلاك الأبدى . قال داود النبى « من يصعد الى جبل الرب ومن يقوم فى موضع قدسه . الطاهر اليدين والنقى القلب الذى لم يحمل نفسه الى الباطل ولا حلف كذباً » (مز٢٤ : ٣ و ٤).

* * *

الفصل الثانى
فى ان هذه الحياه ليست نصيباً لنا

« نصيبى هو الرب قالت نفسى من أجل ذلك أرجوه » (مرا ٣ : ٢٥)

يمتاز الانسان عن سائر المخلوقات لأنه الله خلقه برأس مستقيم ترتفع الى السماء بينما ترى رؤوس كل المخلوقات الحية منحنية نحو الأرض ، وذلك يدل على أن للانسان مركزا خاصا عند الله دون باقى المخلوقات التى لا تتعدى حياتها الأرض و يثبت لنا هذه الحقيقة الرسول بولس فى قوله « فإذن نحن واثقون كل حين وعالمون أننا ونحن مستوطنون فى الجسد فنحن متغربون عن الرب » (٢ كو ٥ : ٦) .

ولا نجد برهانا على أن هذه الأرض ليست نصيبا لنا أقطع من شهادة الوحى الالهى وشهادة الاختبار فهما يؤكدان لنا بأنها دار شقاء وتعب وأن الذى يرغب فى امتداد حياته عليها يشتهى امتداد زمن عذابه كمن كان مسجونا فى سجن ردىء واذا ما جاء يوم اطلاقه أثر البقاء فى ضيق السجن . فالذى يقصر الله أتعابه ويختاره قبل حينه انما يمنع عنه الآلام والأتعاب كما قال أيوب « الانسان مولود المرأة قليل الأيام وشبعان تعبا ان كانت أيامه محدودة وعدد أشهره عندك وقد عينت أجله فلا يتجاوزه . فاقصر عنه ليستريح الى أن يسر كالأجير بانتهاء يومه »
(أى ١٤ : ١ ، ٥ ، ٦ ،) .

فأيام حياتنا مع كونها قصيرة لكنها رديئة جدا وهوذا يعقوب البار يشهد عنها قائلا « قليلة ورديئة » (تك ٤٧ : ٩) و يقول المرتل « أفخرها تعب و بلية » (مز ٩٠ : ١٠) ولو سئل جميع المشرفين على الموت من بنى آدم عن هذه الحياة لصرخوا بأعلى صوتهم قائلين « هى حزن وشقاء ، فنحن نعيش فى فساد الجسد ولا نجد فى الملاذ الكاذبة راحة وسرورا بل خوفا يعذب الجسد وحزنا يحرق العظام » .

ولكن مما يدعو الى الأسف انه بالرغم عما فى الحياه الحاضرة من الألم والبؤس فان الناس يميلون اليها و يشتهونها ، وما أصدق قول بعضهم « الحياة شقاء محبوب ولكنها معشوقة . يشكو الناس مرارة ما يجدون فيها فاذا دنا يوم الفراق تقطعت الأكباد حسرة وارتعدت الأعضاء خيفة » و يؤكد ذلك ما قالته احدى الفتيات « كل ما ليس أليما فى هذه الحياة سخيف . وكل ما ليس سخيفا أليم . سينقضى كل شيء لأنى أريد كل شيء وأنا لذلك فى هم مفزع أرسل حولى صيحات الألم ولكنى مع ذلك أحب الحياة . وأجد فيها كل شئ طيبا لذيذا حتى الدموع والألم أحب الحياة بالرغم من كل شيء . أحب أن أحيا ومن القسوة أن أموت » .

فيا لجهل الانسان الذى يحب البقاء فى الحياة مع اشتراطها على كل من يبقى فيها أن تعذبه وتؤلمه وما أكثر الذين يقبلون هذا الشرط ليعيشوا . قال أحد ملوك اليونان « كون الانسان ملكا لا خير فيه » فاذا تؤمل اذن من دوام البقاء فى الحياة أيها التعيس وأمراضك تتابع وتتواصل . قال جان جاك روسو « ان الدواء الناجح لشفاء أمراض الناس هو الموت » فكم من أناس طلبوا أن تطول حياتهم فطالت ولكنهم لم يجدوا فيها الا الشقاء تخلصوا منها بالانتحار، وقد قيل أن امرأة بعد أن احتفلت ببلوغها المائة عام وجدت ميتة بالاختناق وعرف بعد ذلك أنها انتحرت تخلصا من الحياة فكل هذا يدل على أن هذه الحياة ليست مركز راحتنا ولا موضع نعيمنا .

أى شيء فى هذه الدنيا يحبب لنا البقاء فيها ؟ هل الأخطار التى لا تكف والأضرار التى لا تنقطع ؟ ان الله أعطى الاسرائيليين وهم فى مصر عذابا حتى لا يشتهوا البقاء فيها ونحن أيضا أعطى لنا فى الأرض شقاء حتى لا نحسبها مقرا لنا . فكان ينبغى أن نتوق الى يوم الرحيل بفرح ولكن وا أسفاه فاننا عندما نشعر بأن الله يدعونا اليه ننزعج ونضطرب . وقد شابهنا افرايم الذى شبهه الكتاب بحمامة رعناء (هو ٧ : ١١) ذلك لأن الحمامة لجهلها تود البقاء فى عشها معهما قتلت فيه فراخها أو كسر بيضها ومهما صادفت فيه من الآلام والأهوال . هكذا نحن مع كوننا فى الحياة نقاسى كل أنواع الشقاء فاننا نخشى أن نتركها أو نرحل منها .

ان خروجنا من هذا العالم أفضل جدا وأكبر رحمة بنا من دخولنا اليه من كل الوجوه «يوم الممات خير من يوم الولادة» صحيح أنه ان ولد انسان فى العالم يفرح الآخرون (يو ١٦ : ٢١) وان مات يحزنون و يكتئبون . أما من جهتنا نحن شخصيا فيوم الممات الذى يضع حدا لأهتماماتنا الكثيرة وأتعابنا وأحزاننا التى لا حصر لها و ينقلنا الى الراحة والفرح والسعادة الأبدية خير من يوم الولادة الذى دخلنا فيه عالما مملوءا بالخطية والتعب والبطلان وقبض الريح . نحن ان ولدنا لا نعلم كيف سنقضى حياتنا أما ان مات انسان صالح فإنه يعلم الى أين هو ذاهب وكيف سيقضى حياته فى العالم الآخر. ان يوم الولادة يثقل كاهل النفس بحمل الجسد الثقيل ، أما يوم الممات فيحررها من ذلك الحمل .

قال الحكيم «ثم رجعت ورأيت كل المظالم التى تجرى تحت الشمس فهوذا دموع المظلومين ولا معز لهم ومن يد ظالميهم قهر وأما هم فلا معز لهم . فغبطت أنا الأموات الذين ماتوا منذ زمان أكثر من الأحياء الذين هم عائشون بعد . وخير من كليهما الذى لم يولد بعد الذى لم ير العمل الردىء الذى عمل تحت الشمس» (جا ٤ : ١ ــ ٣) قال القديس يوحنا فم الذهب «انه ينبغى لنا أن نفرح بموت طفل وموت رجل تقى يخاف الله لأنهما قد اعتقا من شقاء هذه الحياة وتمتعا بحياة مؤبدة »وقال أحد الأفاضل «ان السفينة ينبغى عليها الخوف ما دامت **فى البحر** فإن الرياح تلطمها والزوابع تكسرها . وهكذا فالحياة الحاضرة ما هى الا بحر مملوء صخورا وأخطاراً فمن يطلب العمر الطويل فهو يطلب سلسلة مخاطر وتجارب وحروب» .

سئل يوما فيلسوف يقال له ستيسكورس : أى نوع من أنواع السفن هو الأمن ؟ فأجاب ؟ «ان أمن السفينة هى التى وصلت الى البر» هكذا يسوغ لنا أن نقول أنه ما دام الانسان فى الدنيا فهو فى عالم الخطايا فما لنا لا نطلب بأوفر شوق أن نصل عاجلا الى الموضع الذى نأخذ راحتنا فيه ونحصل على **نجاتنا** . **قال القديس كبريانوس** «أن حربنا هنا مع الكبرياء والدنس والغضب وحب المال ومع بقية الرزائل الجسدية . فأن قهرنا حب المال نهضت الشهوة الجسدية واذا روضنا هذه

الشرور أعقبها الطمع واذا أقمعنا الطمع تغلب الغضب وانتفحت العجرفة وتملق السكر وفرق الحسد الألفة وقطعت الغيرة المحبة » .

فلنسع اذا وراء النجاة حيث نكون . غير مبالين بموت الجسد وفساده فإن النوتية اذا هاج عليهم البحر لا يهتمون إلا بنجاة أنفسهم واذا وصلوا الى البر سالمين لا ينظرون الى سفنهم ان كانت قد تهشمت أم غاصت فى الماء ولا الى أمتعتهم ان كانت قد بقيت أو فقدت بل ينظرون الى أنفسهم . وقد نجوا من الخطر فليفسد الجسد ولتنحل عناصره وليعد الى التراب كما كان فاذا يهم من أمر الجسد اذا ما حصلت الروح على السعادة الأبدية ؟

الفصل الثالث
فى اننا غرباء على هذه الارض

«لأنى أنا غريب عندك نزيل مثل جميع آبائى» (مز٣٩ : ١٢)

ان كثيرين من رجال الله قد تأكدوا هذه الحقيقة وهى أنهم غرباء على الأرض فقضوا حياتهم عليها تائهين فى جبال وبرارى ومغائر وشقوق وها الكتاب يقول عن ابراهيم «بالايمان تغرب فى أرض الموعد كأنها غريبة ساكنا فى خيام مع اسحق ويعقوب الوارثين معه لهذا الموعد عينه. لأنه كان ينظر المدينة التى لها الأساسات التى صانعها وبارئها الله» وقال أيضا عن باقى القديسين «فى الأيمان مات هؤلاء أجمعون وهم لم ينالوا المواعيد بل من بعيد نظروها وصدقوها وحيوها وأقروا بأنهم غرباء ونزلاء على الأرض» (عب ١١ : ٩ و١٠ و١٣)

وقال داود النبى «غريب أنا فى الأرض فلا تخف عنى وصاياك» (مز١١٩ : ١٩) فاعلم أيها الانسان أنك متغرب ومسافر ولا ريب أنه فى السفر تعبا ومشقة فكيف تهوى أن تدوم مسافرا مقاسيا شتى الأتعاب والمشقات التى لا تنتهى ولا تشتهى الوصول الى نعيم الفرح والسلام ؟ كل غريب يبغى من كل قلبه أن يصل الى وطنه فلماذا ونحن غرباء لا نظهر شوقا نحو وطننا الحقيقى ؟ قال الكتاب الالهى «فان كنتم قد قمتم مع المسيح فاطلبوا ما فوق حيث المسيح جالس عن يمين الله» (كو٣ : ١).

فاعلم أيها المتغرب أن لك جسدا وروحا فالجسد المأخوذ من التراب يميل الى الأرض التى أخذ منها. والروح التى نفخها الله تميل الى الذى صدرت منه فاذا كنت تشعر بأن ميلك الى الأرض أشد من ميلك الى السماء فكن على يقين بأن جسدك منتصر على روحك. قال أفلاطون فيلسوف اليونان «الانسان كائن

مركب ذو طبائع ثلاث : احداها السائق والاخرين جوادان مجنحان أحدهما كريم الأصل والثانى دنيىء ، أما السائق فشأنه والحالة هذه غير السهل اليسير فبينما جواده الكريم يهم بالطيران بالمركبة والسمو به الى ذرى المجد والفضائل اذ بالآخر الدنيء الأصل يريد حطها الى حضيض الخمول والرذائل . ولكن اذا كان السائق (أى المرء نفسه) حكيما رزينا كبح جماح الدنيء وأطلق للكريم العنان فسما وتعالى قدرا وفعلا » فعليك أيها الانسان أن تتبين أن فى داخلك عاطفتين تريد الواحدة أن تعلو بك الى السماء وتنزع بك الأخرى الى الأرض فأيهما تنصر على أخرى ؟ هوذا داود الذى عرف كيف يذلل عاطفة العالم يقول « واحدة سألت من الرب واياها التمس أن أسكن فى بيت الرب كل أيام حياتى لكى أنظر الى جمال الرب وأتفرس فى هيكله » (مز٢٧ : ٤) وقال أيضا « لماذا أنت منحنية يانفسى ولماذا تئنين فى . ارتجى الله لأنى بعد أحمده لأجل خلاص وجهه » (مز٤٢ : ٥) .

فلا تغتر أيها الغريب بما يقدم لك من الاكرام فى أرض الغربة لأن الغرباء حين وصولهم الى دار غربتهم يقبلون فيها بفرح ولكن حين ارتحالهم منها يحاسبون حسابا عسيرا . هكذا أنت اعتبر نفسك غريبا مهما كان لك من المجد والغنى وثق أنك منطلق الى أب غنى والى ديار مخصبة ذات منظر بهى . قال المرتل « قلت للرب أنت سيدى خيرى لا شىيء غيرك ... تكثر أوجاعهم الذين اسرعوا وراء آخر... الرب نصيبى قسمتى وكأسى أن قابضه قرعتى (مز١٦ : ٢ ، ٤ ، ٥) .

أنه ما من فكر مقدس يصد مطامعنا أكثر من التفكير بأننا غرباء فإن ذلك يوقف سير شرورنا كقول الرسول بطرس « اطلب اليكم كغرباء ونزلاء أن تمتنعوا عن الشهوات الجسدية التى تحارب النفس » (ا بط٢ : ١١) فاعرض عن كل ما يعرضه أمامك العالم لأنك تجرى مسرعا الى بيتك الأبدى ومن أوشك أن ينتهى سفره لا يحسن به أن يزين مكانا ليقيم فيه هكذا أنت قد وصلت الى العالم بالأمس

وستفارقه اليوم أو غدا فلا تطلب فيه مجدا ولا كرامة فالكتاب يقول «ملعون نصيبهم في الأرض» (أى ٢٤ : ١٨).

كل غريب يحط رجاله في بلد ما لا يهتم ان كان يقضي فيها ليلته مستريحا أو متعبا لأنه يرجو أن يستريح في وطنه في الليلة المقبلة، فانظر الى نعيم الحياة وبؤسها وراحتها وتعبها وكرامتها وهوانها وغناها وفقرها وصحتها ومرضها نظرة واحدة لأن الذين يفوزون بنعم الحياة سيتساوون عند النهاية بأشقيائها، فارفع نظرك الى العلاء واصرفه عن الأرض وقل مع المرتل «من لي في السماء ومعك لا أريد شيئا في الأرض» (مز ٧٣ : ٢٥) واعتبر بقول الرسول الوقت منذ الآن مقصر لكي يكون الذين لهم نساء كأن ليس لهم. والذين يبكون كأنهم لا يبكون والذين يفرحون كأنهم لا يفرحون والذين يشترون كأنهم لا يملكون ... لأن هيئة هذا العالم تزول» (١كو٧ : ٢٩ — ٣١).

قال القديس يوحنا فم الذهب مقارنا بين من يهتم بالسماء معتبرا الأرض دار غربة ومن يقصر كل همة على هذا العالم «انهما يشبهان تاجرين سافرا الى بعض الأقاليم لابتياع التجارات وحين بلغا سالمين وطلعا الى المدينة افترقا فمضى كل واحد منهما الى غايته. أما أحدهما فإنه شمر عن ساعده العزم وقام على قدم الاجتهاد وأخذ يجول الأسواق وأماكن المتاجر ويسأل السماسرة وأهل الخبرة بتلك البلاد عن البضائع النافعة والمتاجر الرابحة ويجتهد في الابتياع ليلا ونهارا ولا ينظر الى لذة ولا شهوة الى أن أكمل ما يحتاج اليه ثم استراح أخيرا. أما الآخر فانه عندما طلع الى المدينة أخذ يسأل أهلها عما بها من البساتين والحمامات ومحلات الخمر وأماكن اجتماع المضحكين والحسان من النساء وما زال يقضي الأوقات هكذا ساعة في الحمام وساعة في البستان وساعة يأكل ويشرب وساعة يضحك على المخايلين وكلما رأى رفيقه مجتهدا محصلا لأصناف البضائع يخاطبه معنفا على الانهماك في التعب والاعراض عن الملذات وهو لا يلتفت اليه ولا يرجع الى خسيس رأيه الى حين انقضاء الأجل المفروض للتجار وضرب البوق بالرحيل وأقبل رجال المملكة وحراس المدينة على اخراج الغرباء من مدينتهم كالعرف المعتاد عندهم. أما ذاك التاجر الحازم اللبيب فإنه عندما سمع صوت أبواق السفر نهض

فرحا مسرورا لسرعة العودة الى الأوطان بما حصله من أصناف البضائع النفيسة ، وللوقت حزم المتاجر وسار سالما غانما ، وأما ذلك العاجز الخائب فإنه عندما سمع صوت الرحيل و بلغ اليه الأجناد المخرجون الغرباء من مدينتهم تيقظ من غفلات الجهل ونوم الكسل وأقبل على ذاته بالبكاء والندم والأسف والعويل وهو يسترحم فلا يجد راحما و يستعطف فلا يجد متعطفا حيث أصبح بين التجار فقيرا خائبا اذ لا مال له ولا جمال ولا زاد ولا متاجر وهو مستقبل البرارى المخوفة والطرقات الهائلة وخليق بمثل هذا أن يموت خوفا ويهلك جوعا وهلعا .

لو كان لك أن تدوم فى هذه الحياة لجاز لك أن تقتنى فيها دورا ومالا وتذخر الخيرات الوافرة الجزيلة ولكن كل ما تقتنيه ههنا ليس هو من نصيبك لأنه قريب ذلك الوقت الذى تخلفه فيه لسواك ، قال المرتل « من الناس بيدك يارب من أهل الدنيا . نصيبهم فى حياتهم . بذخائرك تملأ بطونهم . يشبعون أولادا و يتركون فضالتهم لأطفالهم . أما أنا فبالبر أنظر وجهك ، أشبع اذا استيقظت بشبهك » (مز١٧ : ١٤و١٥)

إن المسافر الفطن إذا جاز فى بلدة أخذ معه منها ما يتمكن من أخذه ، أو أرسل أمامه الى وطنه كل ما استطاع إرساله مما يجده ثميناً ، كذلك يجب على كل انسان بإجتيازه فى هذا العالم أن يأخذ معه ما استطاع من ثمين الأعمال الصالحة . حقاً إن الانسان سيخرج من الدنيا فارغ اليدين من كل شئ فى العالم ولكن يمكنه أن يخرج وقلبه مملوء من الإيمان و يداه تحملان ثمر إيمانه .

قيل إن مدينة كان يقيم أهلها كل سنة ملكاً غريباً عليهم ، وعند نهاية السنة يفاجئه أهل المدينة من حيث لا يدرى فيخلعونه من ملكه و يطوفون به المدينة عرياناً ثم ينفونه الى جزيرة يموت فيها جوعاً وجزناً . فحدث إن رجلاً حكيماً ملكوه عليهم أدرك الأمر واستطاع أن يعلم ما سيجرى له فشرع يبنى فى تلك الجزيرة دوراً وقصوراً وأخذ يرسل اليها كل ما ملكت يداه حتى نفى اليها وكان قد أعد فيها كل خير ونعمة فعاش فيها غنياً رغداً مطمئناً . فلو كنا نتصرف فى أمورنا الروحية تصرف هذا الرجل الحكيم لاستطعنا أن ننتقل من هذه الحياة مطمئنين لأننا أعددنا لأنفسنا

فى بيتنا الأبدى كل وسائل راحتنا . وأحد الذين استعدوا جيداً يوم الرحيل كان يصرخ قائلاً «لأن خفة ضيقتنا الوقتية تنشئ لنا أكثر فأكثر ثقل مجد أبدياً ، ونحن غير ناظرين الى الأشياء التى ترى بل الى التى لا ترى ، لأن التى ترى وقتية وأما التى لا ترى فأبدية» (٢ كو٤ : ١٧ و١٨).

فيا أيها المسافر الى الحياة الأبدية لا يهمك عدم إجلال الناس لك وإذا أعياك تعب الطريق فلا تغتم لأنك لابد واصل الى النهاية إن عاجلاً أو آجلاً وإذا لم تكن ممن جادت عليهم الدنيا بخيراتها فلا تحزن فأولئك الذين حازوا الغنى الطائل سيحزنون فيما بعد أما أنت فستفرح إن هذه الخيرات ستكون حملاً ثقيلاً عليهم فى الطريق ولا يقدرون أن يمروا بها من الباب الضيق (مت ٧ : ١٣ و١٤) وهوذا الحكيم يقول عنهم «ومحبتهم وبغضتهم وحسدهم هلكت منذ زمان ولا نصيب لهم بعد الى الأبد فى كل ما عمل تحت الشمس» (جا ٩ : ٦).

فالذين يحملون أنفسهم أحمالاً ثقيلة يتأخرون لأنهم لا يستطيعون السير مسرعين فى «طريق الأرض كلها» (١ مل ٢ : ٢) تلك الطريق التى توصل الى الموطن الذى يكون مقر الجميع الى الأبد . أما الأبرار الذين طرحوا عنهم أحمال العالم وأثقاله فإنهم يصلون أولاً و يدخلون باب السماء وأما «المتأخرون فلا يفرحون به» (جا ٤ : ١٦) وهناك يعرفون أن خيرات العالم هى التى كانت علة هلاكهم فيطرحونها مزدرين بها . فإختر لنفسك إذا «النصيب الصالح الذى لن ينزع» (لو ١٠ : ٤٢) وقل مع القديس أوغسطينوس «انك يارب خلقتنا لك ولن نزال معذبين الى أن نستريح بك».

الفصل الرابع
فى حقيقة الموت

« أى انسان يحيا ولا يرى الموت . أنى ينجى نفسه من يد الهاوية » (مز ٨٩ : ٤٨)

ليس شئ من أمور الدنيا إلا وهو معرض للشك حتى قال بعض الفلاسفة « ان كل شئ يقبل الشك حتى قولى هذا أن كل شئ يقبل الشك » ومن الفلاسفة طائفة يعرفون بأهل الشكوك يشكون فى كل شئ حتى فى وجود ذواتهم و يعتبرون الحياة بما فيها كرؤ يا منام . ولكن مهما وقع الشك فى أمور الحياة فإنه يوجد أمر واقع لا دخل للشك فيه وهو الموت . ومن عجيب أمر الانسان أن يعتبر ما يراه من أباطيل الحياة كالحقائق ، و يعتقد بصحة الأمور التى يكون الشك فيها بيناً واضحاً ، بينما لا يهتم بأمر الموت الذى هو حقيقة لا ريب فيها قال المرتل « باطنهم أن بيوتهم الى الأبد مساكنهم الى دور فدور » ولكنهم « مثل الغنم للهاوية يساقون . الموت يرعاهم و يسودهم المستقيمون . غداة وصورتهم تبلى . الهاوية مسكن لهم » (مز ٤٩ : ١١ و ١٤).

يدخل الانسان العالم من باب ولابد أن يخرج منه من باب آخر ، فدخوله من باب الولادة وخروجه من باب الموت . وعلى هذا المنوال ترى الناس على إختلاف مذاهبهم وحالاتهم . واحداً داخلاً الى العالم وآخر راحلاً عنه . ولهذا قال فيلاموس « إن حياة الانسان ليست إلا ولادة وموت . فعند ولادتنا نخرج من قبر مظلم وعند موتنا نلج قبراً أظلم وأفزع . قال أيوب الصديق « أليست أيامى قليلة اترك . كف عنى فانبلج قليلاً ، قبل أن أذهب ولا أعود ، الى الأرض ظلمة وظل الموت . أرض ظلام مثل دجى ظل الموت و بلا ترتيب وإشراقها كالدجى » (أى ١٠ : ٢٠ — ٢٢) والكتاب الالهى يصرح قائلاً « وضع للناس أن يموتوا مرة »

(عب ٩ : ٢٧) وقد قال القديس أغسطينوس « أمر موتنا هو أكيد بلا ريب . ولكن كان الطفل حين ولادته لا يعرف من أمر مستقبله شيئاً أيكون غنياً أم شقياً ؟ ولكن أمراً واحداً يعرف عنه بكل تأكيد هو التزامه بأن يموت ».

ومتى عرفنا ذلك فما بالنا نتصرف فى الحياة تصرفُ من لا يموت قط . هل نظن أن هناك قوة أو حيلة يمكننا أن نستخدمها لنمنع حكم الموت علينا أو نؤخره ؟ هوذا القديس أوغسطينوس يقول « يمكن للناس مقاومة النيران الملتهبة وأمواج البحر المزبدة والأسلحة المرهفة والملوك المقتدرين ولكنه حينما يأتى الموت فمن يستطيع أن يقاومه ؟. وقال المعلم ترتوليانوس « إن الموت فى قبضة الله كالمنجل المسنون الباتر فإنه تعالى يحسم به و يقطع ويحصد من هنا وهناك . لا يميز بين المتوج الجالس على عرشه والذليل الذى يخضع له ».

فلسنا نرى هنا اذاً إلا حياة يتبعها الموت وموتاً يلازم الحياة وفى الحقيقة فإنه لا يوجد فاصل بين الاثنين فما الحياة إلا باب يدخل منه الموت وما وجودنا على الأرض إلا سياحة للقبر فالنبض الذى يحفظ كياننا إنما يسمعنا صوت أقدام الموت الذى يسعى الينا ، وما الدم الذى يجرى في عروقنا إلا جار بحياتنا الى أعماق الموت . اليوم نرى أصدقاءنا فى أتم صحة وغداً نسمع أخبار موتهم . بالأمس سلمنا على القوى واليوم يغمض عينيه ، منذ ساعة ركبنا مطية السلام وفى بضع ساعات لابد أن تأخذنا مطية الموت السوداء الى نهاية كل حى . آه ما أقوى إرتباط الموت بالحياة فالحيوان الذى يلعب فى الحقل ستقترب منه عما قريب السكين . الثور والحمل اللذان يمرحان فى المرعى إنما يسمنان لأجل الذبح ، والأشجار لا تنمو إلا للقطع .

فمتى تأكدت ذلك لا توهم نفسك بطول العيش ولا تحدثها كأن الموت بعيد عنك ، بل قل ياترى هل يدركنا الموت فى هذه السنة أم فى هذا الشهر أم فى هذا الأسبوع أم فى الغد أم فى هذا اليوم أم بعد هنيهة . قل متى تخرجين يانفسى من هذا الجسد وأين يكون ذلك ؟ أفى الشتاء أم فى الصيف ؟ أفى مدينة أم فى قرية ؟ فى الليل أم في النهار ؟ أيكون ذلك على غفلة أم بمرض أم بحادث من الحوادث ؟ وما أصدق قول بعضهم « حياة الانسان كالعصفور الذى ينتقل من مكان الى

مكان وهو لا يدرى أين يلاقى حتفه أفى عشه ؟ أم وهو يستريح على شجرة ؟ أم وهو يلتقط فى الحقل ؟ أم وهو يستقى من غدير ؟».

صور الحكماء الموت على عمود عال بشكل رجل شجاع مترجل تظهر عليه علائم البأس وهو متشح بملابس حالكة السواد بحالة ترهب النفس و وضعوا فى يده الواحدة منجلاً وفى الأخرى قوساً وحجبوا عينيه بستر غليظ من قماش تخين وجعلوا على رأسه إكليلاً مضفوراً من حشيش الأفستين وسدوا أذنيه بالرصاص ولم يضعوا فى رجليه حذاء بل أجنحة كأجنحة جوارح الطير. وقد قصدوا بشدة بأسه أن يبرهنوا على اقتداره على إمتلاك كل النفوس مهما كانت عظمتها . وأرادوا بالملابس السوداء أن يصوروا للناس ما يخلفه من الأحزان والحسرات . ومن تذرعه بالمنجل والقوس أن يدلوا على أنه يضرب الكل بلا استثناء . فالبعيدون عنه وهم الشبان يرشقهم بقوسه والقريبون منه وهم الشيوخ يحصدهم بمنجله . وقصدوا من اقفال عينيه إن يشيروا الى أنه لا ينظر الى جلال العظماء ولا الى ضعة المتضعين ، وأرادوا بحشيش الأفستين أن الموت يخلف المرارة ، كما أرادوا من سد أذنيه أن يشيروا الى أنه لا يسمع التنهدات والزفرات ولا يرهب من التهديد والتخويف . ومن جعل رجليه بلا حذاء الى أنه يدهم الانسان فى أى وقت . والوثنيون القدماء لم يبنوا مذابح للموت بين مذابح آلهتهم الكثيرة المعلومة والمجهولة لعلمهم بأنه آخر عدو قوى لا يذعن ولا يلين بأية واسطة من الوسائط . فالرشوة لا يلتفت اليها والتقدمة لا يكترث بها ، فلا يرحم شبيبة ولا يشفق على شيخوخة .

فكن على يقين أيها الانسان أنك ساع الى الموت . قد تغتر بهدوء فى منزلك ولكن فى نفس هذا الوقت الألوف يضطربون . قد تغتر بسلام تتمتع به الآن ولكن بيوتاً كثيرة فى هذا الحين مملوءة بالشقاء . وستمر الأيام عاجلاً وتنقلب الأحوال و يصبح ما عند سواك عندك وما عندك عند غيرك ، فالموت يحصد كل يوم مئات وألوفاً . وفى هذه اللحظة كم من أناس يشيعون الى المقابر ويحملون الى مقرهم الأخير وكم من دموع تنسكب وأفئدة تتوجع ونحن ننخدع بحاضرنا الذى ما أقرب تغيره !

كم من كثيرين على أبواب الموت ومع ذلك يظنون أنه بعيد عنهم . كم من كثيرين ينتظرهم الموت على أبوابهم ، بل كم من كثيرين أوشك أن يدخل الى مخادعهم ، بل كم من كثيرين قد اقترب من أسرتهم ومع ذلك لا يفتكرون فيه . إذا التقت سفينتان فى البحر يظهر لكل واحدة منهما أن الأخرى تسرع فى السير وهى واقفة أو تسير قليلاً ، ولكن حقيقة الأمر ليست كذلك فإن السفينتين تسيران . وعلى هذا المنوال نجد كثيرين إذا ما نظروا أحداً مات يتوهمون أن غيرهم يجرى الى الموت أما هم فباقون فى الحياة لا يموتون . ولكن داود النبى يقول « أنا ذاهب اليه وأما هو فلا يرجع الى » (٢ صم ١٢ : ٢٣) .

ومما يدهش أن كثيرين من الذين غاب اسم الموت من أمام عيونهم إذا قلت لهم إن فلاناً مات يبدون إستغراباً كأنك أخبرتهم بأمر ليس من العادة وقوعه ولذلك يبادرونك بقولهم وكيف مات ؟ لا يستفهمون بذلك عن سبب الموت بل عن الموت نفسه . ولو قلت لهم إن فلاناً طار فى الجو لما وقعوا فى الاستغراب وقوعهم فيه عند إبلاغهم خبر موته ، و يبدون استغرابهم بأن يقول أحدهم لقد رأيته بالأمس ، و يقول آخر لقد شاهدته اليوم فهم يظنون بأن الموت عاجز عن أن يهد قوى الانسان فى لحظة و يرديه فى برهة من الزمان : وذلك دليل على أن أملنا الباطل يتغلب فينا على علمنا الحقيقى بأننا نموت . قال القديس أوغسطينوس : الأغصان تسقط من الأشجار والأحجار من الأبنية فلماذا نستغرب موت البشر أهل الفناء ؟

أليس شروق الشمس ومغيبها كل يوم يذكرنا بأننا كما وجدنا فى الحياة سنغيب عنها يوماً . تطلع فماذا ترى فى هذا العالم . هوذا كواكب تبدو وتغيب ، و بدور تلمع وتنطفئ وزهور تنمو وتذبل ، وأعمار تبتدئ وتنتهى . وانسان يولد ويموت ، كل ما حولنا ينذرنا بزوال الحياة . النجوم المتساقطة تقول لنا إن الحياة زوال . الزهور الذابلة تقول لنا إن الحياة زوال . المقابر التى نشاهدها كل حين تقول لنا إن الحياة زوال . الصخور الهائلة التى مرت عليها الأجيال ونراها الآن تنحل الى ذرات كما كانت ، تصيح بنا إن الحياة زوال .

ولكننا نحن نسمع ذلك فنهزأ به ، نسمع أن أناساً يموتون فنقول ولكن نحن لنا

الحياة . نرى أناساً تضمهم القبور فنقول ولكن نحن لنا الحياة . نرى أناساً تضمهم القبور ولكن نحن لنا القصور . نشاهد كثيرين ينحطون من مجدهم الى الحضيض فنقول ولكن نحن لنا المجد الذى لا يفنى . أسفى عليك أيها الانسان هل غرك أن الله أخذ أمامك أناساً ومنحك أنت سنة واحدة أو يوماً واحداً لتعيش ؟ هل تظن أنك أفضل ممن أخذ ؟ أنك تعيش لا لأنك تحب العيش بل لأن الله أراد إنك لم تمت الآن لا لأنك تكره الموت بل لأن الله لم يرد أن تموت . فلست إذاً حراً فى أن تعيش أو تموت برغبتك لأنه لو كان ذلك صحيحاً لما مات أحد لأنه ما من أحد يحب أن يموت . فالذين يموتون إذاً يموتون رغماً عنهم وستموت أنت أيضاً رغماً عنك عندما يشاء الله سواء رضيت أم لم ترض ، وإذا أتاك الموت بغتة فلا تنسب له الخيانة والغدر بل أنسب لنفسك الجهالة والغباوة لأنه أشهر علينا عدوانه من قديم الزمان فهو أخر عدو يبطل (١ كو١٥ : ٢٦). فإذا فأجاك بدون أن تتهيأ لأستقباله فاللوم عليك أنت الذى تأمن لمن هو عدوك كما قال الكتاب « ويمحى عهدكم مع الموت ولا يثبت ميثاقكم مع الهاوية » (اش ٢٨ : ١٨) .

فكل دقيقة من دقائق الحياة لا تكاد تنقضى حتى يموت فيها ألوف من البشر فلماذا تعد نفسك بين الذين يموتون بعد سنين ولا تحسبها بين الذين يموتون فى هذه الثانية ؟ فكم من المدن والبلدان تمتلئ فى كل جيل من شعوب جدد بعد أن يكون شعوب الجيل الماضى الذين كانوا قبلهم قد ماتوا . فكما إن حياة أولئك قد انقضت هكذا تنقضى حياة هؤلاء و يأتى وقت لا أوجد فيه لا أنا ولا أنت ، إذ الموت لا يشبع (حب ٢ : ٥) قال أحدهم : « انك منذ مائة سنة لم تكن فى الوجود و بعد مائة سنة لا يكون لك وجود أيضاً ».

من عادات أهل إحدى بلاد الهند أنهم يقيمون إحتفالاً كل مائة عام فى ساحة ، كان فى وسطها صخرة مرتفعة ، وحين يتم الاجتماع فى ذلك اليوم يخرج مناد فى الناس قائلاً « ليتقدم الآن و يصعد على هذه الصخرة من شهد مثل هذا الاحتفال منذ مائة عام ، وحينئذ يسود على الكل صمت عميق و ينتظرون حتى يبرز من بينهم رجل عبث به مر الأيام وكر الأعوام فيتثاقل فى مشيته و يصعد

الصخرة ببطء و يظهر أمام الناس منحنى الظهر مبيض الشعر مجعد الوجه تكسو وجهه سحابة غم مما لحقه من البلايا ثم يتكلم بحزن عما شهده فى بحر المائة عام من سقوط ممالك وانهيار عروش وزوال أشخاص ويختم كلامه بقوله « كل ما أستطيع أن أقوله عن هذه الحياة أنها دار زوال فكل ما شهدته زال كما أنى أيضاً سأزول وسيأتى الاحتفال القادم وأنا تحت أطباق الثرى وقد بلى لحمى وفنى عظمى ».

فكن على ثقة أيها الانسان أنه كما سجل اسمك فى غداد المولودين يوماً سيسجل أيضاً ضمن الأموات فى يوم آخر وما صنعته يوماً مع أحد أقربائك المائتين سيصنع بك أيضاً يوم تموت ، وكما تتكلم عمن رحلوا قبلك وتقص أخبارهم فكذلك سيتحدث عنك من يبقون بعد رحيلك . وكما ورثت من سبقك سيرثك أيضاً من يلحقك . ومهما بكى عليك وولول من تظن أنهم يحبونك فلابد أنهم يوماً يضحكون و يرجع اليهم السرور كما كان أثناء وجودك . سيأكلون على الموائد التى كنت تأكل عليها و يشربون فى الأقداح التى كنت تشرب فيها . و بينما تكون أنت مرعى للدود والحشرات يكون أقرباؤك متنعمين بما لك مبتهجين بميراثك . قيل إن أحد الملوك وهو يموت رأى أهله حوله يبكون فقال لهم « جدت عليكم بالدنيا وجدتم على بالبكاء وتركت لكم ما جمعت وتتركونى أحمل على ظهرى ما عملت » وقال داود النبى « نسيت من القلب مثل الميت » (مز ٣١ : ١٢).

أفلا تعلم أيها الانسان الذى تتوهم أن الأرض دار بقاء أنك تمشى على جثث الأموات وأن الرماد الذى ندوسه بأقدامنا كان يوماً أجساداً نضرة جميلة بهية يتباهى بها أصحابها . وستصير أجسادنا نحن على هذا النحو تراباً يدوس عليه من يأتون بعدنا . أجل ، قد تشيد هنا داراً حسب رغبتك ولكن عليك أن تتأكد أنك سوف تهجرها الى الأبد وتستقر فى حفرة تبلى فيها عظامك . نعم لقد تفوز بالرتبة العالية والوظيفة الرفيعة ولكنك ستنزل من مقامك وتسقط من درجتك وتدرج فى الثرى بجوار أحقر الناس وأذلهم . وحينذاك فقط تغمض عينا جسدك وتفتح عينا نفسك وتدرك أنك بنسيانك الله ومحبتك للعالم قد انحرفت ، وتتأكد أن كل شئ عداه باطل وحينئذ تقول مع النبى « حبال الهاوية حاقت بى . اشراك الموت انتشبت بى » (مز ١٨ : ٥).

فهل هناك إذاً من شك فى الموت ؟ هل يجسر انسان على القول أنه يحيا الى الأبد أمام تلك القوة الهائلة العظيمة التى لا حد لها ؟ ضع فى عقلك أيها الانسان كيف يتصرف معك الموت ببأس وجبروت وكيف يفصلك بقساوة عن كل ما مملكت يداك وعن كل ما قضيت العمر فى اقتنائه ؟ عن أولادك الذين أحببتهم وعن زوجتك التى تحبها وعن أصدقائك الذين كانت تحلو لك عشرتهم ؟ تذكر كيف يغمض عينيك فلا تعود فيما بعد ترى بهما أحداً من البشر أو تمتعهما بما كانتا تميلان للنظر اليه من الأمور البهية . و يسد أنفك فلا تعود تستنشق الروائح الزكية . و يصم أذنيك فلا يكون لك من سبيل لسماع الأغانى المطربة والنغمات الشجية . و يطبق شفتيك فلا تستطيع فتحهما لتلذذ نفسك بالمآكل والمشارب ، و يعقد لسانك فلا يتحرك لشتيم الناس واهانتهم ولا للافتخار والتباهى و يشل يدك فلا تمتد لتناول الدراهم وقبض الدنانير . ويخلع قدميك فتعجز عن السعى للجمع والتكديس أو للانتقام والاغتيال و يسكن قلبك فلا يعود يهتز لفرح أو يضطرب لحزن .

ثم تعال بنا نتأمل فى ما سيصير اليه الانسان بعد الموت . أنظر لهذا وقد غاب فى الرمس وتوسد التراب ثم شق عنه كفنه صبيحة ثالث يوم موته واسأل نفسك هل هو الذى كنت تراه قبلاً ؟ ألا تراه جثة مشوهة مخيفة ؟ ألا تشتم رائحته النتنة الكريهة ؟ ما بالك تنفر منه وهو الذى كانت تنبعث من بين أردائه الروائح الزكية ؟ وما بالك تحاول أن تهرب من أمامه كأنه شبح وحش فاتك وهو عديم الحركة والقوة ؟ إن لسان حاله يقول : ألست أنا الذى كنت تخشى صولتى ، فما بالك أنكرتنى ونسيتنى كأنك لم تعرفنى !!

هذا هو الحال الذى سيصير اليه ذلك المتكبر أو ذاك الفخور المعجب بنفسه وجاهه وغناه وجماله ذلك الذى كان موضع وقار عارفيه واحترامهم فى المجالس ، ذلك الذى كانت تشتهى الناس أن تنال منه كلمة عطف أو تتطلع أعينهم الى جماله البديع ماذا جرى له ؟ لقد أصبح موضع النفور والكراهة عند كل من يشاهده حتى من أخص محبيه . وقد أسرع أهله فأخرجوه عاجلاً من بيته حتى لا يفسد هواء الغرف برائحته الكريهة .

فما بالنا إذا لا نفتكر فى أننا نموت والموت أمر محقق ؟ ذلك لأننا ننظر الى معاصينا ونعتقد أن الموت ينقلنا الى العذاب الأبدى . فمن لا يخاف من هذا المصير الذى يجعلنا نترك كل ما نحب هنا لنقاسى كل ما نكره هناك . قال رجل لحكيم « مالنا نكره الموت » فأجابه الحكيم « لأنكم أخربتم آخرتكم وعمرتم دنياكم فكرهتم أن تنتقلوا من العمران الى الخراب » فلنتبصر جيداً ولنطرح عنا الاهتمام بأمر الدنيا الذى يجعل الموت أمامنا مكروهاً مبغوضاً وهوحق ، ولنتجه بعقولنا طالبين السعادة الأبدية حتى لا نخشى الموت ولا نخافه ، لأن الأشرار يرون جهنم من وراء باب الموت مفتوحة لابتلاعهم فيخافون . أما الأبرار فإنهم يشخوص منه الى السماء فيرونها مفتوحة لقبولهم فيفرحون .

إن من كان تحت خطر الاعدام يتصوره فى كل دقيقة ، ونحن تحت خطر الموت فلنتصوره على الدوام ولنحتقر الأرضيات ونرغب فى السماويات كى لا يكون لنا الموت هلاكاً دائماً بل حياة أبدية بالمسيح يسوع ربنا .

* * *

الفصل الخامس
فى خداع الدنيا وغرور الحياة

«طردك الى التخم كل معاهديك . خدعك وغلب عليك مسالموك . أهل خبزك وضعوا شركاً تحتك » (عو١ : ٧)

لا تستطيع أن نصف مقدار جهل الناس فى انخداعهم بهذا العالم وغرورهم بأباطيله . فلو وجه الانسان نظرة الى كثير ينَ ممن أغرتهم الدنيا وخدعتهم بأوهامها وكيف خسروا السعادة لجاز عنها وهرب سر يعاً تابعاً خطوات الأتقياء الذين طلقوها بتاتاً وماتوا عنها فنجوا من عقاباتها الوخيمة . فالدنيا عدو ولكنها تغطى نفسها باللذة لكى يتبعها الأغنياء ، والسماء حبيب ولكنها تنال بالتعب والضيق ، وهوذا الحكيم يقول أمينة هى جروح المحب وغاشة هى قبلات العدو » (أم ٢٧ : ٦).

لو أن محبى العالم تمعنوا فيه بتدقيق لما وجدوه سوى سجن للأحياء ومقبرة للموتى ، فمن أحبوه فى ما مضى أهملهم بعد موتهم ولم يعد يذكرهم ، ومن يتمسكون به الآن لا يزال يخدعهم ويخفى عداوته لهم تحت ستار الحب حتى يهلكهم أشر هلاك ، لأن شفتاه تقطران عسلاً ، وحنكه أنعم من الزيت . لكن عاقبته مرة كالافسنتين . حادة كسيف ذى حدين .

فالذين ينخدعون بالعالم يصفهم الكتاب قائلاً « الذين يحسبون تنعم يوم لذة . أدناس وعيوب يتنعمون فى غرورهم » (٢ بط ٢ : ١٣) ولن يفيق الانسان المغرور بالعالم من سكرة غروره به إلا عند موته إذ يجد يده فارغة مما حصل واقتنى ولا تجديه الندامة نفعاً بعد أن نفذ سهم القضاء ، وتشبه حالته حينئذ حالة سيسرا الملك الذى

هرب الى خيمة ياغيل امرأة حابر القينى احدى نساء الأمة الاسرائيلية التى كان يحاربها فلم تشأ المرأة ان تغتاله ظاهراً بل قدمت له حليباً لذيذاً فشرب وأعدت له فراشاً فنام ومن ثم ضربت الوتد فى صدغه فلما شعر به حاول النهوض ولكنه لم يقو لأن سهم الموت كان قد نفذ فيه (قض ٤) وهذا ما تعمله الدنيا مع محبيها فانها تحزنهم فى حال سرورهم وتكدرهم فى حال صفوهم وتأتيهم بالموت وهم ناعمون فى أباطيلها متقسون بغرور الخطية (عب ٣ : ١٣).

فما أعظم خداع الدنيا وغرور الحياة إذ لا نهاية لها إلا الموت والبوار فلا تنشغل إذا بما تعرضه أمام عينيك بل اهرب من أكاذيبها أن شئت النجاة من الموت والهلاك فان الأباطيل التى يهواها أهل العالم و يرتاحون اليها تقودهم الى الاضطراب وتنتهى بهم الى الأحزان لأنها تبتدى بالخير وتنتهى بالشر. ولوفتش الانسان عن مقدار الألم الذى تختم به الدنيا لذاتها لولى مدبراً كمن يهرب من أفعى. فهى كنينوى التى قال عنها الكتاب « كل من يراك يهرب منك » (نا ٣ : ٧).

واذا أردت التحقق من صدق قولى فعليك بمن سبقوك فى هذا الوجود وكانوا من أعظم محبى العالم، سلهم وهم على فراش الموت أحقاً صداقة العالم صادقة ؟ وهل يفارق الصديق صديقة بدون أن ينطق كلمة وداع أو يذرف دمعة حنين ؟ تحقق جيداً لماذا لا يبكون على العالم وكانوا من قبل يحبونه ؟ تجدهم أصبحوا يحملون له فى قلوبهم كل حقد وضغينة. يموتون وهم مملوؤن غيظاً من تصار يفه و يتمنون لو يعودون اليه لينتقموا لأنفسهم منه لأنه غدر بهم. أسمعهم يقولون « ان البلايا الكثيرة والمصائب المتعددة التى أوقعها بنا العالم فتحت ينابيع دموعنا حتى لم نجد قطرة واحدة نجود بها عليه يوم فراقنا له. حدقوا بنا جيداً لتروا الغضون التى خلفتها الأوجاع والهموم ظاهرة فوق جبين كل واحد منا وخطوط الدموع التى أسبلتها الأحزان ظاهرة فى وجوهنا وقد حزت فى جلباب خدودنا ».

ان أهل العالم ينظرون اليه فى مظاهره الخلابة فيحبونه ولا يحسبون حساباً لما يخبئه لهم فى طواياه من التعاسة والشقاء فلا يخدعك منظره الآن ولا تعبأ بالحال الذى هو عليه فى هذا الوقت بل ترقب ما سيكون أخيراً. لقد دخلت الدنيا ولكن

لا بد أن تخرج منها . وان كان دخولها مفرحاً فالخروج منها محزن . لا يغرنك الجمال الحاضر بل تأمل الشناعة التي يتحول اليها ، ولا تظل غير مبال بالعواقب المحزنة التي ستؤول اليها سائر اللذات التي تتنعم بها هنا فالدنيا إنما هي كالذين قال عنهم الرسول بولس «انهم بالكلام الطيب والأقوال الحسنة يخدعون قلوب السلماء» (رو٦ : ١٨).

قيل أن رجلاً هرب من أمام وحش وجعل يعدو بسرعة حتى سقط وهو لا يفطن لما ينتهي اليه — في حفرة عميقة ولحسن حظه تعلق بشجرة ثابتة في جانب الحفرة وتمسك بأغصانها و بعد أن هدأ روعه أبصر جرذين أحدهما أبيض والآخر اسود يقرضان أصل الشجرة حثيثاً بلا فتور حتى ظهرت أنها على وشك السقوط وأحدق بمناظره الى عمق الهوة فإذا بتنين مخيف يتوقع سقوطه لابتلاعه فرفع نظره خوفاً فشاهد بين ورق الشجرة قليلاً من العسل يقطر . فلما رأى الجاهل ذلك أهمل التفكر في كل الأخطار المحدقة به وشرع يلعق من ذلك العسل السائل نقطة نقطة حتى سقطت به الشجرة وارح ضحية التهائه بالحلاوة الوقتية التي هي المرارة المؤبدة ! وكم من الناس كهذا الجاهل يتلذذون بما تقدم لهم الدنيا من حلاوة اللذات و يعمون عما تجهزه لهم من عظيم الضيقات والمشقات .

هذه هي حقيقة الحياة ، الخير فيها يقبل ثم يدبر و يعقبه الويل والهم المقيم . ومن عادة الدنيا إذا قدمت في الظهيرة طعاماً طيباً لذيذاً ففي المساء تقدمه مريراً ممجوجاً . و بينما نجد أهل العالم يقولون سلام وأمان يفاجئهم الهلاك بغتة . فلا تنظر للأوائل الخداعة بل للأواخر اللداغة فما عاقبة اللذات إلا مرارة وما نهاية هذه الحياة التي تحبها سوى دود ورماد ، وما غاية كل خطية مميتة سوى العذاب الشديد ، وفي المكان الواحد تقام معالم السرور ثم تقام علامات الحزن والكآبة فلا تتأثر بالمجد الباطل بل انظر الى عاقبته المرة . ولا تأخذنك اللذة التي هي بين يديك بل فكر فيما يعقبها من الهموم والغموم . سيأتي على الخاطئ وقت يقول فيه ليتني ما كنت أخطأت وهوذا الكتاب ينبهنا قائلاً «لا يخدعن أحد نفسه» (١ كو٣ : ١٨).

ما الذى يحبب الانسان فى هذه الدنيا ؟ أليس أنها تمتص منه الدماء وتسلب منه الراحة مقابل تلك اللقيمات التى يزدردها ومقابل تلك الخرق التى يتزر بها . وفى ختام الأمر كله يخرج منها وقد ظلم فى أجره ، يخدمها بدون مكافأة و يتعب كثيراً ثم يطرد منها صفر اليدين . ضحكت عليه وهى تحسن له سبيل خدمتها بوعود ظاهرها الأمانة و باطنها الخيانة حتى إذا أمن اليها رمت به بين أنياب الهلاك وذهبت تستقصى عن غيره لتنال منه ما نالت من سابقه . مال اليها وأحبها وخدمها باخلاص وأقسم لها يمين الولاء فخانته . كرس عينيه للتطلع الى جمالها فحملتها على أن تسكبا دموعاً غزيرة . قدم لها قلبه فداسته غير مبالية بآلامه وكانت كالرجل الظالم الذى لا يعطى أجراً لمن يتعب فى خدمته . قال أحد الآباء « نجاح هذه الدنيا ونعيمها يشعشع كالمصباح اللامع الضياء الذى يبقى ما دامت المادة . أما بعد فنائها فيعود دخاناً كريه الرائحة ».

قال يوحنا الانجيلى « لا تحبوا العالم ولا الأشياء التى فى العالم . إن أحب أحد العالم فليست فيه محبة الآب . لأن كل ما فى العالم شهوة الجسد وشهوة العيون وتعظم المعيشة . ليس من الآب بل من العالم . والعالم يمضى وشهوته . وأما الذى يصنع مشيئة الله فيثبت الى الأبد » (١ يو ٢ : ١٥ ــ ١٧) ويحقق لنا هذا أننا لا نجد فى هذه الحياة امرئ لا يشكو هماً ولا يبكى غماً . من من الناس لم تمتد اليه يدها بالأذى ، فى الطفولة باكين وفى الشبوبية خائبين وفى الشيخوخة مذلين . فى الحياة شقاء وفى الموت انزعاج . فى الصحو انذهال وفى النوم اضطراب . فى النهار مناظر مخيفة وفى الليل هواجس مرعبة ، فساعات الحياة حلقات متصلة من الآلام كل منها تدفع الانسان الى الأخرى فيجدها أمر وأنكى .

إن الذين يعشقون الحياة مع ما ذاقوه فيها من المر ومع ما قاسوه من التعب معتقدين أن مستقبلهم سيكون أفضل من ماضيهم ، وإن ماضيهم ان كان مراً شقياً فسيكون مستقبلهم حلواً سعيداً . هؤلاء قد ضلوا لأن للدنيا تصرفاً واحداً مع جميع أهلها وما تبتدئ به معهم أفضل مما تنتهى بهم اليه وقد يكون ما مضى أفضل بكثير مما يأتى صرح بعض الدجالين أنه فى الامكان كشف المستقبل ومعرفة الآتيات

بواسطة الشعور النفسى أو بتوسع علم قراءة الكف فقالت الصحيفة التى نشرت هذا الخبر « إذا أمكن ذلك فيالشقاء البشر و يالتعاسة الحياة ومرارتها وما ذلك إلا لاعتقاد الانسان الأكيد بأن فى الحياة الكثير من الشقاء والألم .

حقاً إن غرور الدنيا وغشها ظاهران للعيان وأعمالها توضح لنا شرها وتنادينا بأن لا نحبها لأنها كالأفعى تلدغ من يصادفها فيجرى سمها فى دمه فيقتله ، وهى كالنار تؤذى كل من يقترب اليها و يلاصقها . تأملها تجدها تخاتل قوماً وتعمى آخرين ، فإذا ولت فهى لا شئ وإذا أقبلت فهى كالخيال ومتى ارتفعت كانت دخاناً . هى عند الجهال حلوة لذيذة وعند الحكماء مرة كريهة . فمحبوها غير عارفين بها ومبغضوها مختبرون تصاريفها فهى توثق وتضطهد الذين يخدمونها وتجلب على عاشقيها هموماً وضيقات ، تهين الذين يكرمونها وتنسى الذين يتغنون بذكرها .

فينبغى أن يكون أشد خوفنا من العالم عندما يميل الينا و يظهر حبه لنا . فى ذلك الوقت يجب أن نمقته أكثر مما نبغضه عندما يضطهدنا علانية . لأنه كالرجل الظالم يغرى صاحبه و يسوقه الى طريق غير صالحة (أم ١٦ : ٢٩) فبقدر ادعائه مصادقتنا يبطن لنا فى جوف تلك الصداقة الموهومة كل الأخطار التى تهلكنا . وإذا كنت تراه يبتسم لك حيناً فلابد أن يكشر لك أبدا عن أنيابه . وإذا كنت ترى الآن قوماً يضحكون فلأنهم لم يقفوا بعد على أسرار خداعه وسيأتى عليهم وقت يكونون فيه مطلع الساخطين عليه و يرفعون عقيرتهم بالشكوى من خيانته و ينتظرون اليوم الذى يحصلون فيه على النجاة منه انتظار الغريق حبل النجاة ، وانا نشاهد عن قرب ذلك اليوم الذى يقضى فيه على كل أمل لهم ويخيب آخر رجاء لهم . فما الدنيا إلا كالطائر الذى قيل أنه ما هبط على شجرة إلا واسقط كل أوراقها . ينشأ الانسان فيها مفعماً بالآمال فإذا بها تخيب أماله الواحد بعد الآخر . وإذا خيبت له أملاً أطمعته بتحقيق الأمل الآخر حتى يخيب الأمل الآخر حتى يخيب آخر أمل له وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة فيموت وهو يصرخ بتلك الكلمة التى صرخ بها رابليه الشاعر الفرنسى وهو يحتضر « انزلوا الستار فلقد انتهت الخدعة ».

وما أشد شقاء خيبة الأمل . لنتصور انساناً ألف صديقاً وأولاه ثقته فكم يكون حزنه إذا خانه ؟ وهكذا ينشأ الانسان محباً للعالم معتبراً اياه صديقاً وفياً وخادماً أميناً وإذا به ينكشف له أنه العدو الألد والخائن الأشر. قالت زوجة الكسيس بن بطرس الأكبر قيصر روسيا «لا ريب أن العالم مفعم بالأحزان وأن الأيام تذخر لى فى ثناياها أشد الصروف وأعظم المصائب وفى الواقع انى لم أعرف منذ حداثتى معنى السرور إذ كنت لا ألبث أن أصادف شيئاً من الانشراح حتى يداهمنى الشقاء . ومما يزيدنى الآن ألماً أن حزنى ناشئ عن شخص هو أعز على من أن أشكوه . وحيثما جلت بفكرى أدركت أن لا فائدة من معاندة الأقدار لأن كل أمرئ عرضة للشقاء مادام عائشاً فى هذا العالم المفعم بالأحزان .

فلو كان العالم يظهر للناس بحقيقته فلا يعطيهم خيراً يعقبه شر ولا يمنحهم نعمة تليها نقمة ، لكان ذلك أفضل لأن أشد ما يتألم الناس له هو ضياع النعمة من بين أيديهم . وما كانوا ليبكون على نعمة زائلة ويجدون مرارة فى فقدانها لو لم يذوقوا حلاوتها . فالدنيا تمنح النعمة فيغتبط بها الانسان حتى إذا ما رأت بذرة الأمل التى غرستها فى نفسه قد نمت وازدهرت وأنه قد استعذب طعمها وأستطاب مذاقها كرت عليه فانتزعتها من يده وهى قريبة من فمه كما تنزع الكأس من يد الظامى الهيمان ليعظم وقع السهم فى كبده .

فيا لشقاء من ينهمك بالعالم و بالسعادة من يتهاون به . لعلكم تغترون بما تهبه الدنيا للبعض من زخرف المعيشة . ان كان ذلك فاعلموا ان غناها ممزوج بالخوف ، وصحتها بالفقر ، وعظمتها بالهم ، وحكمتها بالشقاء . بداءتها عدم راحة ونهايتها ندامة . تترك الأحياء ولا تصاحب المائتين ولا تسأل عن الغائبين . كم من أناس كانوا يظنون أن العالم لهم وإذا بهم يتركونه فجأة و يبقى العالم بعدهم دون أن يذكرهم أو يقدر لهم أنهم كانوا يوماً من محبيه . واللذات التى عرفوها وانهمكوا فيها لم تعد تذكر هيامهم بها وميلهم اليها .

ان الدنيا سخية فى عقابها بخيلة فى انجاز وعودها ، ليقم جميع محبى العالم وليقولوا لنا هل كان لهم فى وقت من الأوقات لذة بدون ألم ، أو سلام بلا فتنة ،

أوراحة بلا تعب ، أوعافية بلا مرض ، أوشبع بلا جوع ، أوفرح بلا حزن ؟ الدنيا تعد بالخيرات وتعطى جميع الشرور والمضرات . تعد باللذة وتعطى هموماً وشدة . تؤكد مواعيدها وللوقت تخون عهودها . تعد براحة وسرور وتعطى تعباً وكداً . تعد بأفراح وانشراح وتعطى أحزاناً وبلايا ، تعد بالشرف والكرامة وتعطى الذل والأهانة . تعد بطول العمر ولكنها تضن بحياة قصيرة ذات شقاوة شديدة .

وعلى هذا المنوال تعد الدنيا بشئ وتعطى غيره ، وأهل العالم لا يفطنون الى هذا الخداع حتى يتبدد ليل هذه الحياة و ينبلج الصباح وعند ذلك يحضرهم الموت فيدركون أنهم قد انخدعوا وان أتعابهم الدنيوية قد ذهبت عبثاً فيصرخون بمرارة و يقولون مخاطبين اياها « كنت تهبيننا المسرة رذاذاً وتطلقين دموعنا بغزارة . كنت تعطينا الطعام لقمة لقمة ، والشراب جرعة جرعة . تهدينا الأوجاع بغير كيل وتسمحين للآلام أن تتراكم علينا بلا حساب . اذا تعطفت علينا بيوم فرح اغدقت علينا نظيره بأيام كدر . إذا غدونا يوماً أصحاء قضينا أياماً مرضى . إذا تمتعنا مرة بالأصدقاء التقينا مراراً بالأعداء ».

أفتريد إذاً أيها الانسان أن تكون فى عداد الجهال الذين يخدمون العالم وهو يخدعهم فيتم عليك القول « لماذا تزنون فضة لغير خبز وتعبكم لغير شبع » (اش ٥٥ : ٢) قال أحد الأفاضل « هل تظنون أن العالم إذا كرستم حياتكم لخدمته يعطيكم حتى تشبعوا . وهب أنه أعطاكم حتى تقولوا كفى فلا ريب أنه يسترد منكم ما أعطاكم أياه لأنه مع كونه كالتاجر الحكيم الذى يحاول أن يحفظ مركزه أمام الناس فهو أيضاً كالتاجر الذى ليس له من المال ما يكفى لجميع مداينيه فيختلس من هذا ليعطى ذاك و يسلب ذاك ليوفى هذا . وهو كشمشون حينما اضطر أن يعطى ثلاثين حلة من الثياب للفلسطينيين الذين فسروا الأحجية فانه قتل ثلاثين فلسطينياً آخرين وأعطاهم حللهم (قض ١٤ : ١٩) هكذا العالم إذا أراد أن يكسو واحداً فلا سبيل له الى ذلك إلا من تعرية آخر . وعمله هذا يشبه عمل الزارع الذى يكسح الأزهار والأشجار الذابلة ليخلى مكانها لغيرها . فالغنى ينتقل من بيت الى بيت وكذلك الفقر من منزل الى آخر . لقد وهب احشويرش الوزارة لمردخاى ولكن بعد أن سلبها من هامان (أس ٨).

قال أحد الحكماء «أيها الرجل لا تخدع كما خدع غيرك من قبلك . فان الذى أصبحت فيه من النعم إنما صار اليك بموت من سبقك وهو لابد يوماً منصرف عنك الى سواك . فلو كانت الدنيا للعالم لما أخذ الجاهل منها نصيباً ، ولو بقيت للأوائل لم ينل منها الأواخر شيئاً . لو كانت الدنيا كلها ذهباً وفضة ثم عطفت عليك وسلمت اليك مقاليدها ثم سرت فى طريق الموت فهل كنت تهنأ بها . لا فخر فى مايزول ولا غنى فى ما يفنى ».

ليست العالم إذا أراد أن يسترد ما وهب ينبه قبل أن يغتال ، ولكنه شره يأتى فجأة على محبيه وهم فى ابان مجدهم وعظمتهم فكم من كثيرين اختطفت منهم الكأس بغتة وهم يرفعونها الى شفاههم وكانوا يؤملون أن يحتسوها بلذة . وكم من تيجان تحطمت بعد مجد وانتصار ، وكم من ذوى جاه ما كادوا يتمتعون بجاههم و يستريحون مما قاسوا من العناء فى سبيل الحصول عليه وإذا بهم قد انفصلوا بغته عن كل ما يؤملون . يجرى الانسان وراء الدنيا وهى تجرى أمامه حتى إذا عرفت أن قوته وهنت وقفت ليلحق بها وما يكاد يلمسها حتى يؤخذ من الحياة بحسرة أبدية .

غبى ذاك الذى يفرح بمنظر يعرضه العالم أمامه قال القديس يوحنا ذهبى الفم «أن فرح العالم ليس فيه شئ يعتبر راهناً ثابتاً ولكنه زائل جميعه وهو يشبه النهر الذى يجرى عند انسكاب الامطار على الأودية فيظن من يراه انه نهر ثابت يدوم وهو بالحقيقة نهر مستعارة مياهه و ينتهى بغتة مع انتهاء المطر». جميع الذين خدعوا بالعالم يصرخون بعد معرفتهم ذلك قائلين « لماذا ضربتنا ولا شفاء لنا . انتظرنا السلام فلم يكن خير . وزمان الشفاء فإذا رعب » (ار١٤ : ١٩) وحالهم هذا يشبه ما قيل عن جبل وسوبيوس الذى عندما يحرث الزراع سطحه و يلقى عليه البذار يزهو سر يعاً و يبين له ربيعاً دائماً بعشبه الأخضر ، وخر يفاً بهيجاً بفاكهته اللذيذة ولكنه عندما يقترب ، وقت الحصاد يثور من جوفه بركان عظيم فيتلف فى ساعة ما أثمر فى أمد طويل .

فإذا أراد أحد أن ينال من العالم سعادة حقيقية فليعلم أن العالم يأتى لمن احتقروه وازدروا به ، و يولى ويهرب ممن أحبوه ومالوا اليه . فالذين احتقروه صاروا

ممجدين ونالوا فخراً سامياً وذكرهم يدوم الى الأبد . أما الذين أحبوه فليس من يذكرهم و يعرفهم بل يوجد من يهزأ و يسخر بهم . فانظروا جيحزى غلام اليشع يجرى وراء العالم و يسعى خلف نعمان طالباً المال مستعملاً الكذب فى سبيل الحصول عليه . وانظروا آية مكافأة كافأه بها العالم على محبته اياه في قول اليشع النبى له « برص نعمان يلصق بك و بنسلك الى الأبد . فخرج من أمامه أبرص كالثلج » (٢ مل ٥ : ٢٧) ومن الجانب الآخر نرى الثلاثة الفتية حينما عرض عليهم نبوخذنصر المجد مقابل السجود للتمثال والا يلقيهم فى أتون النار فانهم أجابوه بشجاعة أنهم يرفضون كل كرامة يعرضها عليهم ولا يتركون عبادة الههم . ولننظر الى ما كافأهم به الرب على رفضهم السجود للتمثال « حينئذ قدم الملك شدرخ وميشخ وعبدنغو فى ولاية بابل » (دا ٣ : ٣٠) .

العالم ليس له الا أن يوصى بالشر ولكن لا يساعد عليه وهو أشبه بفرعون حينما ثقل العمل على الاسرائيليين ولكن لم يعطهم حتى التبن اللازم لصنع اللبن (خر ٥ : ١١) قال السيد المسيح « هل يجتنون من الشوك عنباً أو من الحسك تيناً » (مت ٧ : ١٦) وهكذا أنت لا ترجو من الدنيا ثمراً صالحاً فهى لا تعطى الا الكذب والبهتان . فكم من كثيرين استخدمتهم فى أعمالها ولكنهم فى وقت بليتهم التمسوا منها العون لتركتهم كأنها لم تكن تعرفهم . فحب الدنيا يتمتع قليلاً بما تقدم له لكى تطغيه ولكنها إذ تنال مأربها منه فأنها تسخر به فيما بعد . وكم لعبت بسادات وأرباب ورؤساء ، و بعدما أطغتهم وأضلتهم كرهتهم وهم فى حال لذة ملاعبهم ثم أهملتهم مطروحين بغير سلوان .

فإذا رفعتك الى منزلة عالية فأياك والوقوع وكن محترساً فأن الذى عملته مع من تقدمك تعمله معك أيضاً . فهى فى تصرفها كالجلاد الذى بعد أن يرفع المجرم الى المشنقة يدفعه برجله و يطرحه مهاناً . فهى إذاً ترفعك لكى تسقط .. وبمقدار علوك يكون سقوطك . فالذى يسقط من علو شاهق ليس كالذى يسقط من علو منخفض وهوذا الكتاب الالهى يقول « قد غرك تخويفك كبرياء قلبك ياساكن فى محاجى الصخر الماسك مرتفع الأكمة وان رفعت كنسر عشك فمن هناك أحدرك يقول الرب » (ار ٤٩ : ١٦) .

ان العاقل يرى بعينيه العالم واقفاً يضحك على الذين عرقلهم بمجده و يظهر سروره واضحاً عندما يصل الى سمعه صوت تأوهاتهم المتواصلة التى سببها لهم غرورهم به ، أنظر بعينى عقلك أيها المغرور بالعالم تر الجمادات الثابتة تسخر منك والعالم يلعب بك . الخرائب والاطلال تضحك عليك يامن مر بها عزك وشقاؤك ، سرورك وحزنك ورأت أن كل ما يمنحه لك العالم باطل .

•

فالأفضل لك أيها الانسان إذاً ان تهجر الدنيا قبل أن تهجرك هى . اترك العالم الذى يتركك تركاً أبدياً . اطرح نيره عنك قبل أن يحول ظهره لك . لا تكن أعمى لحفظ ما ستخلفه رغماً وقهراً واسمع قول الرسول « وإنما أقول هذا القول لئلا يخدعكم أحد بكلام ملق » (كو٢ : ٤) فأولى بك أن تضحك على الدنيا ولا تدعها تضحك عليك لأن هم هذا العالم وغرور الغنى يخنقان كلمة الله فى قلبك (مت ١٣ : ٢٢) أما شهوات الغرور فان بسببها يأتى غضب الله على أبناء المعصية (اف ٤ : ٢٢ ، ٥ : ٦).

قد تقول ياأخى : إذا كان الأمر كذلك فلا سبيل لنا إذاً إلا ترك العالم وهجرانه . فيجيب على ذلك أحد الأفاضل قائلاً « ان الطيور تنزل أحياناً لبعض الحقول لتلتقط قوتها أو تنحدر على عين ماء لتستقى ولكنها تعلم أن هذه أماكن ليس لها فيها أمان ، لأن فيها ترصد لها الأشراك وتصوب اليها السهام فلا تهدأ إلا إذا صعدت ثقة الجو » هكذا ينبغى لنا أن نكون كمن قال عنهم الرسول بولس « والذين يستعملون هذا العالم كأنهم لا يستعملونه » (١ كو٧ : ٣١) أى أنه يجب أن نعيش فيه مكتفين بقوتنا وكسوتنا (١ تى ٦ : ٨) وحذرين كل حين لئلا يوقع بنا و يقتنصنا لارادته (٢ تى ٢ : ١٦) و ينبغى أن نكون فى العالم بأجسادنا ولكن نتجه الى السماء بأرواحنا وآمالنا وأشواقنا .

قال أحد الحكماء « الزاهدون فى العالم كالنفس فى الجسد فهى فيه وليست منه هكذا هم فى العالم وليسوا منه » وقال آخر « إن المسيحى الحقيقى هو كالسفينة التى فى البحر فلا يغرقها وجودها فى الماء إنما الذى يغرقها دخول الماء فيها .

كذلك المسيحى لا يضره كونه فى العالم بل يضره كون العالم فيه وقال السيد المسيح فى صلاته الأخيرة من أجل تلاميذه « لست أسأل أن تأخذهم من العالم بل أن تحفظهم من الشرير. ليسوا من العالم كما أنى لست من العالم » (يو ١٧ : ١٥ ، ١٦) وقال رسول يولى الذى بذل نفسه لأجل خطايانا لينقذنا من العالم الحاضر والشرير، (غل ١ : ٤) .

الفصل السادس
فى ان ظاهر الدنيا خلاف باطنها

« بشفتيه يتنكر المبغض وفى جوفه يضع غشاً إذا حسن صوته فلا تأمنه لأن فى قلبه سبع رجاسات »

(ام ٢٦ : ٢٤ و ٢٥).

« عظم الناس الدنيا وهى حقيرة وأصبح بعضهم يقاتل البعض من أجلها كما تتقاتل الكلاب على الجيفة . حقاً تلوح الدنيا فى الظاهر ذات منظر بهيج يجذب القلوب ولكنها من الداخل مملوءة فساداً وأباطيل . تغريك بأنها جيدة وأن أمجادها حسنة وهى فى الحقيقة تتكلم زوراً وبهتاناً . فلا تجعلن قلبك إذاً على محبتها ولا يخدعنك رونقها فانها تشبه القبور التى تراها من الخارج مبيضة مزينة ولكنها من الداخل مملوءة عظام أموات وكل نتانة (مت ٢٣ : ٢٧) احترس من أن يخاتلك هذا العالم الغرار ، وأن يستهويك بجذب نظرك الى هيئته الخارجية وطلاوته الظاهرة ، لأنك لو تصفحته جيداً وعرفت ما بداخله لشاركت من عرف حقيقة حاله وصحت معه قائلاً « باطل الأباطيل الكل باطل » (جا ١ : ٢).

قال أحد الآباء « لو كان هذا العالم الجميل ينشق بسكين الحق والانصاف لظهر أنه زور و باطل بجملته ، لأن كل ما يوجد فيه إما ماض أو حاضر أو مستقبل ، فالماضى لا وجود له ، والمستقبل مجهول غير معروف ، أما الحاضر فهو زمن غير ثابت . اذاً باطل الإعتماد عليه ، باطل كل شىء فيه إلا محبة الله والمواظبة على عبادته ».

الاناء الفارغ متى ضربت عليه قارعاً يطن بصوت عال . هكذا العالم لو ضربته مختبراً طربه وملذاته فللوقت تسمع رنين أباطيله وطنين فانياته ولكنه فارغ عديم الثبات . قال أحدهم « كلما رأيت بناء شاهقاً يناطح السحاب تذكرت الحجر

الصغير المشوه الذى رماه البناء فى الأساس » وقيل ان صنم أبوللون الذى كان فى دلفوس كان مزيناً من خارج بحلى الذهب والفضة وفى رأسه ضفائر ذهب مرخية على منكبيه وكان ضابطاً فى يده صاعقة ومسجوداً له من الجميع . إلا أن لوكيانوس عندما عاين قوماً كثيرين يسجدون لهذا الصنم بغاية الورع والاحتشام طفق يستهزئ بهم قائلاً « أيها المساكين انكم إنما تنظرون الذوائب الذهبية من الخارج إلا أنكم لا تدرون أن هذا الصنم الذى أنتم تسجدون له باطنه فارغ وخاو ، ترقص فيه الفئران و يعلق به العنكبوت والغبار ». هذه هى صورة الدنيا فالناس حولها يسجدون ، وبها يتغنون ، ومجدها يعشقون ، ولا يعرفون أن فى داخلها الفساد والمنون .

ان داود النبى دعا نفسه فقيراً لا لأنه لم يكن له نصيب من مجد العالم ولكن لمعرفته بأن كل شئ دون الله باطل . فهل أدركنا مع داود وهو فى أبهة الملك وعلى رأسه التاج الملوكى اننا فقراء ومساكين ؟ لو خير داود بين تاج الملك الأرضى الذى يراه وتاج الملك السماوى الذى لا يراه ، لطرح الأول وعاش فقيراً ليحصل على تاج السماء لأن ما يرى وقتى وأما ما لا يرى فهو أبدى (٢ كو٤ : ١٨).

فالحياة واحدة للجميع ليس فى الدنيا طليق وسجين ، ناعم ومعذب ، غنى وفقير. فللطليق من جسده الفاسد أظلم سجن لروحه ، وللناعم من تبكيت ضميره أشد عذاب ، وللغنى من احتياجه للراحة فقر مدقع . هذا على أن الدهر إذا ابتسم لنا يوماً وأضحكنا ساعة فهو يبكينا و يعذبنا الى النهاية . وإذا كنت ترى اختلافاً ظاهراً بين انسان وآخر فتسمع إن هذا سعيد وذاك شقى ، هذا عظيم وذاك حقير، فاعلم أن هذه الامتيازات ظاهرية فقط ومع أن تاريخ كل انسان يختلف عن تاريخ الآخر وما هو مسجل فى تاريخ كل امرئ من الحوادث يختلف عما هو مسجل فى تاريخ الآخر، إلا أن أيوب الصديق جمع فى كلمتين ما يصح أن يعتبر تاريخاً لكل انسان إذ قال « الانسان مولود المرأة قليل الأيام وشبعان تعباً » (أى ١٤ : ١) فمن يستطيع أن يقول ــ مهما كنا نتصوره سعيداً ــ أنه لم يشبع تعباً !

قال السيد المسيح عن العالم «لأنى أشهد عليه أن أعماله شريرة» (يو٧ : ٧) ويحقق لنا هذه الشهادة الاختبار الشخصى الذى يدلنا على أن المظاهر العالمية خلاف باطنها . توجد أشياء كثيرة تلوح للانسان كأنها حلوة وجميلة وهى تطوى فى داخلها موتاً وهلاكاً . توجد أخطار متباينة ونكبات مختلفة مطلية من الخارج بطلاء اللذة والسرور وهى مستعدة أن تفتك بكل من يدنو منها فتكاً ذريعاً . ولكن الكثيرين لا يفحصون تلك الأمور ليروا حقيقتها وما هو كامن فى جوفها ، بل يندفعون اليها بشوق و يلتهمونها بشراهة ، وما تكاد تستقر فى بطونهم حتى يخروا على الأرض صرعى شهواتهم وأمياهم .

يعلم الجميع أن الموت هو ألد عدو للانسان ، ولكن ماذا نقول إذا كان كثيرون يسعون وراء الموت وهم لا يعرفون . أى أن هذا الموت لا يتمثل لهم بصورة شنيعة تنفر منها الطبيعة البشرية بل يلبس صورة أخرى لينة كما يلبس الذئب ثوب الحمل . والناس ينخدعون بهذا الموت المزين المتنكر و يتقدمون اليه غير عالمين أنه عدوهم الألد دون سواه .

يقولون ان الحرب خدعة وكم من مرة سمعنا أن رجلاً قاسياً تزيا بزى اللطف لكى يهلك عدواً له ، وان جندياً تظاهر لأعدائه بأنه منهم لكى يلقيهم فريسة لقومه . هكذا الموت يعرض نفسه للناس كل يوم فى أجمل المناظر ، والبشر يجرون خلفه بسرعة ليلحقوه ، وإذا وصلوا اليه أدركوا أنه الهلاك بعينه ولكن بعد أن ينشب أظفاره فيهم و بعد أن يتمكن منهم ولا تبقى لهم وسيلة للخلاص منه .

لقد عهدنا الموت يأتى بشدة و بأس ويجندل الناس فى الحروب بالسيوف والرماح ، وفى المساكن بالأمراض والعلل . ولكنه يأتى أيضاً وهو مطلى بالشرور والشهوات فيقبل عليه الناس فيجعل صرعى الملذات والشهوات أكثر عدداً من صرعى الحروب والأمراض . ان الموت يلوح لكثيرين على أسنة الرماح وفى شفرات السيوف فيهربون منه ولكنه يستخدم طريقة أفضل لعدم الخوف منه فأنه يختفى ضمن الشهوات و يتوارى وراء اللذات فيسعى اليه الناس ، وما أكثر عدد قتلاه بهذه الوسيلة الخادعة .

حذار من الطلاء الخارجي والملمس الناعم . احترسوا كل الاحتراس من تلك الأمور التى تخدع قلوبكم وتستهوى أفئدتكم ثم تقودكم الى العطب والهلاك . هوذا ويلات ومصائب ونكبات تلبس ثياباً ناعمة . هوذا ضيقات وألام مرة تظهر بمظهر السرور والبهجة . احذروها ولا تقربوا اليها فأنها لا تظهر اللطف والكياسة وقتاً قصيراً إلا لتوقع فى يدها وتعذب الى الأبد من تتمكن من غشهم . قال الحكيم «توجد طريق تظهر للانسان مستقيمة وعاقبتها طرق الموت » (ام ١٤ : ١٢).

يرفع الانسان بصره فى هذا العالم فيرى صوزة خارجية تخدعه ولكنه لا يرى له صورة داخلية تنبهه . يرى فى العالم الظاهر وجوهاً مشرقة وشفاهاً تبتسم وألسنة تتلطف وأيدى تمتد للمصافحة وأزهاراً تعبق رائحتها الذكية فيظن أنه سعيد لمشاهدة هذه المناظر ، ويخال العالم حبيباً له أتحفه بكل سرور وأهداه كل لذة ، ولكنه لو استجلى خوافى هذه الأمور لوجد أن الوجوه لم تشرق إلا لتمكر به والشفاه لم تبتسم إلا لتخدعه واللسان لم يتلطف له إلا ليغرر به والأيدى لم تمتد نحوه إلا لتتمكن منه والأزهار لم ترسل رائحتها العطرية الا لتجذبه الى أشواكها وكل منها يكيد له و ينصب الأشراك وهو ساه غافل مخدوع ، وما أشبه العالم والمخدوع به بالتى وصفها الحكيم بقوله «لأنّ شفتى المرأة الأجنبية تقطران عسلاً وحنكها أنعم من الزيت . لكن عاقبتها مرة كالافسنتين حادة كسيف ذى حدين . قدماها تنحدران الى الموت خطواتها تتمسك بالهاوية . لئلا تتأمل طريق الحياة تمايلت خطواتها ولا تشعر » (ام ٥ : ٣ ــ ٦).

تأملوا يابنى البشر : أى شئ فى العالم ترونه حسناً غير وعوده الخلابة ؟ نعم أنه يعد بالغنى واللذة والمجد وهكذا يغرى العسل الذباب بالحلاوة . و يعد السراب الايل بالارتواء ، وتعد النار الفراشة بالضوء . ولكن الموت . كائن فى كل هذه لأن الخائن إذا أراد الخداع لا يأتى قاسياً بل ليناً . فكيف قتل قايين هابيل أخاه ؟ أليس بدغوته اياه للتنزه معاً فى الحقل ؟ و بأية وسيلة سقط شمشون فى يد دليلة ؟ أليس لما أنامته على ركبتيها ؟ و بأية واسطة أهلك ابشالوم أخاه امنون ؟ أليس باستدعائه اياه الى وليمة فاخرة ؟ ألا يصح فى ذلك قول القديس يوحنا ذهبى الفم « ان من عادة الخائنين أن يقدموا أولاً ما هو عذب لينتجوا منه فيما بعد المر الميت ».

فما أجهل المرء الذى يعرض حياته للخطر مدفوعاً بابتسامة غاشة . و بالغباوة الانسان الذى يهلك ذاته ويخسر نفسه رجاء كلمة مدح ينتظرها . ان آدم وحواء خسرا السعادة بمجرد نظرهما الشجرة . رأياها جيدة للأكل وبهجة للعيون وشهية للنظر فأخذا من ثمرها وأكلا بشوق مستحسنين هيئتها المنظورة بينما كان فى داخل ذلك الثمر جزاء المخالفة المريع « موتاً تموت » (تك ٢ : ١٧).

روى أن كليينوس ملك سكونيا دخل يوماً ليتنزه فى روضة بهجة فوقع بصره على تمثال يحمل بيده ثمرة ذهبية جميلة يلوح للناظر اليها كأنه يقدمها هدية له . فانشرح صدر الملك بذلك وتقدم ليتناول هذه الثمرة من يد التمثال ولم يكد يلمسها حتى انشقت وامتد منها سهم حاد كان فى يد التمثال الأخرى ومعداً لهذه الغاية فأصاب الملك أصابة قضت على حياته . لقد كان سبب هلاكه رؤيته الثمرة البهية فى يد التمثال الواحدة فأذهلته عن رؤية السهم فى يده الأخرى . هكذا مواهب العالم وهكذا هداياه فانه يقدم باليد الواحدة كأساً لذيذاً و باليد الأخرى كؤوساً مترعة بالمر والعلقم ، كما قال الرسول يوحنا « العالم كله قد وضع فى الشرير » (١ يو ٥ : ١٩).

فاللذة تغدو أمام الانسان كأنها ثمرة شهية ولكنها مقرونة بالأمراض القتالة ، والمال يظهر حبيباً ولكنه يأتى مصحوباً بالقلق المستمر : كذلك الكرامة يخالها الانسان حسنة ولكنها تكلفه احتمال أنواع المشقات . و بالجملة فان العالم يضحك لكى يقسو ، و يتملق لكى يخدع ، و يعفو لكى يقتل . وما أحسن قول أحدهم « إن العالم أشبه بالليل ومصنوعاته أضغاث أحلام تستغرق بها النفس وتطغى بالكذب والغرور . وكما أن الحلم يخدع النفس بالمناظر الخيالية هكذا العالم يخدع الناس بشهواته الباطلة ومقتنياته السريعة الزوال . فقد يتفق لك أحياناً فى الحلم أن ترى نفسك قائماً على عرش الملك متوشحاً بالملابس البهية وحولك الناس يترضونك ، ولكنك عندما تستيقظ تدرك أن ذلك كان وهماً على هذا المثال يعطى العالم الانسان ما يضله به كالغنى والمجد الباطل وعندما يرقد الجسد رقاد الموت يستيقظ فيتذكر أحلامه ويخجل منها ويمتلئ خوفاً ورعدة ».

أجل : قد تخدع الدنيا بما فيها من جمال ورواء فإذا جمالها هو القبح بعينه والدمامة بذاتها . فترى بعينك المرأة المعجبة بجمالها تتحول الى جيفة كريهة ينفر منها الذين كانوا يهيمون بها . ونشاهد الملك العظيم مرذولاً من أحقر عبيده . والغنى الموسر يمد يده مستديناً بعد أن دارت الدائرة على كل منهم . فما أقسى تحول الأيام . قال الحكيم « رب ملك معجل فى أوله أما آخرته فلا تبارك » (أم ٢٠ : ٢١).

أى عز يز لم تذله وعظيم لم تحطمه ، وعرش لم تهدمه ، وقصر لم تنقضه وقوى لم تضعفه ، وقلب لم ترمه بسهام أحزانها ، وعين لم تجرحها بآلامها ، وفؤاد لم تصدعه همومها ، وفم لم تذقه مرارتها . أى امرأة لم ترملها ، وابن لم تيتمه ورجل لم تهنه ، أى رأس متشامخة لم تحنها ، وظهر معتدل لم تكسره وشعر لامع لم تبيضه مخاوفها ، فلا بقاء فيها لمجد ولا ضمان لراحة .

قال الرسول بولس « انظروا أن لا يكون أحد يسبيكم بالفلسفة و بغرور باطل » (كو٢ : ٨) فمن يعيش فى الدنيا يحتاج الى من ينبهه دائماً ليستيقظ لئلا يقع فى شراكها . لأنها اعتادت أن تظهر الأشياء من الخارج فقط وتخفى ما هو داخلها . تحضر له اللذات بين يديه ولكنها تعميه عن الشناعة الكلية المخيفة فى باطنها . تبين للبخلاء قيمة الذهب وشرفه ، أما الهموم والغموم الناشئة عنه للأغنياء فلا تريهم اياها ، وقد تعرض بين يدى الانسان كرامات الرياسة وعلو الدرجات ولا تريه ما ينبغى من لوازمها . وهى كابليس حينما أراد أن يجرب السيد فقد كشف له مظاهر الأمور ولكنه أخفى دواخلها ولكن السيد كان يرى ما وراء ذلك المجد الباطل ، وهذا ما يفعله ابليس مع كل انسان وما تفعله الدنيا مع الجميع فهى تريد أن تقدم الخطية للناس ولكنها تغطيها بغطاء اللذة والكرامة لكى تخفى القبح الكائن فيها . أما أنت فالواجب عليك أن تزيح ذلك الغطاء وحينئذ تعلم كثرة غرور الحياة افحص جوف الخطية تر فى باطنها أموراً تخاف من مجرد سماعها « فضة زغل تغشى شقفة هكذا الشفتان المتوقدتان والقلب الشرير » (أم ٢٩ : ٢٣).

قيل ان بعضهم اكتشف صخرة عظيمة فى استراليا مكتوب على وجهها « اقلبنى تسعد » فقلبها بعد أن قاسى تعباً شديداً فوجد مكتوباً على الجانب الذى

كان محجوباً « اقلبنى ثانية لأخدع جاهلاً آخر ». وهذا شأن الدنيا تطمع فى أول أمرها فتخدع فيضيع على الانسان تعبه فى طلب ما كان يظنه فى أول أمره حلاوة فيجده فى نهايته مرارة ، ولسان حال الدنيا يقول « اكتم أمرك لأخدع جاهلاً آخر مثلك ».

قال سليمان الحكيم « يابنى أن تملقك الخطاة فلا ترض » (ام ١ : ١٠) ان أضمن طريق لنجاتنا من مخالب الشراك المنصوبة أمامنا هو أن نهرب منها حينما نراها حسنة أمامناً ولا نقف حتى نسمع كلماتها الناعمة ولا ننتظر حتى نتطلع الى جمال وجهها . جاء فى أساطير اليونان عمن يدعى عولس أنه فى أثناء تيهانه فى البحار رأى أنه سيمر هو وقومه بالصخور التى كان السيرين يغنين عليها غناء مطرباً يجذب المارين بهن فيقتلنهم . فاحتاط لذلك بأن سد آذان من معه بالشمع لكى لا يسمعوهن وأوصاهم أن يربطوه الى سارية المركب ربطاً شديداً وأن يشدوا الوثاق كلما ألح عليهم أن يحلوه ، ففعلوا كذلك . ولما مروا بهن وسمع عولس صوتهن الجميل حاول الافلات ليصل اليهن فشد عليه من معه الوثاق ومروا بهن سالمين فخلص هو وقومه من الوقوع فى فخ السيرين والسقوط فى تجاربهن .

وبمثل ذلك يوصى الرسول بولس تلميذه تيموثاوس قائلاً « وأما أنت ياانسان الله فاهرب من هذا » (١ تى ٦ : ١١) وقال له أيضاً « أما الشهوات الشبابية فاهرب منها » (٢ تى ٢ : ٢٢) وقال الرسول بطرس هاربين من الفساد الذى فى العالم بالشهوة » (٢ بط ١ : ٤).

* * *

الفصل السابع
فى أنه لا سعادة فى العالم

« لماذا خرجت من الرحم لأرى تعباً وحزناً فتفنى بالخزى أيامى » (ار ٢٠ : ١٨)

يشتهون حياة وبها لا يفوزون . و يتوهمون سعادة ومكاناً لها لا يجدون و يذكرون لذة وهم بها لا يشعرون . أولئك هم بنو البشر الذين رأوا الموت يتهددهم فقالوا حياة ولا حياة . وشاهدوا الشقاء يزعجهم فقالوا سعادة ولا سعادة ، وألفوا المرارة تعذبهم فقالوا لذة ولا لذة .

أين الحياة والسعادة واللذة فى الدنيا أيها البشر لنسعى وراءها وفى أى مكان توجد فنسير اليها ؟ قولوا لنا فإننا نشتهى الحياة لنعيش والسعادة لنبتهج واللذة لنطرب . أنتم واهمون تعيشون فى الموت فتخيلتم أن هناك حياة حتى تأمنوا قليلاً إذا ورد ذكر الموت على خاطركم وتدومون فى الشقاء فظننتم أن هناك سعادة حتى يهدأ روعكم إذا علمتم أنكم أشقياء . وتنشأون فى العذاب والألم فأدى بكم الخيال الى ذكر اللذة لعل ذكراها تلاشى شيئاً من اضطرابكم . قال ارميا النبى عن أمثال هؤلاء « يشفون كسر بنت شعبى على عثم قائلين سلام سلام ولا سلام » (ار٦ : ١٤).

فكل هذه العبارات التى ابتدعها الناس . سعادة . راحة . نعيم . لا توجد فى الدنيا ، وأما ما يوجد فى العالم حقاً فهو الخوف والشر والضعف ، وأما تلك الألفاظ المشتهاة فقد توهمها الخلق ليزيحوا بالوهم شيئاً مما يلم بهم من العذاب . الحياة لا تصاحب الانسان بل يرافقه الموت . والسعادة مفقودة و يكتنفه الشقاء . واللذة غائبة ونصيبه الألم . إذا سمعتم بواحد يولد تسمعون بألوف يموتون . وإذا ذكر أمامكم

غنى واحد ذكر أمامكم كثيرون من الفقراء وإذا وصل إليكم خبر رجل سعيد طرقت آذانكم أسماء أشقياء لا يحصى عددهم . إذا رأينا قصراً شاهقاً وجدنا حوله ألوفاً من الأكواخ والبيوت الحقيرة .

فالحياة ليست داراً تتم فيها أسباب السعادة بل أن من يتأملها جيداً يجدها مذبح . من دموع وأنات وزفرات . من أوجاع وآلام وعذاب . من زلازل وزوابع وعواصف وبراكين وحروب تفنى ممالك برمتها . بلاء في البحر وشقاء في البر . موت شره لا يشبع يرسل رسله الى القصور والأكواخ . أرض تنبت شوكاً وحسكاً واتعاباً وبلايا . فكل ما تراه يلزمك بأن تشهد بأنه « لا سعادة في الحياة ».

ولو أردنا أن نتعرف هل في الدنيا سعادة حقاً فعلينا أن نسأل الأعضاء التي تحسب فينا لنرى ماذا يكون جوابها . ماذا تسمع آذاننا ؟ انها تسمع ما يصدعها أكثر مما يطربها . تسمع في فترات قليلة أصوات ضحك وسرور ولكنها في أغلب الأوقات تسمع بكاء الباكين ونحيب المنتحبين ونشيج الحزانى وعويل المتألمين . صوت الغناء يردها كصوت غريب ، وصوت الأنين يصلها كشئ ألفته وتعودت سماعه . ماذا ترى عيوننا ؟ ليس في العالم ما يبهجها فإذا شاهدت ما يروق مرة شاهدت ما يجرح مراراً . إذا وقعت على ما يسر دفعة وقعت على ما يحزن دفعات . وماذا يذوق لساننا ؟ أنه إذا تمتع قليلاً بطعام يستطيبه و بشراب يستلذه فلا ينسى ما يتذوقه من المرارة في ابان الأمراض وفي أوقات الأحزان حيث تتحول حلاوته الى مرارة وارتواؤه الى عطش و يبوسة محرقة . لنسأل القلب مستودع الأسرار . حدثنا عما يدخل اليك من السرور . آه لو فحصت قلوب الناس جيداً ولو فتحت ليرى ما استقر داخلها ورسب في أعماقها من أنواع هموم مختلفة وغموم متباينة . لو شاهدنا كل ماتطويه : قلوب الناس وتضمه أفئدتهم من آلام وحسرات لصحنا قائلين « أين السعادة »؟ بل لقال كل منا مع يونان النبي « موتي خير من حياتي » (يونان ٤ : ٨).

ان الفحمة السوداء إذا اتحدت بالنار صار لونها جاذباً للأطفال ، فإذا لمسوها احترقت أيديهم . إن الرذيلة الشوهاء تتحد باللذة التي هي كالنار فتكتسب بها لوناً

لا ينفر الناس منها فيتخذونها سبباً للبهجة وأصلاً للسعادة وإذا بها تحملهم الى الهاوية والهلاك . يخال للواقف على سطح السفينة إنه على شئ ثابت راسخ وهو لا يدرى أنه يعوم على سطح الماء ولو نفذ قليل من الماء الى السفينة التى اتخذها موطناً له لغاص هو والسفينة فى جوف البحر : إن « لالفريد دى فينى » لما وجد كثيرين يتوهمون فى الطبيعة عزاء وسلوى خاطبها قائلاً « انهم يسمونك أماً حنوناً وما أنت إلا قبر ».

فالانسان إذاً يسير فى الحياة و يتوهم السعادة وهماً بينما يحيط به الشقاء وحده من كل ناحية . لذا ترى أفكاره وآماله مزدحمة بمطامع واسعة ومنها تتوقع الفرح والبهجة . يالله العجب هل كل ما تسمعه من المحزنات وما تشاهده من المكدرات وما تحسب به من المؤلمات غير قادر على اقناعك بأنك تعيش فى أرض ليس فيها سرور ؟.

فقل لى بحقك بماذا يتنعم الناس ؟ أبالغنى ، أليس الأغنياء هم الذين يعيشون دائماً فى هم وغم وخوف ووجل ؟ أبالكرامة ؟ ومن يستطيع أن ينكر أن إنعكافه على طلب الكرامة كان داعياً لاضطرابه وقلقه ، وإن سعيه المفرط فى رخاء العيش وزخرف المعيشة ونعومة المجلس كان سبباً لارتباكه وضنك أفكاره باللذة ؟ فليتأمل الخاطئ فى ما تسببه له لذاته من الأحزان الشديدة وما تنتجه شهواته من الهموم المذيبة وما تثمره تنعماته من المخاوف المزعجة . قال اشعياء النبى « لا سلام قال الرب للاشرار » (اش ٤٨ : ٢١).

وقد سئل أحد محبى الخطية « هل كنت تجد راحة بحصولك على الملذات التى تشتهيها ، فأجاب « كنت كلما أجد ملذات وأحصل على منكرات أشعر بأن شهوتى تزداد وتتضاعف ولم أجد راحة . وما كنت استغرق فى الملذات إلا لكى أتسلى عن ذلك القلق الذى كان يعذبنى ليلاً ونهاراً ».

كثيرون يسيرون بالليل والأخطار الهائلة تعترض سبيلهم وهم لا يشعرون . الحشرات تحت أقدامهم ، والحفر فى سبيلهم ، والوحوش تكمن لهم يميناً وشمالاً وهم

مع ذلك يسلكون طرقهم الوعرة مطمئنين غير مبالين بأى خطر من الأخطار. هكذا الذين يسيرون فى هذا العالم بعمى القلب والمرض ينتظرهم والخوف يتهددهم والموت جاثم لهم فى كل بقعة من بقع الأرض قاصداً افتراسهم ومع ذلك يسيرون ضاحكين كأنهم لا يرون شيئاً.

ان النائم تمر بجانبه الأفعى ولا يشعر بها إلا إذا لدغته. كثيرون ينامون والخطر جاثم فى قلبهم، لا يرتعبون ولا يشكون ولا يتألمون بل يرفعون أصوات ابتهاجهم وطربهم. إن الذى يسير فى أرض مملوءة بالأخطار ولم يكن قد طرقها من قبل لا يكون خوفه شديداً لأنه لا يدرى أهى أمينة أم خطرة فالذين يسيرون فى العالم بقدم ثابتة هم بعيدون عن معرفة حقيقته، إنهم يعيشون فى أرض لا تنبت فيها إلا أشواك البلايا والمصائب ولا تكاد تعبر طريقاً إلا وتجده محفوفاً من كل جانب بأنواع المخاوف.

ان ساعة سرور واحدة تعقبها أعوام من الكدر والكآبة بل ان الفرح يعتبر علة للحزن. وذكر السعادة هو مصدر الشقاء، ولا يتعذب فى الحياة إلا القوم الذين يعتبرون الدنيا دار فرح ونعيم لهم. ولا يبتهج إلا القوم الذين يتأكدون أنها دار حزن عميق. أن الذين يطلبون السعادة من الدنيا إنما يطلبون المستحيل وهم كمن يطلب البرد من النار والحلاوة من العلقم. قال اسكندر الأكبر المكدونى فى خطابه لأمه عندما شعر بموته: «لا تدخلى اليك إلا من لحقته مصيبة لترى أن المصائب تصيب جميع الناس حتى تتعزى على موتى» ولسان جميع البشر على اختلاف أنواعهم لا يحسن النطق بغير كلمة التذمر والشكوى من أتعاب هذه الحياة.

فحق لك إذن إذا استيقظت من نومك أن لا تفكر فى ما ستصادفه من السعادة بل فى ما سيحل بك من الشقاء لأن مجئ السعادة بعيد وقدوم الشقاء قريب. قال أحدهم «إن أبعد سفر هو ما كان فى طلب السعادة ولكن عبثاً تهرب من الشقاء» وهوذا ارميا النبى يسأل نفسه قائلاً «لماذا خرجت من الرحم؟» وإذا سأل كل منا نفسه هكذا لسمعنا أجوبة مختلفة فمن قائل خرجت من الرحم لأتنعم. ومن قائل لأتعظ. ومن قائل لأفوز بالغنى. ولكن هذه الأجوبة قد أملاها على الناطقين بها

روح الوهم والغرور. فلنسمع الجواب الصحيح الذى يحققه اختبار كل منا وهو « لقد أتيت الى هذه الحياة لأرى تعباً وحزناً فتفنى بالحرى أيامى ».

طلبت فتاة صغيرة من شيخ أن يتنبأ لها عن مستقبل حياتها فأجاب بما يعلم عن مستقبل كل انسان « ستملأ حياتك الآمال والأحلام ولكن مالك فى الحياة باطلة وأحلامك فيها خائبة ولن تستطعين الحرص على من يحبونك ولا نيل ما تحبين وستجرين وراء السعادة جرياً تدمى منه قدماك . وسترينها فى متناول اليد منك حتى إذا مددت يدك لتقبضين عليها قبضت على الفضاء وسقطت يدك فى الهواء وستجثين عند ذلك على قدميك وتضعين رأسك فوق ركبتيك وتبكين منتحبة حتى يكاد يقضى عليك وتموتين مائة مرة فى أمل خائب ».

فيالتفاقم جهل الأشرار وغباوتهم . فإذا دخل انسان غابة نصبت فيها أشراك مختلفة وشاهد جثث كثيرين من الذين هلكوا فيها ففى الحال يهرب لينجو بحياته ، وإذا ولج الغابة بعدما شاهد ذلك دعى غبياً جاهلاً . لعمرى أنك لأشد جهالة وغباوة منه لأنك ترى صاحبك الذى أحب الغنى وقد مات كئيباً ، والذى أحب اللذة وقد مات تعيساً ، والذى ارتفع الى أسمى درجات المجد وقد انطوى فى القبر البلقع وانهال عليه التراب ، وأنت مع ذلك تسلك طريقهم كأنك أكبر من أن يصيبك ما أصابهم ويحل بك ما حل بهم . وكثيرون هم الذين جروا وراء مشتهياتهم ولما فازوا بها لم يشعروا أنهم أسعد مما كانوا من قبل .

فأى مكان تطؤه قدماك ولا تدوس فيه أشواكاً غرسها العالم لأذية الناس ولا تعثر بجثث الموتى الذين أخذوا بحبه فأهلكهم . قال الحكيم « لأنه ماذا للانسان من كل تعبه ومن اجتهاد قلبه الذى تعب فيه تحت الشمس لأن كل أيامه أحزان وعمله غم أيضاً بالليل لا يستريح قلبه هذا أيضاً باطل هو » (جا ٢ : ٢٢ و ٢٣) فكل شئ فى العالم يسر لابد أن ينقلب الى ضده فلا غناه غنى ولا خيره خير. إن سعة العيش تنقلب الى الفاقة ، والافراح تتحول الى أحزان . اليوم ترى ذينك العروسين فرحين بحفلة عرسهما وغداً يفرقهما الموت . فالحزن التابع يفوق الفرح

السابق . ومن يرفل بالملابس الفاخرة و يزهو بها كالطاووس سيكسوه القبر نسيج العنكبوت .

فهذا المجد الذى نراه بهياً عظيماً يجرى كساع وإذا ركضنا وراءه فاننا نركض وراء الموت وإذا بلغناه فما أعظم شقاءنا . قال القديس أوغسطينوس « ان الخيرات الزمنية من دأبها أن تذيبنا شوقاً اليها وهى مستقلة . وتشغلنا وتتعبنا وهى حاضرة . وتعذبنا إذا بطلت واضمحلت . فإذا اشتهيت عزت وكبرت ، وإذا إمتلكت صغرت . وإذا فقدت بطلت واضمحلت ».

قالت « مارى انطوانيت » امبراطورة فرنسا « اننى أبحث عن الراحة فلا أجدها » فما أحقر ذوى التيجان وما أشد فعل العواصف بضخام الأشجار وقال بسمارك السياسى الألمانى « لا يمكن أن نجد رجلاً سعيداً فى أحد الأيام : ولو أننى أحصيت الدقائق التى أصبت فيها السعادة لما زادت فى مجموعها عن أربعة وعشرين ساعة ».

جلس أحد ملوك أسبانيا المشهورين العظام على عرش الملك زمناً مديداً بعز عظيم . وقد قال قبل موته لأحد أخصائه « اننى قد قيدت أيام السعادة التى قضيتها مدة ملك ستين سنة وعند اطلاعى على القائمة لأرى كم كانت السعادة انذهلت . فكم تظنها ياصاح ؟! انها بالحقيقة لم تزد عن يوم واحد كما أن نلسن القائد الانكليزى العظيم الذى كان مولعاً بالشهرة والمجد والعظمة لما تحصل عليها قال يوماً الى أصحابه « اننى رجل عظيم ولا مثيل لى فى العظمة والاكرام ولكننى أتمنى من كل قلبى أن أعود صبياً كما كنت ».

هذا على أن سعادة العالم اذا أمكن الحصول عليها ــ وذلك بعيد ــ فكم من الزمن تظنها تدوم ؟ ما أسرع تقلب الأيام وتلون الأوقات : نحن نعلم ما أرق الخيط الحرير الذى ينسجه العنكبوت حتى أنه لعظم دقته يكاد لا يرى ومع ذلك فانه أقوى من الرباط الذى يربط به غنى العالم وما فيه . وهب أن لك حقولاً جميلة وقد هبطت بها الطيور تلتقط منها فتظن أنها أصبحت طيورك لأنها فى حقلك ولكن هل

يمكنك أن تؤكد كم من الزمن تبقى فى أرضك ؟ ربما بعد قليل تصعد طائرة الى حيث لا تعلم . هكذا مجد هذا العالم وغناه . قال الحكيم « لا تتعب لكى تصير غنياً . كف عن فطنتك هل تطير عينيك نحوه وليس لأنه إنما يصنع لنفسه أجنحة كالنسر يطير نحو السماء » (أم ٢٣ : ٤ و ٥).

كان سيسوستريس أحد ملوك مصر جباراً عنيداً وفاتحاً منصوراً ففى أحد حروبه التى انتصر فيها غلب أربعة ملوك واتخذهم أسرى . ولما كان راجعاً الى عاصمة مملكته منتصراً كان هؤلاء الأربعة الملوك مقطورين فى مركبة يجرونها مكان الخيل . وفيما هم داخلون لاحظ الملك الظافر أن أحدهم يراقب دولاب إحدى المركبات بنظر وانتباه عظيمين وعيناه كانتا شاخصتين ، و بان من أمره أنه غريق فى لجج الأفكار والدموع تسيل بغزارة على خديه فأمر سيسوستريس بأن توقف المركبة وسأل الاسير ما بالك وماذا تقصد بالنظر الدقيق الى ذلك الدولاب ؟ أجاب « اننى وأنا ناظر هذا الدولاب ألاحظ التغيير الدائم والدوران غير المنقطع وانتقال أعلاه الى أسفله وأسفله الى أعلاه يمثل أمامى حالة حظوظ الناس فى هذه الدنيا وتقلب العالم بهم من حال الى حال فاننى كنت بالأمس فى أعلى الدولاب والآن أنا فى أسفله » فلما سمع الملك الظافر هذا الكلام تأثر تأثراً عظيماً وفى الحال أمر بحل الأسرى من المركبة وأطلق سراحهم .

فإذا كانت للعالم علاقة بالملذات فلأنه مقبرتها لا لأنه منبعها وأى مدفن للذات غير العالم ؟ ففى المكان الذى تولد تموت وفى المكان الذى تذوق حلاوة الفرح تذوق مرارة الأسى . على الفراش نتلقى القبلة الأولى وعلى الفراش نلفظ النفس الأخير ، والأرض التى نختال فوقها متكبرين نصبح تحتها مذلين . وفى القصر الذى يرتفع فيه صوتك بالضحك يرتفع فيه صوتك أيضا بالأنين . فيه قلت أول كلمة وفيه يحصل صمتك الأخير . فكم من قصور كانت تعلو فيها أصوات الأغانى صارت الآن قاعاً صفصفا وقد اختفت الأصوات وتوارت الأشباح . مظاهر الحياة وقتية فلا ينبغى ان تأبه لها . فالكرمة التى تخضر فى الصيف تيبس فى الشتاء . والبيت الذى ترى منه النور يسطع تأمله بعد حين فإذا به قد انطفأ نوره وغاب سرور أهله . فكم من بيوت مرت بها عائلات متعددة فرأت كيف يذوق أفرادها كؤوس السرور

وكؤوس العلقم شاهدتهم وهم يولدون وأبصرتهم وهم يموتون .

فالنفس اذاً لا يمكنها أن تصادف راحة أو تحس بسعادة طالما كانت تطلبها من أمجاد هذا العالم الزائلة والذين يطلبون ذلك يناديهم الله قائلاً « قوموا واذهبوا لأنه ليست هذه هى الراحة » (مى ٢ : ١٠) فإذا أردنا أن نكون سعداءَ حقاً فليكن لنا الايمان درعاً ، ولتكن لنا الفضيلة سلاحاً نصد بها كل ما يعترضنا من صعوبات هذه الحياة « يأكل الودعاء و يشبعون . يسبح الرب طالبوه . تحيا قلوبكم الى الأبد » (مز ٢٢ : ٢٦) « فى مراع خضر يربضنى . الى مياه الراحة يوردنى » (مز ٢٣ : ٢) فماء اللذات الدنيوية ممزوج دائماً بالأكدار وأما مياه الراحة الإلهية فهى صافية نقية لا يعكرها شئ . بل أن ما يحزن أهل العالم ويخيفهم يكون للمؤمن سبب راحة ومسرة . فإنهم يجدون فى الصبر حلاوة وفى الضعف فرحاً ، وفى التجارب سلاماً ، وفى الاضطهادات بركة عظيمة . قال الحكيم « التابع العدل والرحمة يجد حياةً حظاً وكرامة » (أم ٢ : ٢١) وقال أيضا « بركات على رأس الصديق ... وشهوة الصديق تمنح .. منظر الصديق مفرح » (ام ١٠ : ٦ و ٢٤ و ٢٨).

الفصل الثامن
فى سرعة زوال هذه الحياة

« أيامى أسرع من عداء . تفر ولا ترى خيرا » (أى ٩ : ٢٥)

لو أدرنا الطرف وتأملنا أحوال البشر لوجدنا حياة الانسان عزيزة عنده بهذا المقدار حتى أنه يفديها بأعز شىء لديه كما نرى أن الذين كانوا مسافرين الى ترشيش ومعهم يونان النبى طرحوا كل ما كان معهم من غال وثمين فى قاع البحر بغية نجاة نفوسهم (يونان ١ : ٥) .

ولم تعز الحياة على الانسان هكذا الا لتوهمه أن عمره يطول ومدة عيشه على الأرض لا تنتهى حالاً فتراه يحلف برأسه !! وعندما يرى نفسه ذا صحة وعافية يفتكر أن الموت بعيد منه ولا يقدر أن يقترب اليه . هذا وأمثاله هم الذين قال عنهم يعقوب الرسول انهم لا يحسبون لانتهاء حياتهم حساباً فيقولون نذهب اليوم أو غداً الى هذه المدينة أو تلك وهناك نصرف سنة واحدة ونتجر ونربح . عوض أن يقولوا ان شاء الرب وعشنا فناداهم الرسول قائلاً « ما هى حياتكم انها بخار يظهر قليلاً ثم يضمحل »

ومما يدل على جهل الانسان ، أنه ينظر دائماً للذين عاشوا طويلاً ولا ينظرون للذين عاشوا قصيراً . فلماذا تحسب نفسك مع الذين يعمرون للشيخوخة ولا تحسبها مع الذين راحوا فى مقتبل العمر ؟ قد يكون خيط هذه الحياة الذى أنت متعلق به متيناً وثابتاً وقد لا يكون كذلك فتأمل كيف تتخلص مما لا تضمن . حكى أن أحد الأمراء كان ذات يوم معذباً من عسر البول عذاباً أليماً فتشاور الأطباء فى أمره وأجمعوا على أن يعالجوه بالشق فأراد الملك أن يرى التجربة فى غيره قبلاً ، ففتشوا

على من كان مصاباً بهذا الداء حتى وجدوا عشرين شخصاً فعالجهم الجراحون بالشق فشفى منهم تسعة عشر ومات واحد . فعاد الأطباء للملك بفرح يبشرونه بحسن النتيجة ، أما هو فاغتم وقال لهم « ومن أدراني أن لا أكون أنا كالواحد الذى مات لا كالتسعة عشر الذين نجوا » فمن غباوتنا اذا ونحن نرى ألوفاً ينقلون الى المقابر فى عنفوان شبابهم أن نعتقد بأننا سنعيش حتى الشيخوخة .

قال أحد الحكماء « الذى لابد منه ينبغى أن نقبله بفرح وسرور » فكثيرون يخافون من الموت و يظنون أنه يمكنهم بواسطة حذرهم أن ينجوا منه حتى أن بعضهم يسألون المنجمين كيف يموتون لكى يحتاطوا لها و يقضوا أوقاتهم بالاحتياط من الأخطار والتحرز من أسباب الهلاك الى حد يورثهم الوسواس والجنون فيحاذرون ويحرمون أنفسهم لذة الطعام والشراب و يتوهمون ان فى كل جرعة غصة و يتخيرون لهم أنواعاً خاصة من الغذاء الى أن يملكهم الخوف حتى ينتهى بإضعاف أجسادهم فيستعملون الأدوية وهكذا تحل بهم الأمراض التى حاولوا الهروب منها فلم يفلحوا .

والغريب أنهم لا يكتفون بمقاومة ما فى طوقهم مقاومته بل ينصرف همهم الى دفع ما لا دافع له من القضاء المحتم . فمنهم من لا يركب البحر خشية الغرق ، وفى البر مصادمة القطارات ، وقد بلغ الحمق برجل يدعى أرتيمون أنه كان يجعل اثنين من عبيده يحملون فوق رأسه دائماً ترساً خوفاً من أن يسقط عليه شىء من العلاء فيقتله .

أمثال هؤلاء يستبعدون الموت و ينكرونه فلا يكادون يصدقون موت الفجأة ، فإذا أخبرتهم بحادثة من هذا القبيل أخذوا يتعللون لذلك العلل و يتحملون الأسباب و ينتحلون للميت أمراضاً كامنة وأدواء مزمنة لم تكن به . وإذا أخبرتهم بموت شاب فى ريعان شبابه وغضاضة سنه أخذوا يزيدون ما شاءوا من السنين فى عمره ، ومن هذا القبيل ترى كثيرين ولعوا بإخفاء حقيقة أعمارهم والاجتهاد دائما فى تنقيص سنيها ومنهم من يصبغ شعره الذى بيضه طول الأجل بالأصباغ السوداء ليوهموا ذواتهم وليغشوا أنفسهم وليطرحوا من فكرهم إمكان مفاجأة العدو الألد لهم على حين غرة منهم وهم فى مظهر القوة والشباب وليطمئنوا على هذا التراخى الموهوم .

غير أن تحرز واحتياط من هذا القبيل لا يجدى نفعاً ولا يغنى فى حفظ الحياة . وهوذا أيوب الصديق يقول « إذا مضت سنون قليلة أسلك فى طريق لا أعود منها » (أى ١٦ : ٢٢) و يقول أيضا « لأننا نحن من أمس ولا نعلم لأن أيامنا على الأرض ظل » (أى ٨ : ٩) و يوضح ذلك أيضا ما قاله داود النبى « عرفنى يارب نهايتى ومقدار أيامى كم هى فاعلم كيف أنا زائل . هوذا جعلت أيامى أشباراً وعمرى كلا شىء قدامك أنما نفخة كل انسان قد جعل . سلاه . إنما كخيال يتمشى الانسان » (مز ٣٩ : ٤ ــ ٦) وقد شبه الكتاب حياة الانسان بريح تذهب ولا تعود (مز ٧٨ : ٣٩) .

كل البشر يعلمون انهم سيموتون ولكن كثيراً منهم خدعوا فتصورا أن الموت بعيد عنهم بعداً شاسعاً كأنه لن يدنو منهم ، فلا يغشنا هذا الخداع ، وأيوب ينبهنا قائلاً « الانسان مولود المرأة قليل الأيام وشبعان تعباً . يخرج كالزهر ثم ينحسم و يبرح كالظل ولا يقف » (أى ١٤ : ١ و ٢) وقال اشعياء النبى « صوت قائل ناد . فقال بماذا أنادى . كل جسد عشب وكل جماله كزهر الحقل . يبس العشب . ذبل الزهر لأن نفخة الرب هبت عليه » (اش ٤٠ : ٦ و ٧) .

ان الأيام تمر بسرعة وأنت تسير نحو الموت فلا تتكل على شىء حتى تأمن لحياتك وتجهز طعام السنين المقبلة . لا تغرنك صحتك الجيدة وأعضاؤك القويمة فكم من كثيرين ذوى صحة وعافية ودم الشباب يجرى فى عروقهم ولكن الموت لم يخف منهم بل سطا عليهم وأرداهم وأذوى غصن صباهم . ولا تعتمد على غناك لأن الموت لا يقبل رشوة « لا ينفع الغنى فى يوم السخط » (ام ١١ : ٤) ولا تظن أن أهلك يتمكنون من إنقاذك « فالأخ لن يفدى الانسان فداء ولا يعطى الله كفارة عنه » (مز ٤٩ : ٧) .

أعتبر أيها الانسان بمن تراهم معك الآن ثم يفارقونك فى لحظة ولا تعود تراهم فما أنت إلا واحد منهم ولابد أن يحل بك ما حل بهم . فنهار أمس قد مضى ونهار غد لا نعلم هل نحظى به أم لا وقد عبرت عدة ساعات من اليوم الحاضر وزالت منا .

والساعات الباقية لا نعلم هل نبلغ اليها أم لا لأن الموت ينازعنا فيها . وكما قال أيوب « روحى تلفت . أيامى انطفأت انما القبور لى » (أى ١٧ : ١) .

وبكل صدق وصواب يسمى الكتاب هذه الحياة (ظل الموت) (مز ٢٠ : ٤) وهاك المرتل يقول أيضا « أيامى كظل مائل وأنا مثل العشب يبست » (مز ١٠٢ : ١١) وقال أيضا « الانسان أشبه نفخة . أيامه مثل ظل عابر » (مز ١٤٤ : ٤) فلك أن تختبر أيها الانسان خيالك الذى لا يثبت فى موضعه دقيقة واحدة . ضع حداً وقف مكانك ثابتاً وانظر الى خيالك لتشاهده وقد انتقل عن الحد المعين . فالظل لا يبرح متنقلاً من الصباح الى المساء ، والعمر يواصل انتقاله من صباح الميلاد الى مساء الموت .

أجل ان حياة الانسان أسرع زوالاً من جميع الأشياء . يمكنه أن يضمن بقاء ثروته أو ثيابه للصباح ولكن لا يمكنه أن يضمن حياته . لأن الأرزاق والثروة وما يضاهيها قد تبقى موجودة بعد موت الانسان وتنتقل الى سواه ، أما الحياة فانها معرضة للزوال بسبب قليل من البرد أو الحر أو من مقدار ذرة من السم ، فمثل هذه الأشياء اليسيرة تكفى لهدمها وازالتها : ومن يتأملها جيداً يجدها أسرع عطباً من الزجاج لأن الزجاج لا يكسر الا بملامسته . أما الحياة فلا يمكننا أن نحفظها من الهلاك .

ألم نسمع عن كثيرين قد ماتوا بالسكتة القلبية فى الوقت الذى كانوا يتباهون بقوتهم واعتدال قوامهم ، ان الانسان أشبه برجل نائم فى غابة وحوله ألوف من الوحوش والحشرات وكلها تجد فى طلب الفريسة وهو لا يدرى أن كل شىء فى الوجود يسعى لافتراسه ؛ بل لو تأملت أيها المرء لوجدت أن جسدك مركب من العناصر المضادة التى يحارب بعضها بعضاً ويجد بعضها في ابادة البعض الآخر أى فى ابادة الحياة . ففى داخلك ما يناديك بقضاء الموت المحتوم عليك عاجلاً . قال أيوب « فى لحظة يهبطون الى الهاوية » (أى ٢١ : ١٣) وقال أيضا « بغتة يموتون » (أى ٣٤ : ٢٠) وقال الحكيم « الكثير التوبيخ المقسى عنقه بغتة يكسر ولا شفاء » (أم ٢٩ : ١) .

هذا على أن الانسان إذا عاش طويلاً فهو عند موته لا يدرى بحياته التى مرت ولا يعتبرها أكثر من لحظة ، وعند حلول الموت وإنقضاء الزمان لا فرق بين من عاش عشر سنين ، ومن عاشت ألف سنة .

ان حياة كليهما ابتدأت بالولادة وانتهت بالموت . فكلاهما ولد ومات فالألف سنة تعتبر عند الموت كيوم واحد . قال أيوب البار الذى عاش مائتين وخمسين سنة « أليست أيامى قليلة » (أى ١٠ : ٢٠) فعنده ان الحياة التى تدوم ثلاثة قرون ليست بشىء ، وهاكم يعقوب البار إذ سأله فرعون كم هى أيام سنى حياتك ؟ أجابه « أيام سنى غربتى مائة وثلاثون سنه . قليلة ورديئة كانت ايام سنى حياتى ولم تبلغ الى أيام سنى حياة آبائى فى غربتهم » (تك ٤٧ : ٩) .

فقل فى نفسك اذاً أين رفاقى وخلانى الذين كنت منذ وقت قصير العب معهم وأتلذذ واطرب . لقد جازوا وتركوك وحدك . كثيرون منهم اضطجعوا على أسرتهم وهم يفكرون فى الملذات التى يستمتعون بها وزارهم الموت بغتة فحملوا من مخادعهم الى المقبرة اغمضوا عيونهم ولم يفتحوها . ضموا أيديهم ولم يبسطوها . احنوا رؤوسهم ولم يرفعوها . قال هوميروس « حياة الانسان أشبه شئ بورق الشجر الذى لا يدوم أكثر من فصل سنوى » وقال أحد القديسين « انه لا عدو الأسد ولا طيران الباشق ولا مروق السهم فى الهواء يعبر أتم تعبير عن قصر هذه الحياة وزوالها ».

فكل هذه الأقوال توضح لنا جلياً ماهية الحياة ومن يفحصها أكثر يجدها على هذه الصفة . يوم يطرد يوماً وسنة تهزم أخرى . فكما أن يوم أمس طرد الذى قبله كذلك هذا اليوم دفع أمس و يوم غد يدفع يومنا هذا وهكذا فالأيام يودع بعضها بعضاً ويمر الواحد بعد الآخر وتسوقنا سرعة مرورها الى الموت . يوم يظهر وليل يختفى . يوم يختفى وليل يجىء ونحن بين لذة النهار وأمل الليل نعيش فى غفلة ولا نعلم أن النهار سينقطع ظهوره ونبقى فى ظلمة القبر . قال المرتل « ترجع الانسان الى الغبار وتقول ارجعوا يابنى آدم . بالغداة كعشب يزول بالغداة يزهر فيزول . عند المساء يجز فييبس . أيام سنينا هى سبعون سنة وان كانت مع القوة فثمانون سنة وأفخرها تعب و بلية لأنها تقرض سريعاً فتطير » (مز ٩٠ : ٣ و ٥ و ١٠).

فهذه الحياة وان ظهرت لنا طويلة فهى قصيرة جداً حتى أنه لا يمكننا أن نضمن عمرنا دقيقة واحدة . وكما أن الضباب الذى يرتفع الى الجو تذيبه أشعة الشمس كذلك حياتنا التى نرغب فيها ونهواها والتى تظهر لنا عظيمة وغالية بهذا المقدار فانها بعد قليل تزول وتمحى كقول المرتل «افنينا سنينا كقصة» (مز ٩٠ : ٩) فلا تسل اذاً عن الانسان كم يكون عمره بل سل كم سنة مرت من حياته لأنه بمقدار ما تنمو الأشجار فانها تميل الى السقوط ، كذلك حياة الانسان كل ما يمر منها فانه يقدمها الى الفناء .

قال حزقيا النبى «مسكنى قد انقطع عنى كخيمة الراعى لففت كالحائك حياتى . من النول يقطعنى . النهار والليل يفنينى» (اش ٣٨ : ١٢) فهو يشبه حياته بالنسيج لأنه كما أن النسيج يتكون بكثرة الخيوط هكذا الحياة تتكون بكثرة الأيام . قال أيوب أيضاً «أيامى أسرع من الوشيعة وتنتهى بغير رجاء» (أى ٧ : ٦) وشبه سرعة أيامه فى مكان آخر بأكثر من سرعة العداء أو الراكض غير أن العداء لو أسرع الجرى بما يفوق قوته فلابد من الوقوف بعض الأحيان للأكل والنوم وما يضطر اليه الجسد . أما أيام الانسان فلا تزال هاربة على الدوام وتجرى الى الموت سريعاً .

قال أحد الأفاضل «لو أردنا أن نعرف حياة الانسان فيلزمنا أن نجمع نقائص البرية كافة وجميع حقارتها وكل نوع من شقائها لنشبه بها فناء هذه الأجساد فنأخذ من الزهور ذبولها ومن الشمس غروبها ومن كافة الكواكب خسوفها ومن الفصول تغيرها ومن كل شئ اضمحلاله وزواله» ولذلك نحن نجد أن جل كتبة الكتاب المقدس اجمعوا على تشبيه حياة الانسان بزهر الحقل . وقد أراد بذلك أن زهر الحقل أكثر الأشياء تعرضاً للأخطار ، فالشمس تيبسه . والريح الباردة تجففه . والناس تدوسه والحيوانات تأكله ، والماء يغرقه ، والحر يذبله . وهكذا أى لسان يستطيع أن يحصى كثرة الأخطار المحيطة بالانسان المهددة لحياته ؟ ومن ذا الذى يمكنه أن يعد الأمراض المتباينة التى تصادفه وهو لا يشعر بها ؟.

وقد شبه أيوب حياته بالسفينة فى قوله «تمر مع سفن البردى» (أى ٩ : ٢٦) وذلك لأن السفينة مع كونها تسرع فى جريها فانها معرضة لأخطار كثيرة لا تلافيها

فإذا صدمت صخراً انكسرت ، أو رملاً انغرست . هيجان يغرقها والرياح العاصفة تحطمها . قال أحد القديسين « من يركب سفينة و يسافر في البحر لا يزال سائراً مع كونه لا يتحرك . وأنت على هذا القياس ولو ظهر لك أنك واقف في الدنيا فأنت سائر بسرعة الى الموت ومحاط بجرذين أحدهما أبيض والآخر أسود ، وهما النهار والليل اللذان يقرضان العمر على الدوام » فلهذا لا يمكننا أن نسر ونتمتع بخيرات حياة كهذه .

أية لذة يجدها من ينظر أسداً آتياً نحوه بسرعة البرق فاغرا فاه لافتراسه . وهكذا أي سرور يحصل عليه من يعيش في هذه الدنيا وهو يرى الموت هاجماً عليه كالوحش الكاسر في كل لحظة.ان الله في جعله حياتنا سريعة بهذا المقدار كأنه يقول لنا « استعدوا للموت بالايمان الحي والعمل الصالح في كل حين ».

* * *

الفصل التاسع
فى فناء المجد العالمى وبطلانه

«لا تخش إذا استغنى انسان إذا زاد مجد بيته لأنه عند موته كله لا يأخذه . لا ينول وراء مجده».

(مز ٤٩ : ١٦ و ١٧)

كثيرون من بنى البشر إذا لاحظتهم فى تصرفاتهم ترى أن كل ما تنطوى عليه أفئدتهم وما ترغبه قلوبهم هو «المجد العالمى» فله وحده يكرسون حياتهم و يبذلون كل قوى نفوسهم للحصول عليه و يعرضون ذواتهم للخطر فى السعى وراءه وهم فى كدهم هذا وجدهم يقولون بلسان حالهم «لا نشتهى إلا مجد العالم وليست لنا أمنية سواه ومحبتنا له لا تسمح لنا بالتفكير فى غيره».

ولكن وا أسفاه فاننا والعالم الى الباطل ، وهو زائل بزوالنا وهوذا المرتل يقول «يذخر ذخائر ولا يدرى من يضمها» (مز ٣٩ : ٦) ليت شعرى ما هو الغنى الذى يعتد به الانسان ولأجل الحصول عليه يرمى بنفسه فى مخاطر الموت ؟ وما هذه المراتب والوظائف التى تسلب عقول البشر وتستهوى أفئدتهم وما هذه الخيرات العالمية التى عندما نفوز بها فى هذه الحياة فسرعان ما تفارقنا عند ولوجنا الدار الأخرى ؟ لأجل هذا ينبهنا الكتاب الالهى قائلاً «لا يفتخرن الحكيم بحكمته ولا يفتخر الجبار بجبروته ولا يفتخر الغنى بغناه» (ار ٩ : ٢٣).

حقاً ينبغى أن ندعو يوم الموت «يوم الخسارة» ولو سألنا أقرباءنا وأصدقائنا الراحلين لأجابونا محذرين إيانا قائلين «احترسوا من ضياع أعماركم فى خدمة هذه الأمجاد الكاذبة لاننا لم نأخذ شيئاً منها بل خسرنا كل تعبنا لأجلها . وقال أحد الأفاضل : اننا لا نقدر أن نعتبر هذه الأشياء ملكاً خاصاً بنا لأننا لا نقدر على

أخذها معنا الى العالم الآخر » ما الذى بقى من قدرة اسكندر الكبير وغنى كريزوس وجمال الملكة كليوبترة ؟ لقد انذهل الناس منهم فى حياتهم وتحدثوا عنهم بعد مماتهم ، بينما هم الآن تعساء أشقياء . قال القديس أوغسطينوس « أنهم يمدحون حيث لا يوجدون و يعذبون حيث يوجدون ».

ان كثيرين من البشر يشتهون لو ذاع صيتهم واشتهر اسمهم بين الملأ ولكن مهما طار صيت الانسان الى أقاصى الأرض فعما قليل يموت و يصبح أمره نسياً منسياً . فمن الغباوة اذاً أن نخسر الخيرات الأبدية لأجل هذه الأشياء الدنيئة ما اشبهنا بعيسو الذى باع بكور يته بأكلة من العدس . فلا تشته العظمة العالمية ولا تبتغ اللذة الأرضية فإنه سيأتى وقت فيه يتساوى العظماء والأدنياء ، الأغنياء والفقراء ، المتنعمون وغير المتنعمين و يصبح « عال ودون ، أغنياء وفقراء سواء » (مز ٤٩ : ٢).

أجل ان الغنى فى هذا العالم يتنعم أكثر من غيره ولكن هل عند حلول المرض تخفف عنه القاعات المزينة الأوجاع ، هل يزيل الذهب والفضة مرارة القلب ؟ وهل الثروة والمجد يطردان عنه الآلام ؟ وعند احتضاره وانطفاء نور عينيه ماذا ينفعه من الغرور واللذات ؟ أين تكون المشتهيات والتنعمات ؟ هوذا الحكيم يقول « من يتكل على غناه يسقط . أما الصديقون فيزهون كالورق » (أم ١١ : ٢٨).

قد يوسع الانسان مداره ولا يقتنع ، مع أنه بعد موته لا يملك من الأرض سوى قطعة صغيرة تجمع عظامه البالية ، وقد يحب الانسان علو البناء بينما يد الموت تحفر له فى الأسفل ، وقد يلذذ جسمه ولكنه فى الحقيقة يقدمه وليمة للدود والحشرات . قد يرغب الاضطجاع على فراش ناعمة وثيرة ولكنه فضلاً عن أن ناعم الفراش يكون له شوكاً فى غضون المرض فانه يتحول الى لحد وتراب ممزوج بالحصى . فأين الصيت والفخر العالمى ؟ قد انتزعا . أين الأمر ؟ قد بطل . أين الهيبة والعظمة ؟ قد سقطتا .

فلا جمال يدوم ولا قوة تبقى ولا سعادة إلا وتنتهى . فإذا كنت ترى شخصاً ذا طلعة بهية ولسان فصيح وقدمين سريعتين و يدين عاملتين فتأمله بعد حين تراه قد

انحل و بطلت حركة اعضائه ، فيصمت فمه وترتخى يداه ورجلاه وتهمد أعضاؤه ، و يتحول ذلك الجسد النضير الى جثة صفراء خرساء لا يستطيع الانسان أن يثبت نظره فيها لشناعتها . ولا يقف أمره عند هذا الحد بل يطرح فى التراب و يصير مأكلاً للحشرات فيقول للقبر أنت أبى وللدود أنت أمى وأختى » (أى ١٧ : ١٤).

فحياة كهذه لا دوام لها لا يصح نسيان النفس لأجلها ولا ينبغى التباهى بها . ليملك الانسان كل ذهب العالم وليتمتع بكل بطل الشهوات وليسكن أعلى القصور و يلبس أفخر الثياب ولكن ما هى قيمتها إذا كان لا يضمن بقاءه للتلذذ بها . ما أصدق وصف الرسول لها « لأن كل جسد كعشب وكل مجد انسان كزهر عشب والعشب يبس وزهره سقط » (١ بط ١ : ٢٤).

ينعمون أجساداً ستفسدها أحقر حشرات الأرض . و يزينون قواماً سينحنى رغماً . و يتمايلون بأعناق ستكسر يوماً و يفتخرون بعيون سيغلقها الموت . فحب العالم جاهل ومغرور . لنفرض أنه فاز بجميع ما يشتهى فكم من الزمن يمكن أن تدوم سعادته على الأرض ؟ هل يمكن أن تدوم له أكثر من مدة حياته ؟ و بعد وفاته لا يستطيع أن يأخذ قصره معه ولا يمكنه أن يقول للمال تعال اصحبنى ، ولا يلتمس من المجد أن يرافقه .

ان سليمان الحكيم الذى وفر لنفسه كل أسباب السعادة الدنيوية لما أفتكر أنه لابد من أن يأتيه الموت على حين غفلة فيطرحه من أعلى مجده الى الحضيض و يربط يديه عن العمل ورجليه عن المسير و يسد فاه عن الكلام ويملأ عينيه من الظلام ويحرمه من كل ما عملت يداه ولا يبقى بعد ذلك فى بيته بل يدفع الى القبر . لما رأى كل ذلك دعا ملكه وكنوزه وملذاته حتى حياته باطلاً (جا ١).

وقيل أن أوغسطس وهو يجود بأنفاسه الأخيرة قال « يافارس رد لى جيوشى الجرارة لأودعها بنظرة إذ لا أستطيع قيادتها بعد فإن أوامر الهية تتخلل دماغى »

وحكى أن صلاح الدين الأيوبى سلطان العرب المشهور الذى دوخ البلاد بفتوحاته وغزواته لما دنا أوان موته أخذ وهو على فراش المرض يئن و يتنهد . ولما اجتمع حوله

الأمراء والأعيان وكبراء المملكة أمر أن يؤتى بالكفن الذى كان مزمعاً أن يلف داخله وأشار الى أحد الموظفين أن يأخذ الكفن و ينصبه على رأس رمحه الظافر و يسلمه لأحد سعاته ليطوف به فى جميع شوارع المدينة و ينادى قائلاً « ان سيد الشرق لم يستطع أن ينزل القبر الا برداء واحد ».

كان فى بلاد الروم مما يلى أرض الأندلس مسيحى تقى رغب عن العالم وزهد فيه ثم وفد على المستعين بن هود فى بعض الأمر فأكرمه ثم أخذ بيده وجعل يعرض عليه ذخائر ملكه وخزائن أمواله وما حوته من النفائس وأوقفه على ما لديه من الخدم والحشم والعبيد والجوار وأقام على ذلك أياماً فلما انقضت قال له : كيف رأيت ملكى ؟ قال له رأيت ملكك عظيماً ولكنه يعوزه شئ واحد إن أنت قدرت عليه تم انتظامه . وإن لم تقدر عليه فيكون هذا الملك كلا شيء . فقال وما هو؟ فأجابه أن تصنع غطاء حصيناً قوياً تكون مساحته قدر مساحة البلد ثم ترفعه على البلد حتى لا يجد ملك الموت اليك سبيلاً . فقال المستعين : سبحان الله . أيقدر البشر على مثل هذا ؟ فقال الرجل « لماذا اذاً تفتخر بأمر تتركه غداً ؟ فان مثال من يفتخر بما يفنى كمن يفتخر بما يراه فى النوم ».

وقد قيل ان سراى ملوك النمسا التى لبثت قائمة ٧٠٠ سنة حولت بعد طرد الملك منها الى مكاتب للحكومة والشركات ، والحديقة العظيمة التى لم تطأها إلا أقدام كبار الضباط قد قسمت الى دكاكين صغيرة لمعارض وقتية ودائمة لا يسمع فيها إلا أصوات التجار ومساومات الباعة والمشتركين . فسبحان من يغير ولا يتغير. كيف لا وهو القائل لنبوخذنصر « لك يقولون يانبوخذنصر الملك . ان الملك قد زال عنك . و يطردونك من بين الناس وتكون سكناك مع حيوان البر و يطعمونك العشب كالثيران فتمضى عليك سبعة أزمنة حتى تعلم أن العلى متسلط فى مملكة الناس وأنه يعطيها من يشاء » (د ٤ : ٣١ و ٣٢).

يوجد كثيرون يحسدون الملوك على ملكهم والأغنياء على غناهم و يشتهون لو يكونون نظيرهم ، ولكن أنظر ياهذا الى أولئك الممجدين كم يدوم مشهد مجدهم هذا ؟ غداً يموتون و يصبحون محتقرين مداسين بالأقدام و ينفض عنهم كل المتملقين

و يدومون منفردين فى ظلمة القبر. فالموت يعرى الانسان من كل خيرات العالم. وهو لا يخلع الانسان من الدنيا فقط بل يسلخه منها. ما أعظم الفرق بين خلع الثياب وسلخ الجلد فإذا رأيت محب العالم وهو يموت ألفيته يبكى بدموع سخينة وإذا سألته لم تبكى ؟ أجابك كيف لا أبكى أسفاً على مفارقة ما قد اكتسبته بجد وعناء مستحيلين. كيف لا أبكى وأولئك الذين يحبوننى و يشفقون على هم أول من يسلموننى الى القبر و يتركوننى فى ظلمته وحدى، وإذ يرى نفسه محمولاً لترك كل ما أتكل عليه فمن يستطيع أن يصف مقدار حزنه وحرقته وندامته ؟.

فيالـه من منظر محزن أن يشاهد ذلك العظيم خارجاً من قصره الى قبره دون أن يكون له أمل بالرجوع الى القصر مرة أخرى فيأتى غيره و يستولى على كل ماله، وأهله ينقلونه بالبكاء مستوراً ببعض الملابس التى لا تحفظ جسده من الفساد. فلا يجد بعد من يواسيه أو من يجالسه، ولا يبقى اعتباراً لأوامره و يتساوى بأحقر حقير فى الأرض و يصبح فى عداد المهملين فلا يذكر بعد و يتم عليه القول « الغنى والفقير يتلاقيان صانعهما كليهما الرب » (ام ٢٢ : ٢) « كلاهما يضطجعان معاً فى التراب والدود يغشاهما » (أى ٢١ : ٢٦).

قيل ان ديوجينس الفيلسوف اليونانى مثل يوماً أمام الاسكندر الأكبر وأظهر أنه مهتم جد الأهتمام بفحص إحدى جماجم الموتى. فسأله الملك قائلاً « علام تفتش هكذا بعناية فيما بين هذه الجماجم » فأجابه ديوجينس إنى أفحص عسى أن أجد جمجمة أبيك الملك فيلبس ولكنى ما قدرت أن أميزها عن باقى الجماجم فإن كان يمكنك أن تعرفها فأرنى إياها » وقال سينكا الفيلسوف : ان البشر يتميز أحدهم عن الآخر فى المولد ولكن بعد الموت يتساوى الجميع » وقال أوراثيوس، ان الموت يجعل صولجانات الملوك مماثلة لمعاول الفلاحين ».

وقال القديس افرآم السريانى « مررت يوماً على قبر فى قفر فسألت : لمن هذا القبر؟ فقيل لى هو : لأحد الملوك العظماء وقد دفن فيه رجل صعلوك بجانب الملك. تعال وانظر لعلك تستطيع أن تميز جثة أحدهما عن الأخرى. فوقفت على باب القبر المفتوح ولوائح الحزن على وجهى فنظرت أولاً جثة الفقير مطروحة فى التراب ونسيج

العنكبوت مخيم على رأسه وأسنانه عارية من الجلد وفمه مملوءاً تراباً وعظامه مجردة من اللحم الذى استحال الى تراب ونتانة . فقلت واحسرتاه على الفقير كيف تغير حاله ! وظننت أن الملك يمتاز هناك كامتيازه هنا و يكرم مثواه حيث حل ، وتوقر جثته فى القبر كما كان شخصه موقراً فى العالم . غير انه قد خاب ظنى لكونى رأيته وقد اعتاض عن عرش الملك والاعتبار بمكان الذل والاحتقار وعن الطيوب الزكية بالنتانة الرديئة ، وعن كرامته فى هذا الزمن بهوة الرمس والدمن ».

قال حكيم لأحد أصحابه : أتريد أن أريك الدنيا ؟ فقال نعم . فأخذه بيده وانطلق حتى وقف به على مزبلة فيها رؤوس آدميين ملقاة و بقايا عظام نخرة وخرق وقد تمزقت وتلوثت بنجاسات . فقال هذه رؤوس الناس التى تراها مثل رؤوسكم ، كانت مملوءة من الحرص والاجتهاد على جميع الدنيا وكانوا يرجون من طول الاعمار ما ترجون . وكانوا يجدون فى جمع المال والاهتمام بالدنيا كما تجدون . أما اليوم فقد تلاشت أجسامهم وتجردت عظامهم كما ترى . وهذه الخرق كانت أثوابهم التى كانوا يتزينون بها واليوم قد ألقتها الريح فى مستودع الأقذار . وهذه النجاسات كانت أطعمتهم اللذيذة التى كانوا يحتالون فى تحصيلها واليوم لا يقربها أحد من نتانتها . فهذه جملة أحوال الدنيا كما تشاهد وترى . فمن أراد أن يبكى على الدنيا فليبك فإنها موضع البكاء .

وما أجمل قول القديس يوحنا ذهبى الفم : « انك أيها الانسان إذا كنت تفتخر بما تتزين به من حرير وصوف فإعلم إن هذا كساء الحيوانات الحقيرة التى تمرغت فيه قبلك وأنت تلبس الآن فضلاتها ».

وقال هذا القديس أيضا « تأمل ياهذا الى قصور العظماء والكبراء كيف أنها خاوية خالية وقد انقلبت بكرور الدهور والعصور الى أطلال باليه ينعب فى أرجائها البوم والغراب . ليت شعرى كم من الشرور كان يفعل هؤلاء ! وها هم الآن لا يسمع لهم صوت ولا تذكر أسماؤهم : فأين أولئك الذين كانوا يغترون بجاههم ؟ أين الذين كانوا يمدحونهم ؟ أين الذين كانوا يضربون لهم على آلات

الغناء ؟ أين الضحك والاستهزاء ؟ ياللآسف لقد باد الكل وفنوا وخلت منهم أماكنهم .

فما أشبه مرور الانسان فى الدنيا بمرور السفينة فى البحر فانها لا تبقى أثراً وراءها يدل على مرورها ، هكذا حياتنا . حقاً ان الدنيا تغفل عن أهلها وتهملهم وحدهم . أما حياتهم فقد انصرمت والأيام دفنت ذكراهم . حتى قبورهم الفخمة هدمت ودثرت ولم يبق لهم أثر ولا اشارة . قال الحكيم « لأن الغنى ليس بدائم ولا التاج لدور فدور » (ام ٢٧ : ٢٤).

فياللآسف على من أحبوا العالم وعشقوا مديح الناس فجدوا وكدوا لنوال المجد ومع ذلك مروا دون أن يعرف مكان مرورهم . كم من الناس نظيرنا قد عرفناهم وعاشرناهم وسررنا بمحادثتهم هم الآن مدفونون تحت أقدامنا فالموت قد ساد جميعهم فلا يرجعون الينا بل نحن راحلون اليهم . كل الأشياء سريعة الى البوار ونحن قريباً ننفصل بعضنا عن بعض تاركين كل أفراحنا ومسراتنا وأحبائنا . واليوم قريب الذى فيه يأكلنا الدود ونستحيل الى تراب ورماد .

فالواجب علينا إذاً أن لا نعتد بهذا المجد العالمى و ينبغى أن نزن الخيرات الزمنية بالميزان الصحيح فحينئذ نجدها عديمة القيمة كقول الكتاب « إن زاد الغنى فلا تضعوا عليه قلباً » (مز ١٢ : ١٠) حتى قال القديس أوغسطينوس « لا تنظر أيها الانسان الى ما كان يملك الغنى بل انظر الى ما أخذه معه » ويحققه قول الكتاب « كما خرج من بطن أمه عريانا يرجع ذاهباً كما جاء ولا يأخذ شيئاً من تعبه فيذهب به فى يده » (جا ٥ : ١٥) وقوله أيضاً « لأننا لم ندخل العالم بشئ وواضح أننا لا نقدر أن نخرج منه بشئ » (١ تى ٦ : ٨).

فإعتبر أيها الانسان بأنه لا يرافقك درهم واحد من أموالك ولا أحد من عبيدك ولا ثوب واحد من ملابسك لتتمتع بها فى الأبدية . إنما يرافقك شئ واحد هو إيمانك بالهك وثمر إيمانك أى عملك الصالح فهما اللذان يكونان لك سراجاً مضيئاً ينير لك سبيل الأبدية المظلم .

الفصل العاشر
فى سرعة اضمحلال أمجاد العالم

« السحاب يضمحل و يزول . هكذا الذى ينزل الى الهاوية لا يصعد . لا يرجع بعد الى بيته ولا يعرفه مكانه بعد » (أى ٧ : ٩ و ١٠).

كضباب الصباح الذى يكسو رؤوس التلال ليلاً ، وكالبخار الذى يغطى الأودية ولكن يضمحل حالماً تسطع عليه أشعة الشمس فتبدو من تحته تلك التلال والأودية ، هكذا مجد العالم يمضى فلا ينظر أيضاً . كالرعود والبروق والسحب والصواعق تنحدر بشدة على العالم فى فصل الصيف و يعقبها هطول الأمطار والسيول العظيمة ولكن بعد قليل جداً يبطل هذا الهيجان و يعود الجلد الى صفائه ، هكذا كرامة هذا العالم وأمجاده الفارغة تسرع الى الزوال والانحلال بعد علوها وانتفاخها ، فحاشية الملك تفرقت ومجلسه العظيم انحل ، ومجد الغنى باد « كيف صاروا للخراب بغتة اضمحلوا فنوا من الدواهى . كحلم عند التيقظ يارب عند التيقظ تحتقر خيالهم » (مز ٧٣ : ١٩ و ٢٠).

كظل باطل لا مادة له ولا وجود سوى ظلامه ورسمه وحركته ، هكذا العالم فانه ظل يتقلص فيتلاشى أثره . فهل ترغب أن تطارد ظلاً . وهل يوجد شئ أسرع زوالاً من أمجاد العالم والانسان الذى يعشقها ؟ « لأن للشجرة رجاء . ان قطعت تخلف أيضاً ولا تعدم خراعبها . ولوقدم فى الأرض أصلها ومات فى التراب جذعها فمن رائحة الماء تفرخ وتنبت فروعاً كالغرس . أما الرجل فيموت و يبلى . الانسان يسلم الروح فأين هو » (أى ١٤ : ٧ — ١٠).

كموج البحر يصعد ويهبط ولم يعد ينظر. هكذا تاريخ هذا العالم كتاريخ الموجة صعود وهبوط ثم انحلال الى الأبد. فهل تروم أيها الانسان أن تجعل نصيبك في الحياة موجة ؟.

كقوس سحاب. أرسلت الشمس أشعتها على غيوم ممطرة فتكسرت تلك الأشعة الى ألوانها السبعة فبدت للناظر قوساً غاية في الجمال. ولكن تلك الغيوم مرت بسرعة فزال للوقت جمال القوس. هكذا أيضاً المجد الذي يتألف من فانيات هذه الحياة فإنه تدهمه غيوم الأخطار فينحل و يتم الافتراق بينه و بين الانسان فلا يعود يراه الى الأبد.

كصورة جميلة رسمت فيها مدن وقلاع وممالك وبحار وانهار وجبال ولكن متى لحقها قليل من الماء محيت بسرعة وتشوهت، هكذا الدنيا تظهر لك بصورة جميلة مزخرفة ولكنها تتمزق وتتلاشى بأقل الأشياء. وقلب الانسان المملوء بالمطامع والآمال في وقت وجيز ينسحق و يفقد الحياة «لذلك يكونون كسحاب الصبح وكالندى الماضي باكراً. كعاصفة تخطف من البيدر وكدخان من الكوة» (هو ١٣ : ٣).

كزهرة نضرة تسر من يراها فيقتطفها و يشم رائحتها الزكية ولكن بعد برهة قصيرة تذوى و يذوب جمال منظرها. هكذا العالم يذبل أمام عيوننا فبينما نحن ننظر اليه بسرور إذا به يمضي ولا يبقى له سوى قليل من الغبار. فهل تحب أن تجعل نصيبك ما لا تزيد مدته عن ساعة من الزمن ؟.

كسفينة ترى أمامنا تنشر قلوعها وتسرع في سيرها فتتوارى عن الأنظار. أو كقاطرة قامت للسير فغابت عنا في لمحة. هكذا العالم فأنه في لحظة يتوارى وفي وقت قصير يغيب. قال يوحنا الرسول «العالم يمضي وشهوته» (١ يو ٢ : ١٧) قال ذلك لأنه عاصر اثنى عشر امبراطوراً وهم أوغسطس وطيبار يوس وكاليغولا وكلوديوس ونيرون وغلبى واثو وفيتاليوس و يسباسيانس وتيطس ودوميتيانوس ونرفا، وكانوا كلهم يظنون أن العالم لهم ومات أكثرهم أسوأ ميتة.

كخيمة فى البرية ينصبها السائح أو الراعى عند المساء فتراها بقعة بيضاء كأنها بزغت من الرمضاء . وعند شروق الشمس تختفى تلك الخيمة وساكنها وترى البرية مقفرة كما من ذى قبل . هكذا العالم ينظر اليوم وغداً يتوارى عن النظر ، وقد قال حزقيا الملك « مسكنى قد انقطع وانتقل عنى كخيمة الراعى » (اش ٣٨ : ١٢) و يوحنا اللاهوتى يخبرنا عن زوال الأرض بقوله « ورفع ملاك واحد قوى حجراً كرحى عظيمة ورماه فى البحر قائلاً هكذا بدفع سترمى بابل العظيمة ولن توجد فى ما بعد . وصوت الضاربين بالقيثارة والمغنيين والمزمرين والنافخين بالبوق لن يسمع فيك فى ما بعد . وكل صانع صناعة لن يوجد فيك فى ما بعد » (رؤ ١٨ : ٢١ و ٢٢) فهذا هو اليوم العظيم الآتى على الأرض حيث تنحل العناصر وتتلاشى المسكونة التى طالما كسرت قلوباً وأورثتها من الأحزان والأكدار ما لا يحتمل . فإعلمى أيتها الدنيا مكردة صفاء الحياة وهادمة أركان السعادة ومورثة الشقاء والاحزان لكل بنى الانسان أن الله قد أعد لك يوماً فيه تطرحين بدفع فى ظلمات العدم والاضمحلال الى الأبد . هذا هو جزاؤك العادل أيتها الغرارة الشنيعة .

إن أحد السياح الأتقياء بعد أن طاف العالم ورأى كل عجائب الدنيا وغرائب الانسان حتى شاخ وآوى الى فراش الموت صرخ عند موته قائلاً لابنه « الأشياء زائلة ! الأشياء زائلة ! » وهذا هو صراخ كل من عرف حقيقة العالم وخبر أحواله . والرسول بولس يقول « فأقول هذا أيها الاخوة الوقت منذ الآن مقصر لكى يكون الذين لهم نساء كأن ليس لهم والذين يبكون كأنهم لا يبكون والذين يفرحون كأنهم لا يفرحون والذين يشترون كأنهم لا يملكون . والذين يستعملون هذا العالم كأنهم لا يستعملونه . لأن هيئة هذا العالم تزول » (١ كو ٧ : ٢٩ — ٣١) .

فما أشبه العالم بالتمثال الذى رآه نبوخذنصر الملك الذى كان رأسه ذهب وصدره وذراعاه من فضة و بطنه وفخذاه من نحاس وساقاه من حديد وقدماه بعضهما من حديد والبعض من خزف إلا أنه حطم أخيراً وانسحق الحديد والخزف والنحاس والفضة والذهب معاً وصار كعصافة البيدر فى الصيف فحملتها الريح فلم يوجد لها مكان (دا ٢) وهذا إشارة الى ممالك العالم التى يرتفع شأنها و ينتهى أمرها أخيراً

الى الإنحلال والزوال .

إن يونان النبى فرح فرحاً عظيماً عند معاينته تلك اليقطينة التى نبتت بغتة وامتدت ونمت حتى صارت فى يوم واحد كأنها نظير خيمة تظلله ولكن الله أعد لها دودة فضربتها فيبست . تألم لأجلها يونان وطلب الموت لنفسه فوبخه الله لأنه حزن على يقطينة بنت ليلة كانت و بنت ليلة هلكت (يون ٤). ليت شعرى أليست على هذه الصفة كرامات هذا العالم وأمواله وأمجاده وملذاته فإنها فى ليلة واحدة تأتى وكثيراً ما تفقد فى تلك الليلة نفسها . أيخال لك إنك ساكن ومستريح فى ما تملك ؟ أتظن إنك فى أمن وسلام ؟ لعمرى أنك نائم ومغرور لأنه تحت ظل اليقطينة النضرة استقرت دودة الفناء وهى تأكل فيها من غير أن تشعر ، و بغتة تخسر لذاتك . الزمان يبس كراماتك وغناك ، والريح يكنس مجدك وعظمتك « أيضا فى الضحك يكتئب القلب وعاقبة الفرح حزن » (أم ١٤ : ١٣).

ألم يسمع بيلشاصر الملك وهو على مائدة السرور وسراريه وعظماء مملكته حوله معه دانيال النبى يقول له « أحصى الله ملكوتك وأنهاه » وقال الكتاب « فى تلك الليلة قتل بيلشاصر ملك الكدانيين » (دا ٥ : ٢٦ و ٣٠) ألم يسمع الغنى عقب تأمله فى سعادة مستقبله الصوت « ياغبى هذه الليلة تطلب نفسك منك فهذه التى أعددتها لمن تكون ؟» (لو ١٢ : ٢٠). هوذا الكتاب يقول « واضرب بيت الشتاء مع بيت الصيف فتبيد بيوت العاج وتضمحل البيوت العظيمة يقول الرب » (عا ٣ : ١٥).

اننا نجد كثيرين قد ساقهم العلم بزوال الأرض وما فيها الى رفض كل خيراتها ومقتنياتها . فيوسف الصديق الذى كان بمصر سيداً عظيماً لم يذكر الكتاب عنه أنه خلف بمصر ثروة ومالاً وذلك لأنه كان متيقناً أن بنى اسرائيل اخوته سيتركون مصر يوماً . كذلك موسى النبى مع علمه أنه الوريث لعرش مصر فقد رفض هذا المقام السامى مفضلاً بالأحرى أن يذل مع شعب الله على أن يكون له تمتع وقتى بالخطيئة حاسباً عار المسيح غنى أعظم من خزائن مصر (عب ١١ : ٢٤ ــ ٢٦).

وقد أوصانا مخلصنا الصالح قائلاً « لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض » (مت ٦ : ١٩) وذلك لأن كنوز الأرض قصيرة المدة كما أنها تعيق الانسان عن السعى فى طريق السماء . ليت جميع البشر يتأملون ولوساعة واحدة فى سرعة زوال هذا العالم ومقتنياته فإن هذا يكفى لأن نزدرى ونستخف به « إن هتاف الأشرار من قريب وفرح الفاجر الى لحظة » (أى ٢٠ : ٥).

إن الأشجار فى فصل الصيف تظهر ميتة خالية من الثمر والورق ولكن أصلها حى وكل قواها محفوظة . وأما المروج الخضراء فتظهر فى الشتاء خضراء حية ولكن عندما يوافى فصل الصيف تذبل وتيبس . أما الأشجار فتزهر وتثمر : وهذا ينطبق تمام الانطباق على أحوال هذه الحياة الدنيئة فهى شتاء مكرب محزن قليل الربيع ولكنه ملآن بالأعشاب التى تزهر قليلاً والتى يتنعم أهل العالم بنضارتها ورونق خضرتها زماناً ما . ولكن عند مجئ صيف الحياة الأخرى الدائمة البقاء حينئذ يذبلون و ييبسون فيحصد الموت العشب اليابس و يضرم فيه النار .

فلا تغرنك خضرة أمجاد العالم ولا رونقها الحاضر فإنها تذبل حالاً وتزول فى أسرع وقت . لا تحب العالم الذى تراه مسرعاً فى مروره جداً . قال الحكيم « كعبور الزوبعة فلا يكون الشرير » (أم ١٠ : ٢٥) وما أحسن قول أحد المؤمنين « إن الانسان الذى يتفانى فى خدمة هذه الحياة أشبه بالحيوان الذى يخرج الماء من السواقى ولا يشرب منه ».

ومن يتأمل جيداً يجد لذات هذه الدنيا قصيرة لا ثبات لها ، وكل ما تقدمه لمحبيها فهو زائل . نعيمها وقتى ، مجدها وأفراحها بمنزلة مرور الدقيقة الواحدة من الزمن وكل ما فيها من الأباطيل يتلاشى سريعاً و يطير كالدخان و ينسى كأنه ما كان « وأبيد منهم صوت الطرب وصوت الفرح وصوت العريس وصوت العروس وتصير كل هذه الأرض خراباً ». (ار١٦ : ١٠ و ٢١). قال القديس كبريانوس « لقد قضى على العالم بأن كل ما هل قل وكل ما زاد نقص ، وكل ما قوى ضعف ، وكل ما كبر صغر وعند ذلك يزول كل شئ ».

لقد رأينا مع مرور الزمن تلاشى شئ كثير مما كان معنا . أين الأشياء التى رأيناها بالأمس ؟ لقد بادت وتلاشت كالدخان . أين المآكل والمشارب الطيبة ؟ لقد اضمحل الكل ولم يبق شئ . باطل هو فرح الطيور بأكل الحنطة وهى فى شرك الصياد . و باطل هو سرور السمك بالطعم الموجود فى الصنارة (جا ٢٩ : ١١).

هكذا باطل هو فرح الانسان بسعادة الدنيا ، والموت قريب . فكل انسان سيصير الى التراب وكل ما يشيد سيؤول الى الخراب . ارفعوا عيونكم الى السموات وانظروا الى الأرض من تحت « فإن السموات كالدخان تضمحل والأرض كالثوب تبلى وسكانها كالبعوض يموتون » (اش ٥١ : ٦).

حسبك أن تفتش أيها الانسان على الخيرات التى لا يفنيها طول الزمن ولا يبليها تقادم العصور ولا يغيرها شئ . ان كرامة المسيحى الحقيقية ليست إلا فى المسيح يسوع المصلوب ومجده وإفتخاره فى مكابدة الضيقات والمشقات من أجل أسمه القدوس . والشرف الحقيقى إنما هو فى فضيلة النفس التى لا تهلك بالسعى الباطل ولا تفتتنى بالدراهم ، قال أحد كتبة سيرة القديس انبا بولا أول السياح « إنى أسأل الآن الأغنياء الذين لا يعرفون مقدار ثروتهم لكثرتها والذين يسكنون المنازل الفسيحة المزينة بالزخارف والنقوش ، ما الذى أعوز هذا الشيخ القديس المتعرى من كل غش . فأنتم تشربون فى كؤوس من فضة وذهب وهذا بولا يطفئ عطشه بكف يده . أنتم تلبسون الحرير وهذا كان مرتدياً بثوب من نخل . غير أنه لا يكون الأمر هكذا دائماً ، وهذه الحال تنقلب الى حال أخرى . فها أن السموات قد انفتحت لبولا المسكين ، وأما أنتم فستهبطون الى جهنم مع جميع كنوزكم . وهو قبر فى لحد ليقوم الى المجد وأنتم تدفنون فى قبور من الرخام والمرمر لتحترقوا الى الأبد ».

أيها القارئ العزيز .

أيهما أحب لديك . محبة أمور الحياة التى تزول مع زوالها . أم محبة يسوع التى بها تدوم الى الأبد ؟ قال الرسول بطرس للمؤمنين عن مجدهم فى السماء « لميراث لا يفنى ولا يتدنس ولا يضمحل محفوظ فى السموات لأجلكم » (١ بط ١ : ٤).

الفصل الحادى عشر
فى ضرورة الاستعداد للموت

« أوص بيتك لأنك تموت ولا تعيش » (اش ٣٨ : ١)

الاستعداد للموت أمر ضرورى ، لأن الانسان لا يموت إلا مرة واحدة (عب ٩ : ٢٧) بعد ذلك يكون الانسان أمام أمرين إما سعادة أبدية أو شقاء أبدى فليس لنا مجال إذاً بعد الموت لنصلح ما وقع منا هنا من الخطأ . فمن هذا الوجه الرجاء مقطوع والأمل مفقود فينبغى إذاً أن نتأكد أن أمر خلاصنا أو هلاكنا متوقف على حالتنا قبل الموت . فكما نعيش نموت وندان . الحياة التى نحياها والأعمال التى نعملها هى التى تكسبنا الحياة الأبدية أو تقضى علينا بالموت الأبدى .

قال عاموس النبى « استعد للقاء إلهك » (عا ٤ : ١٢) إن كنا نتوقع أننا سنمثل أمام أحد ملوك الأرض العظام فإننا نستعد بكل ما يمكننا من الاستعداد للمثول بين يديه . وإن كنا ننتظر دعوة للوقوف أمام أحد القضاة لاستجوابنا فى أمر ما فإننا نهيئ إجابتنا على كل سؤال نتوقع توجيهه إلينا . وإذا أردنا أن نذهب الى رجل غنى مقتدر لنطلب منه نوالاً فإننا نستعد لتلك المقابلة . ولكن ما أكثر الذين لا يفكرون أبداً بأن يستعدوا للقاء إلههم ، فإنهم يهتمون بلقاء من أحسن اليهم من أهل الأرض أكثر مما يهتمون بلقاء الله تعالى و يسلكون مع الناس الذين هم مثلهم باحترام أكثر مما يسلكون مع الرب ، مع أنه ملك الملوك ورب الأرباب ، وهو الذى يحكم علينا حكماً أبدياً بحسب حالتنا هنا ، فإما أن يصعدنا الى الأفراح السماوية أو يطرحنا فى أعماق الجحيم .

فما رأينا إذاً ؟أليس من الضرورى علينا أن نستعد لمقابلة الله دائماً ؟ ألم يجعلنا الله نجهل ساعة الموت لكى نكون متأهبين ومستعدين له فى كل حين ؟ قال القديس يوحنا ذهبى الفم « إن الله قد أخفى عنا ساعة الموت لثلاث غايات : أولاً لتعزيتنا . ثانياً لصيانتنا . ثالثاً لكمالنا . فأما لتعزيتنا فكما يفعل الطبيب الجراح فإنه إذا أقبل الى المريض ومعه الآلات التى ينبغى أن يستعملها فى جسده فإنه يسترها ويخفيها عنه . ثم أنه قد جرت العادة بأن يوضع على عينى المحكوم عليه بالموت حجاب لئلا يبصر ما قد أعد لتعزيبه . وأما لصيانتنا فانه لوعلم الانسان انه إذا أخطأ لا يفاجئه الموت فما أكثر المساوئ التى كان يتهافت عليها ! بل كان للشرير أن يقول إنى أجد أمامى فسحة من الزمان لأصرفها فى التوبة والتكفير عن خطاياى فلماذا لا أتبع اليوم شهواتى وأهوائى ؟ فعدم معرفة يوم نهايتنا هو كاللجام الذى يمسكنا عن التدهور فى الشرور . وأما لكمالنا فمن يعتقد يقيناً إنه فى كل دقيقة يمكن أن تنقضى حياته لا يتهاون فى أن يصرف كل دقيقة فى عمل ما يستحق عليه الأجر الحسن من الله ولا يبرح مجتهداً ليزداد حسنة على حسنة وفضيلة على فضيلة . قال القديس أوغسطينوس « أن الله بإخفائه عنا يوم انتهاء حياتنا قد خصنا برحمة جليلة إذاً أنه بذلك يلزمنا المواظبة والسهر والتيقظ على نفوسنا بلا ملل ».

قال السيد المسيح « اسهروا إذاً لأنكم لا تعرفون اليوم ولا الساعة » (مت ١٥ : ٢٣) إذا قيل لك إن هناك كنزاً قد أعطى لك أن تسعى لتناله فى زمن معين غير معروف مقداره فهل كنت تتوانى عن أن تعدو بسرعة البرلتفوز به ؟ وإذا قيل لمن حكم عليه بالاعدام أن أمامه فرصة قصيرة للنجاة فهل كان يتأخر عن أن يطلق ساقيه للريح لينجو بحياته . وفى العهد القديم كان للقاتل سهواً أن يجرى الى مدن الملجأ لينجو ممن يطالب بثأر المقتول . فهل كان يتباطأ عن السعى للخلاص من القتل ؟ (عد ٣٥) فأمامك الآن فرصة لا تعلم مقدارها لتستعد لاستقبال ساعة الموت و بعدها تقابل إلهك لتعطى حساباً فى يوم الدين عن كل ما قدمت يداك خيراً كان أم شراً فلماذا أراك متقاعساً ومهملاً ومتأخراً . أتظن أن المجد المعد فى السماء للمستعدين بأقل من كنوز العالم ؟ أو أن العقاب المجهز للمهملين بأقل شدة من

عقاب الاعدام ؟ أو أن يد العدل التى تعاقب الخطاة ليست باقسى من يد من يسعى ليأخذ بثأر قريبه ؟ يالغباوتنا هل هكذا أصبحنا عديمى الفهم حتى إننا نجد وراء الفانى ونهمل أمر الباقى ونخشى المخاطر الخفيفة ولا نهتم بالبلايا الجسيمة . أيها البائسون أن المنية تدعوكم بعد هنيهات والديان الرهيب متأهب لمحاكمتكم فلماذا تتلهون وتضيعون هذا الوقت القصير فى الاهتمام بالأمور الباطلة ؟ قال الرسول بولس « مفتدين الوقت لأن الأيام شريرة » (اف ٥ : ١٨) وقال أحدهم « أن أياماً قليلة تستطيع أن تنال حياة أبدية ».

اعتبر أن فى استعدادك للموت تربح ثلاثة أمور :

أولاً : تربح التعزية فى هذه الحياة : فالمؤمن يسير فى الحياة بقدم ثابتة لا تروعه الكوارث ولا تزعجه البلايا ، ولا يذيق فمه ذكرى الموت مرارة شديدة . بينما ترى الخاطئ مضطرباً خائفاً من تلك الساعة الهائلة التى لم يتهيأ لها فيرتعب من أقل مصيبة و ينزعج لأهون خطر . وجد رجل فى الغابة مضرجاً بدمائه لأن نمراً مفترساً قابله وانتزع بعض أعضائه وعلى الرغم من ألمه فقد سمعه يقول : « أشكرك أيها الاله العظيم فضلك . إنى أتألم من جراح النمر لا من وخزات الضمير ».

ثانياً : تربح التعزية حين الموت . فما أحلى الموت للمستعدين وما أبهجه للمنتظرين . وما أحسن تشبيه السيد المسيح لساعة الموت باللص بقوله « طوبى لأولئك العبيد الذين إذا جاء سيدهم يجدهم ساهرين .. وإنما إعملوا هذا أنه لو عرف رب البيت فى أية ساعة يأتى السارق لسهر ولم يدع بيته ينقب » (لو ١٢ : ٢٧ و ٣٩).وذلك لأن اللص إذا سطا على بيت ورأى صاحبه نائماً فانه يقتله و ينهب أمواله . هكذا الموت إذا جاء ورآك مستيقظاً منتظراً قدومه على الدوام فانه يخاطبك بلطيف الكلام ، ولكن ان رآك راقداً بنوم الخطيئة سلب نفسك منك وأماتك موتاً أبدياً . قال الحكيم « الشرير يطرد بشره أما الصديق فواثق عند موته » (أم ١٤ : ٣٢).

ثالثاً : تربح المجد الأبدى فى السماء . قال بطرس الرسول « بل كما اشتركتم فى آلام المسيح افرحوا لكى تفرحوا فى استعلان مجده أيضاً مبتهجين » (١ بط ٤ : ١٣).

تأمل أية خسارة تحل بك إن لم تكن مستعداً ؟ انها ليست خسارة أموالك أو قصورك أو حللك البهية ، لأن هذه . يمكن أن تعوضها إذا فقدت ولكنها نفس واحدة لك إذا فقدت لا يمكنك أن تجدها : إذا خسرتها لا يمكنك أن تربحها . كل غنى العالم لا يرد لها سعادتها . هوذا المخلص ينبه قائلاً « لأنه ماذا ينتفع الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه . أو ماذا يعطى الانسان فداء عن نفسه » (مت ١٦ : ٣٦) قال أحدهم « يظهر المخلص بهذا القول كأن بيده ميزاناً عظيماً دقيقاً يصل الى السموات ارتفاعاً وقد وضع فى كفته الواحدة . النفس . النفس الأبدية . نفسى ونفسك . وفى الكفة الأخرى العالم كله وهو يزنهما أمام أعيننا ليرينا أيهما أثقل وأعظم قيمة . فإنظر ياصاح إن الكفة التى فيها النفس تنزل بثقلها حالاً وأما التى فيها العالم كله فإنها تصعد بخفة كلية حتى تلحق قائمة الميزان كأن فى الأولى سبيكة عظيمة من الذهب وفى الثانية ريشاً لا ثقل له ».

ان الربان الذى يمخر بسفينته عباب البحر إذا سمع أن فى طريقه صخراً عظيماً غير معين مكانه إذا اصطدمت به سفينته تحطمت فلا يمكنه أن ينام أو يغفل ، بل تراه يلتفت بانتباه عظيم ليعرف مكان ذلك الصخر حتى ينحرف بسفينته عنه . وأنت على هذا السبيل تسير فى غمرات لجج هذا العالم الشرير بينما صخرة الموت مرفوعة على الدوام فوق رأسك وهى مزمعة أن تنزل فى كل لحظة . فلماذا لا تلتفت وتحترس لكى تضمن لنفسك الوسائل التى تخلصك منها إذا ما سقطت عليك ؟.

إذا قيل لك إن عدواً شديد البأس سيأتى بغتة للانتقام منك أما كنت تخافه وتسرع فى استدعاء أهلك وأصحابك ليقفوا معك حتى إذا فاجأك العدو ينصرونك عليه ويخلصونك منه ؟ فلماذا لا تخاف إذ تسمع أن ألد أعدائك وهو الموت (١ كو ١٥ : ٢٦) هاجم عليك فى كل حين لينفذ الحكم الالهى فيك ؟ هذا فضلاً عن أنك فى تلك الساعة التى يفاجئك فيها لا يقوى أخ أو صاحب على الوقوف

معك لمقابلته ، ولا تستطيع أن تطلب معونة أحد فهو يأتى لينازلك وحدك ولا يمكن أن يسندك حينئذ إلا استعدادك الحسن لمقابلته : قال الكتاب « طوبى للانسان الذى يسمع لى ساهراً كل يوم عند مصاريعى حافظاً قوائم أبوابى . لأنه من يجدنى يجد الحياة و ينال رضى من الرب » (أم ٨ : ٣٤ و ٣٥).

فلا تتصور أن هذا العدو بعيد منك أو أن زمان اقترابه لك لم يأت بعد حتى تنام وتتغافل بل قل فى نفسك ها أنى شرعت فى أمر فلعلى لا آتى الى آخره . وهأنذا أعود الى بيتى وأدخله فلعلى لا أخرج منه إلا محمولاً على أيدى من يشيعوننى الى القبر . وها قد اضطجعت على فراشى فربما لا أقوم منها مرة أخرى وها قد أغمضت عينى فربما لا أفتحها ثانية فى هذا العالم بل تفتحها يد اللحد فى القبر ليملأها ترابا . ها قد لبست ثيابى ولكنى لا أعلم هل أخلعها بيدى أو تخلعها يد أخرى . ها قد رفعت قدمى لأضعها عند خروجى من باب بيتى ولا أدرى هل أضع الأخرى على حافة البيت أم على حافة القبر ؟ فبذلك تتهيأ للاستعداد للموت وتكون كالمسافر الذى يكون على استعداد حتى إذا دق جرس القطار يكون مستعداً للسفر قال المخلص له المجد « لتكن أحقاؤكم ممنطقة وسرجكم موقدة . وأنتم مثل أناس ينتظرون سيدهم متى يرجع من العرس حتى إذا جاء وقرع يفتحون له للوقت . طوبى لأولئك العبيد الذين إذا جاء سيدهم يجدهم ساهرين . الحق أقول لكم أنه يتمنطق و يتكئهم و يتقدم ويخدمهم .. ولكن إن قال ذلك العبد فى قلبه . سيدى يبطئ قدومه فيبتدئ يضرب الغلمان والجوارى و يأكل و يشرب و يسكر . يأتى سيد ذلك العبد فى يوم لا ينتظره وفى ساعة لا يعرفها فيقطعه ويجعل نصيبه مع الخائنين » (لو ١٢ : ٣٥ ــ ٣٧ و ٤٥ و ٤٦) فكما أن اللابس الثوب الطويل بلا منطقة يكون غير متأهب لسفر أو مستعد لعمل ، هكذا المسيحى المرتبك فى الأمور الدنيوية فانه لا يكون مستعداً للسفر السماوى أو الخدمة الأبدية .

إن الكثيرين يهملون الاستعداد على أمل أنهم يستعدون عند الموت ومن أدرانا اننا لا نموت فجأة ؟ وهب أننا مرضنا طويلاً فهل توقن أيها الانسان أنك ستموت عقب ذلك المرض ؟ ألست دائماً تمنى نفسك بالشفاء مهما كان المرض شديداً ؟ ألا تجد حولك أهلك يطمئنونك بأن صحتك جيدة ألا تجد الطبيب يهدئ روعك قائلاً لك

« انك كل يوم تتقدم الى الشفاء ؟. ألا تجد من نفسك ميلاً لتصديق من يقول لك انك ستنال الشفاء أكثر من ميلك الى تصديق الفكر فيك بأنك ستموت ؟ و بعد ذلك ماذا يتم ؟ ها أنت تسلم الروح وترى بأن الذين هم حولك قد خدعوك . قبل هنيهة كانوا يعدونك بالشفاء ولكنهم كانوا كاذبين لأنك الآن تموت فكيف تستعد إذاً ، وأين الوقت الكافي لاستعدادك ؟.

قيل إن غزالاً أعور لا يبصر إلا بعين واحدة كان يطارده الصيادون و يتبعون أثره في كل مكان توجه اليه حتى لم يدعوه في أمن مطلقاً الى أن بلغ يوماً بقعة بجانب البحر فاطمأن ووقف يرعى محولاً عينه الصحيحة الى جهة البر حيث يخشى الصيادين ، وعينه التي لا تبصر الى جهة البحر . واتفق حينئذ مرور سفينة فأخذ أحد راكبيها سهماً ورماه في قلب الغزال فأصابه . أنه نجا من جهة البر حيث كان يخشى الموت ولكنه مات من جهة البحر حيث كان يرجو الحياة . كم من كثيرين حسبوا أنفسهم بعيدين عن خطر الموت والهلاك ولكنه أتاهم من حيث ظنوا الأمان .

فلا تفتكر فيما مضى من حياتك بل فيما بقي من عمرك . ولا تفتكر كيف تعيش حسناً بل كيف تموت حسناً . ورد في ميثولوجيات القدماء حكاية عن مغارة كبيرة فيها ٣٠٠٠ خباء بعضها داخل بعض متشعبة كثيراً ومتعرجة فإذا دخلها أحد لا يقدر على الخروج منها بل كل من يدخلها يموت فيها . فإذا حكموا على أحد بالدخول اليها دار متنقلاً من غرفة الى أخرى في الظلام الى أن ينتهي الى آخرها . فإذا قصد الرجوع لا يعلم أي الطرق يختار فيجئ في طريق ثم يدور و يرجع و يسير في غيرها وربما أحس بآثار دوسه فظنه قريباً من باب المغارة فيتبعه فإذا به يدوس عظام وجماجم الذين دخلوا قبله وهلكوا فيرتعب و يرتعد ولا يزال على هذه الحال الى أن يهلك جوعاً وتعباً وحسرة ويموت كمداً . فحدث أن حكم على شخص بالدخول الى هذه المغارة فأخذ معه كبة من الحرير الرقيق ، ربط طرفه بالباب ودخل وهو ممسك الكبة بيده ينشر الحرير عنها حتى إذا جاء آخر المغارة أخذ يلف الخيط على ركبته كما كان وهو يتبعه الى أن عاد الى حيث دخل بسلام ولم يضل

فى ظلماتها المدلهمة . فاحترس وانتبه وفكر فى كيف تخرج من العالم ، لا فى كيف تبقى ، لأن البقاء فيه غير مضمون ، أما الخروج منه فمؤكد ولا يختلف فيه اثنان .

فليس عليك إذاً إلا أن تستعد للموت بالإيمان العامل ، وذلك يقوم أولاً بترك الخطية التى أحبتها « ليترك الشرير طريقه ورجل الاثم أفكاره وليتب الى الرب فيرحمه والى الهنا لأنه يكثر الغفران » (اش ٥٥ : ٧) وثانياً بتقديم الأثمار الجيدة « وأما الآن إذ أعتقتم من الخطية وصرتم عبيداً لله فلكم ثمركم للقداسة والنهاية حياة أبدية » (رو ٦ : ٢٢).

وهنا نحذر الجميع مما يمكن أن يخدعوا به ذواتهم وأخص ذلك أمران :

الأمر الأول عملهم فقد يخدعون به لأنهم يظنونه حسناً وهو قبيح . كم من كثيرين يظنون أن أعمالهم الرديئة صالحة . وميل الانسان الى عدم نسبة أى شر اليه يجعله يتصور فى خطيته براً وفى إثمه صلاحاً . ألم يكن اليهود فى زمن المخلص يظنون أن كبرياءهم براً وفساد قلوبهم غيرة وسفاهتهم دفاعاً ! ولذلك قال لهم وأنتم الذين تبررون أنفسكم قدام الناس ولكن الله يعرف قلوبكم » (لو ١٦ : ١٥).

والأمر الثانى الذى ينخدع فيه الانسان هو ثوابه . فقد يتوهم بأن له ثواباً صالحاً وهو يذخر لنفسه غضباً ليوم الغضب . كم من كثيرين سيطرقون باب السماء كأنهم من أخص أهلها فيسمعون الصوت من داخل « لا أعرفكم ».

كثيرون يعيشون فى الخطية وإذا سألتهم أى نصيب لكم فى الآخرة يكون جوابهم « السماء » وميل الانسان الى وجوده فى أماكن السعادة يصعب عليه الاعتقاد أنه من أهل جهنم ولو كان خاطئاً . ولكن لكل مقدمة نتيجة ، ونتيجة الخطية الموت ، ونتيجة البر حياة . فإذا أردت أن تعرف أى مكان سيكون مقرك فى العالم الآتى . فلا تسأل أميالك ولا تسأل الشيطان الذى يحاول أن يخدر أعصابك

بالأوهام الفارغة . بل اسأل أعمالك . وعن أعمالك أسأل كتاب الله . فإذا كانت أعمالك تمدح من كتاب الله وبها يتمجد أسمه فإعلم إنك مستعد وأنك من أهل السماء .

استعد إذاً لدخول السماء بالقداسة التي بدونها لن يرى أحد الرب .

الفصل الثانى عشر
فى عبر الموت

« لأنه إن عاش الانسان سنين كثيرة فليفرح فيها كلها وليتذكر أيام الظلمة لأنها تكون كثيرة . كل ما يأتى باطل » (جا ١١ : ٨)

إن كثرة التفكير فى الموت تكبح جماح الانسان وترد مطامعه وتلجم شهواته ، و بقدر ما يتعمق الانسان فى التأمل فى الموت تكثر حكمته وتزداد فطنته . فبالموت ينتهى كل ما فى هذه الحياة الزائلة فإذا ما سعى الانسان جهده فى جمع الخيرات وتذخيرها وكان اسم الموت مكتوباً أمام عينيه اكتفى بحاجته ورجع وهو يهتف قائلاً وأما التقوى مع القناعة فهى تجارة عظيمة » (١ تى ٦ : ٦).

لقد اعتاد قوم من الفلاسفة أن يأكلوا و يشربوا فى جماجم الموتى لكى يكون ذكر الموت بادياً على الدوام أمام عيونهم . وبهذا كانوا يداوون كل شهوة عالمية . وقد ذكر مثل هذا عن كثير ين من الملوك والعظماء الذين اتخذوا ذكر الموت دواء لكبر يائهم الأرضية وحتى لا تغرهم العظمة على فعل ما لا يليق . فقد أمر الملك فيلبس المكدونى أحد خدامه بأن يكرر له كل صباح هذه الكلمات ثلاث مرات « أذكر يافيلبس أنك بشر وانك بالموت الذى لابد منه ستترك كل شئ » والملك مكسيمانوس الأول صنع نعشاً لنفسه قبل موته بأربع سنين وحيثما توجه كان يأخذه معه وذلك لكى يسمع على الدوام صوتاً يقول له بلسان حاله « أذكر أنك ستموت لا محالة وأنك ستفارق كل شئ ». لقد كان فلاسفة الهند المعروفون بالبراهمة يحفرون أمام بيوتهم قبوراً مفتوحة لكى يتذكروا الموت عند خروجهم ودخولهم على الدوام وذلك لأنهم كانوا يعلمون جيداً أن ذكر الموت يفيد جداً فى اصلاح السيرة .

وكثير من ملوك الشرق كان لهم من جملة اعلام غزتهم الملوكية كتاب من ذهب يحملونه باليد اليسرى القريبة من القلب اسمه «البر» وكان هذا الكتاب مملوءاً تراباً وغباراً وكانوا يشيرون به الى أن الانسان مائت . وكان من عادة الأحباش عند تتويج أحد ملوكهم أن يحملوا أمامه وعاء مملوءاً تراباً وجمجمة ميت . وقد وجد على مكتبة أحد الفلاسفة جمجمة كتبت عليها هذه الكلمات عن لسان الميت يخاطب بها كل من قرأها «كما أنت الآن قد كنت أنا أيضاً».

وقد أخذ أهل الصين عن فلاسفتهم قاعدة أجروها مجرى العادة الى اليوم في وجوب تذكر الموت في كل حين ، فإذا ولد الطفل عندهم صنعوا له نعشاً ووضعوه بجانب المهد يجددونه كل شهر على مقدار نمو جسم الطفل ولا يزالون يفعلون ذلك حتى إذا شب واشتد وضعوا النعش بجانب السرير الى أن يتم نمو الغلام فيبقى النعش بجانبه حتى يحل يوم أجله فيحمل فيه .

قال ابيكتيتوس الفيلسوف «فكروا في الموت دائماً لأن هذا الفكر يمنعكم من أن تفتكروا فكراً دنيئاً أو تفتكروا شيئاً بافراط الرغبة والشوق» وقال أفلاطون «انه بقدر ما يتعمق الانسان في التثبت بفكر الموت يكون ثبات حكمته» وقال أحد القديسين «كل من أراه الآن من حسان البشر وسائر الحيوان سيصبح جيفة تنفر منها العين وفريسة يعتريها الفساد والفناء . وكل ما أحدثه الآن سيصير تراباً ويمحى ذكره ويصير مأكلاً للدود . بالي الكفن فاني البدن ، عديم النفع . مجهول الأصل والفرع فإذا كانت هذه هي نهاية الانسان ؟ لماذا إذاً نراه يهرع خلف المال والجمال والمناصب ؟».

وحقاً فقد أمسى ذكر الموت عندنا من الأمور الهينة . فكم من التوابيت تمر بنا في كل ساعة ولا نتعظ . وكم من الموتى نشيع في كل آونة ولا نعتبر؟ أجل قد نسير وراء الراحلين من هذا العالم حتى مدافنهم وهناك نتأثر قليلاً . هناك عندما نرى آباءنا وأمهاتنا وأقرباءنا وأصدقاءنا الذين كانوا يأكلون و يشربون معنا قد استقروا في ذلك المكان الموحش وسكنوا القبور المخيفة تناديهم فلا نسمع منهم جواباً وندعوهم فلا يردون . حينذاك نقف أمام القبر معتبرين وتتلاشى من نفوسنا العظمة

والكبرياء والمجد .

الآن وقفنا نبكي وننتحب ونحن خائفون من الموت . غارقون في بحار من الأحزان . قد ملأ الرعب قلوبنا خوفاً من الحفرة الضيقة المظلمة التي نساق اليها مرغمين . الآن تضاءلت الحياة أمام أبصارنا . وملأ الوجل مكان الغرور فانصرف عنا . وتحققنا اننا لا محالة مائتون وتعهدنا أمام ضمائرنا مشهدين على أنفسنا سكان القبور أن نعمل عملاً صالحاً ينفعنا يوم نموت .

سمعنا الملحد يقول « قد أغلق باب القبر » و بدأ المشيعون ينصرفون وكلما خطونا بعيداً عن المقبرة قل البكاء . وكلما غابت عن مخيلتنا أشباح الأموات عدلنا عن الحزن والكآبة .

الآن دخلنا بين المنازل والحوانيت واختلط الرائح بالغادي . وغابت الأحداث عن عيوننا ونسينا ذلك الميت الذي بكيناه . عند ذلك ضحك العبوس المتصنع وابتسم الباكي المرائي ورجعت الغفلة الى القلوب وتناسينا الموت . الآن رجعنا الى الطمع والشره والحسد واحتقار المساكين والتهجم على الأعراض والتباهي بالألقاب والتفاخر بالمال . وهكذا نفعل في كل أدوار حياتنا . فإذا مرضنا أو فوجئنا بموت عزيز تنبهنا وتبنا . وإذا شفينا من المرض أو تقادم عهد الميت رجعنا الى سابق عهدنا حتى تدهمنا سكرة الموت وقد أغلق باب التوبة .

من غباوة الانسان وجهله أن يتخذ في كل منبت شعرة من جسمه حبل من الأمل يعلق به النفس بطول البقاء ويمحو من ذاكرته كل سبب يذكره بالفناء . يوجد من لا يرد له ذكر الموت على خاطر بل قد رسخ في ذهنه أن لا فناء مع البقاء ، ولا يحس بحقيقة الموت إلا إذا أصابه مرض أو مات له قريب أو صاحب ولكن عندما تطرأ عليه مشاغل الحياة يعود الى ذهوله الأول وعماه المستديم . وقد يظن أولئك الأغبياء أن في عدم ذكر الموت راحة ، مع إن هذه الساعات الوجيزة التي يتذكر الذاهل فيها الموت عند اشتداد المرض أو عند موت حبيب له يصيبه فيها من أنواع الجزع والفزع ما لا تقاس آلامه بآلام الحياة كلها ، و يكون هذا التذكر

لديه بمنزلة زلزال يهدم جميع ما بناه في رأسه من الآمال وما زخرفه من الأماني وربما أثر ذلك في أعضائه فيجعله يلحق بقريبه الى جوف القبر، فكم من الناس من يعمل على إبعاد ذكرى الموت عن فكره و يدأب في محو المذكرات به . فلا يمشي في جنازة ولا يحضر مأتماً ولا يزور مقبرة ولا يبصر آلة من آلات الدفن أو الكفن إلا ويهرب ببصره عنها . ومنهم من يهجر بيته إذا مات فيه ميت حتى لا تذكره جدرانه بخروج الميت منه . ولو أنك أهديت اليه صورة جمجمة من ذهب ليشع منها واستنكرها وسخط عليك لأنك أردت تذكيره بذلك الشر العظيم والأمر الفظيع . وإذا شاهد رجلاً ممن اعتادوا غسل الموتى هرب من رؤ ياه خوفاً من أن يتذكر ما كان يباشره من القيام بغسل الموتى أو يفتكر في أنه سيغسله هو يوماً .

أمثال هذا يعيشون في عمى القلب فيستطيع الشيطان أن يجرهم الى حبائله بكل سهولة . غير أننا نوصي من يريدون أن يعيشوا حسناً ومن يهتمون بخلاص نفوسهم أن يتأملوا دواماً في الموت ، فإن الذين يتأملون فيه يتصرفون حسناً في أعمالهم و يتحكمون جيداً في أفكارهم وأقوالهم إذ إن التفكر في الموت يبدد من المرء الأخلاق الرديئة و يفصل قلبه من التعلق بمحبة العالم كما قال أحد الأتقياء « إن التفكر في الموت يجعل الانسان لا يجد شيئاً في العالم يستحق المحبة » فخيرات العالم كلها قائمة في ملذات الحواس وفي التمتع والتعظيم ، فمن يفكر جيداً أنه بعد قليل من الزمن هو عتيد أن ينتهي و يوضع في اللحد تاركاً كل مجد وغنى ، فأنه يحتقر كل خيرات العالم وموجوداته .

حقاً إن كثيرين من الذين شغلوا عقولهم بذكر الموت في ابان الحياة استطاعوا أن يهذبوا من أنفسهم ما لم تهذبه العظات المؤثرة والتوعدات الرهيبة . وقد قال أحدهم عند وفاته « انى لكوني في مدة حياتي حفظت على الدوام أمام عيني الموت وجعلته حاضراً في عقلي فالآن عندما جاءني الموت لم يجد في شيئاً يمكنه أن يحزنني به » وقال آخر « إن ذكر الموت يبين أن مسرات العالم جميعها باطلة . فلو تصورت ذلك الكفن الحقير المزمع أن تلف به وذلك القبر الذي توضع فيه فلا ريب في أنك كنت تحتقر كل ما في العالم من غنى — وإذا ذكرت أنهم سيوارونك في التراب وتكون مداساً بالأقدام ومنسياً من الناس على الدوام

لأصبحت لديك كل أمجاد العالم ومراتبه كلا شئ ، وإذا تأملت ملياً فى الدود الحقير الذى يأكل لحمك وتصورت الحالة الشنيعة التى سيتحول اليها جسمك لكنت تطرح كل ملاذ الدنيا الحاضرة وأفراحها تحت قدميك .

إن السجين إذا نقل من سجن الى آخر لا ينبغى أن يعتبر نفسه وهو فى الطريق بين السجنين أنه حر طليق هكذا الانسان يؤخذ من التراب و يرد الى التراب ومدة وجوده فى هذا العالم هى المسافة التى بين البداية والنهاية . فلو عرف الانسان من أين أتى والى أين يذهب لأتضع . فهو أتى من التراب « لأنك تراب » و يذهب الى التراب « والى تراب تعود » (تك ٣ : ١٩) وبهذا الفكر استطاع ابراهيم أن يعالج نفسه حينما كان يخاطبه الله مخاطبة الصديق لصديقه فإنه لم يتعال و يتخذ من تنازل الله لمخاطبته سبباً للكبرياء بل أمعن فى احتقار ذاته وقال « انى قد شرعت أكلم المولى وأنا تراب ورماد » (تك ١٨ : ٢٧).

إن أحسن دواء نعالج به غرورنا هو أن نعتبر الموت ملازماً لنا ونقيم معه دائة ونفكر فيه حينما نعزم على القيام بأى عمل من الأعمال فلا يوجد فى العالم من يقضى حسناً و يشير بالتوفيق والحكمة كالموت . ولا يوجد واحد منا إلا وشاهد كثيرين يموتون ، منا من دفن أحد أبويه ومنا من دفن زوجته ومنا من دفن أحد أولاده ومن دفن أخاه أو أخته أو صاحبه . ألا تتذكر حينئذ كيف كانت أفكارنا حسنة و بأى شئ كنا نسر ولأى شئ كنا نحزن . وكيف اختلفت أحكامنا عما كنا نحكم به ونحن فى غفلتنا . كيف أصبحنا نقدر الفضيلة ونعتبر الصلاح ونمدح ونطوب القداسة والكمال ونزدرى بالانهماك فى العالم ونحتقر الانشغال بأمجاده والسعى وراء ملاذه . حقاً اننا حينئذ ندمنا على كل خطية ارتكبناها وفرحنا لكل حسنة أتيناها . كم حزناً لأننا كنا نطلق للنظر الشهوانى العنان وهذا الميت قد أصبح مغلوق النظر — كم تألمنا لأننا أنكرنا خالقنا وتعبنا فى سبيل جمع أشياء كثيرة . وهذا الميت أمامنا لم يأخذ معه شيئاً مما جمع . فما أحسن ذكر الموت .

لندم النظر إذاً الى صورة الموت ولنتصوره على الدوام . أعتقد أن ذلك اليوم الذى يوافيك فيه قد أقترب . أعتقد جيداً أن القبر هو مثواك ومقرك ، فماذا يكون

أمرك إذاً مع هذه الفانيات التي تهتم بها ؟ فالأجدر بك أن تضحك عليها وتهزأ بها لأنه ما الفائدة أن تجاهد حتى تصبح غنياً ثم تلقى في القبر مجرداً من كل شئ مدفوعاً الى الفساد والفناء . يالشقاوة أولئك الذين يطوفون البر والبحر طلباً للدراهم والدنانير وهم لا يعلمون متى يلجون القبور الضيقة الكريهة حيث يكون مسكنهم في الظلام الى الأبد .

لو أن محبي الرياسة وطالبي النفوذ والسلطان ينظرون للحال الذي صار اليه من تقدمهم لكبح ذلك جماح شهواتهم ولتنبهت نفوسهم وتقومت تصرفاتهم وخمدت نيران شوقهم للدنيا . ياليت هذا الفكر لا يبرح من بال أحد لكي يعيش الجميع بطهارة ضمير و يشعرون بشدة مرارة الدنيا و يلفظونها وخيراتها لفظ النواة . قال أحدهم « كما أن الماء يزيل أوساخ الثياب وأقذارها هكذا ذكر الموت يزيل عن القلب صدأ محبة هذه الدنيا » قل لمن سار منهمكاً مريداً أن يجمع ذهب العالم كله الى حوزته « الموت الموت ! » قل لطالب الغنى « الأغنياء يموتون » قل لعاشق العظمة « العظماء يموتون » قل لمحب الشهوات . إن من سبقك في هذه الطريق مات . قل للمولع بجمال هذه المرأة : تمثل هيئتها بعد أن يستولي عليها الموت ! ليت الناس يذكرون ذلك فتقف مطامعهم عند حدها .

تصور أيها الغافل أن أمامك قبراً سوف تستقر في جوفه . فعليك أن تعمل كل ما هو صالح لترافقك أعمالك الى الحياة الأبدية . قال أحد الأفاضل جرت العادة أنه إذا ما أريد إدخال جواد في حلبة ميدان السبق أن يمرن أولاً على السير في ذلك الميدان ليختبر أرضه جيداً حتى لا يصيبه وقت السباق أذى . وأنت على هذا المثال إن أردت أن تسير في طريق الموت مطمئناً فعليك أن تختبره جيداً وتطلع على أحواله ما دمت في الحياة ، وقبل مماتك تفرس في الموت وأختبر الأرض التي أنت مزمع أن تعود اليها . وقد يليق بك في حال مسيرك في اضطرابات الحياة أن تعمل كما يعمل ربان السفينة الذي يجلس في مؤخرها و يديرها ، هكذا أجلس أنت في مؤخر سفينة هذه الحياة مفكراً في الموت و بذلك تدبر حياتك حسناً . وكما أن المسجونين الذين حان وقت اطلاق سراحهم يكونون وقوفاً بباب السجن في انتظار ساعة

الخروج منه هكذا ينبغي لك أن تحصر فكرك وذهنك وعقلك في باب الموت الذي أنت مزمع أن تمر منه ، وكما أن الرماد يحفظ النار من الانطفاء هكذا ذكر الموت فانه يحفظ التقوى و يصونها .

فإن فكرت في ظلمة الموت قبل مجيئها تنتصر على الموت قبل حلوله لأنك تكون مستعداً لمقابلته ، فإن أهل نينوى لما سمعوا بحكم الموت عليهم رجعوا وتابوا الى الله ونجوا من مرارته ، هكذا أنت متى كنت مثابراً على ذكر الموت فلا تفاجأ إذا أتى ينفذ حكمه عليك .

الموت مرآة حياة الانسان فإذا كانت حياتك شريرة فموتك شرير وإذا كانت صالحة فموتك صالح . فإذا أردت أن تحول مرارة الموت الى حلاوة فأذكره كل يوم .

قال القديس أنطونيوس وهو يخرج أنفاسه الأخيرة لتلميذيه مكاريوس وأماتاس «عيشا كأنكما مزمعان أن تموتا كل يوم . فإذا هاجت فيك محبة العالم فأذكر أنه يمضي وشهوته . وإذا ثارت فيك الآمال للمجد الدنيوي فأذكر ساعة الرحيل . وإذا آنست في نفسك جنوحاً الى الكبرياء فسلها « لماذا وعلام يتكبر التراب والرماد ؟» وهكذا أذكر الموت إذا أراد الشيطان أن يجربك . أذكره عندما يميل بك الحقد الى الانتقام . اذكره عندما يحول الكسل بينك و بين الذهاب لسماع كلام الله . فكر فيه عند نومك وعند يقظتك ، تصوره إذا أتتك اهانة أو لحقت بك تهمة . ارسمه أمام عينيك عند كل تجربة . فكل ذلك يصدك عن الوقوع في الخطية ، وعدم الوقوع في الخطية هو التأهب لاستقبال الموت . وهذا يجعل خاتمتنا سهلة ونهايتنا فرحاً أبدياً .

الفصل الثالث عشر
فى عبرة زيارة المدافن

« الذهاب الى بيت النوح خير من الذهاب الى بيت الوليمة لأن ذاك نهاية كل انسان والحى يضعه فى قلبه ». (جا ٧ : ٢)

يقيم الناس النصب والتماثيل للمشاهير والعظماء ولكن هذه التماثيل لا تمثل الحقائق بل الفانيات لأنه بينما يكون التمثال قائماً يكون الممثل به ثاوياً فى جوف الثرى . يصور الناس صوراً شتى لمختلف الأشياء ولكنها صور الزائلات . فبينما ترى صورة الزهرة فتبتهج تجد الزهرة ذابلة ومنثورة ؟ أما تمثال الموت « القبر » فهو صورة لحقيقة لا تفنى ، صورة لذلك الجبار الذى يجول العالم كله دون أن يضعف أو يكل .

ما أكثر تعطش الناس للذهاب الى البساتين والمتنزهات ومنتديات اللهو واللعب وما أعظم زهدهم فى التوجه الى الاماكن التى سوف ينتهون اليها و يرقدون فيها الرقدة الأخيرة فهم أشبه بأطفال يصرخون طالبين الجمرة ، والحلوى بأيديهم . فخير للانسان أن يزدرى بكل ملهى أو محل سرور لأنها ونظائرهما جمرات للنفس ، ومن الحكمة أن يقضى المرء أوقاته حيث توجد أجداث الراحلين الذين سيلحقهم يتخذ له منهم عبراً ودروساً يتمكن بها من السير فى الحياة بعقل وفطنة . فإن رؤية القبور تلاشى الكبرياء والعظمة ، وتبدد الميل الى الشر ، وتذهب بكل إثم راسب فى أعماق القلب . قال الحكيم « الحزن خير من الضحك لأنه بكآبة الوجه يصلح القلب » (جا ٧ : ٣).

حقيقتان واضحتان فى تاريخ الانسان بالواحدة منها يبتدئ و بالأخرى ينتهى وهما « الولادة والموت » وإذا راق لنا أن نقف حين الولادة بجانب سرير الطفل نهزه

بغبطة وابتهاج وجب علينا أيضاً أن نقف أمام القبر لندرك الحقيقة الثانية كما أدركنا الأولى وحق لنا أن نقرن كلمة الولادة بكلمة الموت وحتى لا ينسينا السرور بالوجود في هذا العالم الحزن بالخروج منه . فيوم الولادة و يوم الوفاة أمران متلاصقان وحبلان متصلان والانسان يمشي في الدنيا كأنه عابر في الطريق ، عن يمينه الموت وعن شماله الحياة ، وانه كما يدب بنموه في الحياة يدب بأنفاسه نحو الممات في آن واحد ، ولابد للعاقل أن يحضره ذكر الموت كما يحضره ذكر الحياة وأن اليقين في أعواد النعش والشك في أعمدة القصر .

قال أحد القديسين « إن السفينة لا تسافر إلا في الوقت الملائم فتنشر قلوعها وتأخذ في المسير بين فرح ركابها وابتهاجهم ولكن متى صدمها صخر تحولت الأفراح الى أحزان . كذلك وقت ميلاد الانسان يكون فرح جزيل للأهل والأقرباء والأصدقاء ولكن يجب أن نعلم أن هذا المولود سيموت يوماً فينقلب الضحك الى بكاء و يتغير الفرح حزناً ».

والحزن عند ذكر الموت أفيد من السرور عند ذكر الميلاد لأن الطرب يخلف فينا الأمل الكاذب والأمل الكاذب يسبب انغماسات في الشهوات . أما الحزن فانه يولد العبرة والعبرة تجعلنا نستعد ليوم الرحيل بانتباه تام . ولكننا أهملنا أن نذكر أننا سنرحل وحصرنا كل أفكارنا في البقاء والوجود ، وصح في ذلك قول لارشفوكو « شيئان لا يستطيع الانسان أن يحدق ببصره فيهما الشمس والموت » فلا نبتهج لأن مجدنا ابتدأ بل علينا أن نذكر يوم انتهائه .

الانسان جسد وروح ، فالجسد ينزع الى الشر ، والروح الى الخير . والجسد شديد الالحاح على الانسان ليرضيه فلا يمكنك أن تكبح جماحه وترد مطامعه إلا إذا أخذته الى حيث يقيم الأولون وتقول له « كم من هؤلاء أرضوك فأذللتهم ولبوا نداءك فأهنتهم وهم اليوم في مضاجعهم لا يشعرون بلذة ولا يدرون ابتهاجاً ».

قال القديس يوحنا ذهبي الفم « إن كثيرين يبنون المدافن والأرمس تجاه المدن والقرى لتكون عبرة لهم ، كلما ينظرون اليها يتحققون من ضعف طبيعتهم

وزوالها . ولذا ينبغي أن نسمي القبور « مدرسة التواضع » حتى إذا أراد أحد أن يمضي الى مدينة عظيمة ليتخذ له فيها مركزاً سامياً أو رتبة عالية . فإنه قبل أن يلج المدينة لينال فيها ما يبتغي يجد على أبوابها القبور والمدافن ومملوءة جثثاً وعظام أموات مفعمة دوداً ونتانة فتنكسر حدة مطامعه و يرجع عن كبريائه ».

إن زينون الفيلسوف لما أراد أن يجد واسطة فعالة مؤثرة لتهذيب حياته وضبط حركاته الحسية كان يذهب كل يوم ويمكث بين القبور مدة يرجع بعدها صاحياً عاقلاً : ولما سئل عن سبب ذلك قال « لأني لما أرى وأتأمل حال الأموات الذين عدموا كل ما كان لهم بزوال حياتهم فاني استخف بالخيرات الزائلة وأحبس بنفسي عن الافتخار بها ».

والقديس مكاريوس المصري الكبير جاءه ذات يوم أخ قائلاً يامعلم قل لي كلمة أتعظ بها . فقال له امض الى القبور واشتم الموتى الذين فيها . فمضى الأخ وشتمهم ورجمهم بالحجارة وعاد فأخبر القديس بما حصل فقال له أما خاطبك أحد بشئ ؟ فقال : لا . فقال امض غداً وامدحهم . فمضى الأخ ومدحهم قائلاً ياقديسون أنتم أبرار وأطهار . وظل هكذا دون أن يسمع مجيباً وعاد فأخبر الشيخ فقال له هل أجابك أحد بشئ ؟ فقال لا . فقال له الشيخ « إن كنت حقاً قد مت عن العالم مع المسيح ودفنت معه فاصنع هكذا لأن الميت لا يحس بكرامة أو باهانة وهكذا تستطيع أن تخلص ».

وإذا أردنا أن ندرك مقدار التأثير الحسن الذي تخلقه فينا زيارة المدافن فعلينا أن نتذكر كيف نكون مكتئبين ونحن ذاهبون اليها بأقدام تتلوى وقلوبنا تشعر بالخوف كأننا منطلقون الى مكان الاعدام . ولنتخيل مع ذلك السرور الذي يملأنا عندما نعلم أننا ذاهبون الى مكان اجتمعت فيه أسباب اللهو والسرور . فنحن نخشى أن نرى ضريحاً خشية الحزن ولو كان نافعاً ونحب مواضع اللذة والسرور ولو كانت مضرة ، مع أن الحكيم يقول : « سمع الانتهار من الحكيم خير للانسان من سمع غناء الجهال » (جا ٧ : ٥) والسيد المسيح يقول : « طوبى للحزانى لأنهم يتعزون » (مت ٥ : ٤) وقال أيضا « أنتم ستحزنون ولكن حزنكم سيتحول الى فرح »

(يو١٦ : ٢٠) وقال الكتاب عمن يفضلون فرح العالم « واحول أعيادكم نوحاً وجميع أغانيكم مراثى » (عا ٨ : ١٠).

فهناك فى المضاجع الأخيرة نشاهد سكوناً عميقاً وصمتاً بليغاً لا جلبة ولا صياح ولا ضحك ولا أنين ، وقد كان بين الراقدين من ازعجوا العالم بأصواتهم العالية ومن كان ضحكهم يقرع الآذان ، ومن كان أنينهم يقطع نياط القلوب ولكنهم جميعاً صمتوا عندما علموا أنهم كما أتوا الى العالم غرباء رحلوا عنه غرباء أيضاً . تشرق الشمس وتغرب وتتجمع السحب وتتبدد وتتعرى الأشجار عن أوراقها ثم تعود مخضرة والأموات لا يدرون بشئ من ذلك كله . تأملوا جيداً فى تلك القبور كم طوت من أدب وعلم وعظمة وحكمة . كم وارت من همم عالية وآمال كبيرة ، وكم ذوت تحت ترابها من أجسام نضرة و بسمات عذبة وعيون ساحرة .

ايه أيها الأموات : ما بالكم ترقدون ولا تقومون ، تنامون ولا تستيقظون . ما بالكم لا ترجعون الى أوطان لم يكن يطيب لكم البعد عنها ليلة واحدة ؟ فكيف بكم وقد ابتعدتم عنها السنين الطوال ! أين أرجلكم التى كانت تقفز كالأيائل ! فلا نسمات الصباح الباردة ولا تغريد الطيور الصادحة ولا صياح الديكة ولا رنين الأجراس ولا هتاف الرعاة يوقظكم من رقدتكم . هذا صوت الطرب الذى كانت تعشقه آذانكم وهذا وجه الفتاة الجميلة التى كانت تحب التطلع اليه عيونكم . ها محلات الرقص والخلاعة استوحشتكم وأماكن السرور واللهو قد خلت منكم وتدعوكم . ما بالكم لم تهتموا بهذا الخبر وقد كان أحب الأخبار لديكم . آه أنكم ما أصبحتم تهملون تلك الأمور إلا لأنكم فقدتم تلك القوة التى كنتم تقوون بها عليها !

فلنحدق بأبصارنا فى كل قبر من تلك القبور عند ذلك تتمثل لنا ذنوبنا وتلوح أمامنا خطايانا : وكلما نذكر ذنباً جديداً يزيد ارتعابنا حتى نشعر بأن الخطية الواحدة أثقل على أعناقنا من جبل عظيم بعد أن كانت كل خطايانا كلا شئ أمامنا . لننظر جيداً فنتصور كأن كل قبر من تلك القبور قد وقف أمامنا خطيباً ليبين لنا بفصاحة يعجز عنها أبلغ الخطباء مقدار الجهل والغرور السائدين علينا لأننا ملنا للعالم وأحببناه ، ثم مقدار الخطأ والتهور لأننا سمحنا لأجسادنا الفانية أن تنتصر على

أرواحنا الخالدة .

كأننا نسمع تلك الأصوات المنبعثة من جوف القبور قد تعالت حتى وصلت الى الجو فضاقت قدرة خطبائنا ومرشدينا لأن هؤلاء يخشون أن يثبتوا للعظماء فساد عظمتهم ولذوى الأمجاد بطلان مجدهم أما أولئك فلهم بسالة فى النصح وشجاعة فى الانذار لو كانت تصل قلوب ملوك العالم لصعقوا فى قصورهم من الوجل .

أسمعهم يقولون : أما زلتم تذكرون مجداً وعظمة وملكاً ! وما علة شقائكم إلا المجد والعظمة والملك ؟ مضمحل ذلك المجد . حقيرة تلك العظمة . زائل ذلك الملك . « باطل الأباطيل الكل باطل » (جا ١ : ٢) مجد كالزهر وعظمة كالتراب وملك كالعشب جميعاً تذروها الرياح و يكفى لملاشاتها من الزمن ما بين المساء والصباح . تأملوا هنا هل ترون فرقاً بين عظيم وحقير، ملك وعبد ، غنى وفقير . قد انتهى أمر التفاضل بينهم وتساوى الجميل بالشنيع والشيخ بالشاب ومن تمتع بالملذات بمن لم يتمتع بها .

تعالوا هنا أيها المخدوعون بالحياة اقتربوا أيها المتكبرون المتشامخون . تعالوا لتعرفوا مقدار غروركم وعظيم جهلكم . فهنا تنتهى آمالكم وهنا يذل تشامخكم وهنا يحل بكم الفقر المدقع وهنا يختفى كل مجد لكم وتغيب جميع ابتساماتكم و ينطفئ مجالكم « قلت للمفتخرين لا تفتخروا وللاشرار لا ترفعوا قرناً . لا ترفعوا الى العلى قرنكم ... ولكن الله هو القاضى . هذا يضعه وهذا يرفعه » (مز ٧٥ : ٤ و ٥ و ٧).

فليقف فوق رمال هذه القبور المبعثرة وعلى جوانبها المنهدمة المتساقطة أرباب المطامع فى الحياة وطلاب العظمة خاشعين مستكينين خافضى رؤوسهم إجلالاً واكباراً ويمسكوا قليلاً عن التدلل بعزهم وجاههم والتفاخر بفضتهم وذهبهم وليخفوا فى أعماق نفوسهم ابتسامات الهزء والسخرية المترقرقة على شفاههم وليعلموا أن طريق المجد والعظمة التى يسيرون فيها وان كانت مخضرة جميلة مفروشة بالأعشاب محفوفة بالأزهار الأريجية إلا أنها تؤدى فى نهايتها الى هذا المصير الذى صار اليه المقبورون .

تعالوا أيها الأحياء وقولوا لنا بماذا تفتخرون ؟ هوذا الأموات يتكلمون فاسمعوهم لأنهم عرفوا ما لم تعرفوا أنتم واختبروا ما لم تختبروا . هاهم يسألونكم . بماذا تفتخرون علينا ؟.

أبجمالكم ؟ عما قليل سيتحول الى شناعة ليتكم فقدتم هذا الجمال الغشاش الذى جركم الى الاثم . جمال يظهر اليوم ويختفى غداً أنه لجمال باطل .

أبنظركم ؟ ماذا تنظرون ؟ أليست الشرور والآثام ؟ ليته ما كان لكم نظر وما كنتم تطلعتم به الى الخطية التى أهلكتكم . عيون تنظر اليوم وتكف غداً لا يحق الافتخار بها .

أبسمعكم . ماذا تسمعون ؟ أليس صياح المستهزئين وتجديف الخطاة وتملق الأشرار ؟ ليته لم تكن لكم آذان لتسمعوا بها ما يضركم و ينتهى بكم الى الويل . آذان تسمع وتصم غداً لا يصح التباهى بها .

أبمنطقكم ؟ بماذا تتكلمون ؟ أليس كلاماً ملؤه الافتخار والخداع والسب والوقيعة . ليته لم تكن لكم ألسنة تتكلمون بها ما ستحاسبون عن كل حرف منه (مت ١٢ : ٣٦) لسان يتحرك اليوم ويخرس غداً لا ينبغى التطاول به .

بماذا تفتخرون علينا ؟ أبقدرتكم على التنقل من مكان لآخر ؟ مهلاً . ستخلدون الى الخمول . وستفقدون قوة الحركة مثلنا . أبالغنى والجاه والمجد ؟ ستعدمون كل ذلك كما عدمنا قبلكم . أبسكنى القصور ؟ القبور متأهبة لاستقبالكم . أباللباس البهى ؟ ستحرق كل حللكم وتتزرون بكفن كما اتزرنا . أبالمضاجع الوثيرة الناعمة التى تضطجعون عليها ؟ لابد من افتراش الحصى كما افترشناه نحن . أبالروائح الزكية التى تنبعث من ثيابكم ؟ ستخرج منكم يوماً عفونة زائدة ينفر منها محبوكم كما حدث معنا . فما من كان قبلاً يتطيب واليوم ينقل الريح نتانته الى أنوف محبيه . أبعلو مراكزكم ؟ سيذلكم الزمان . أبارتفاع كراسيكم ؟ لابد لكم من أن تدرجوا فى أعماق الأرض .

فلا تفتخروا علينا إذاً فأنتم ونحن أشبه برجلين محكوم عليهما بالاعدام ، نفذ الحكم فى أحدهما وسينفذ بعده فى الآخر فلا ينبغى للثانى أن يفتخر على الأول إذ سيجرى عليه تماماً ما جرى على صاحبه وسيلحق به عما قليل .

كم منا كانوا مثلكم ! ألم يكن فينا العظماء وأصحاب الجاه والفصحاء وذو و الوجوه الحسنة ؟ و بالأمس فقط كنا مثلكم نفكر فى لذة نتمتع بها ومال نكسبه ، وليال فى اللهو نقضيها ، فدهمنا الحمام وسلبنا كل موجود ومأمول فلم يبق ولم يذر . فدعوا عنكم الغرور واستعدوا للقاء ربكم بالايمان الصحيح والعمل الصالح فهما وحدهما ينفعانكم يوم يحل بكل ما حل بنا .

قال أحدهم تحت عنوان « عند منازل الأموات » : حينما أنظر الى مقابر العظماء تموت عاطفة الحسد فى قلبى . وحينما اقرأ أسماء أولئك الذين ذهبوا تتلاشى أمام عينى كل مظاهر العالم الفاتنة وتبدو مكانها النهاية المحزنة ».

اعتاد الكثيرون أن ينقشوا أسماء أمواتهم على صفحات قبورهم فلو قرأت تلك الأسماء لزدت احتقاراً لهذه الحياة وازدراء لهذه الدنيا . قيل ان دوميتيانوس قيصر إذ شعر بأن رجاله يضمرون له شراً دعاهم الى مأدبة بقصره وادخلهم الى غرفة مظلمة عليها شارات الحداد وفيها مصباح ضعيف الضياء ووضع فى وسطها نعشاً بدلاً من الخوان ، وآلات تعذيب وقتل عوضاً عن الاطباق والملاعق ، وأوانى مما يحفظ فيها رماد الأموات فى مكان أقداح الشراب وكتب على كل أناء من أوانى الرماد اسم واحد من المدعو ين بحروف سوداء . ولم يكن هناك سوى بعض من العبيد يشخصون أفظع الميتات وموسيقى تعزف بألحان محزنة تذيب القلب كمداً . فأى خوف وجزع وهلع ملك حينئذ قلوب أولئك الرجال . انهم عندما أمرهم القيصر بعودتهم الى منازلهم لم يصدقوا بالنجاة بعد أن شاهدوا الموت أمام أعينهم وأدركوا أن الملك قد مثل أمامهم صورة العذاب الذى تستحقه خيانتهم وهو الموت الزؤام فعاشوا ما بقى من الحياة محترسين مما يؤدى بهم الى ذلك المصير المشؤوم .

تعالوا نتأمل فى تلك الحكمة علها تبدد ما تسلط على قلوبنا من الأوهام ولنفحص ما كتب على ظاهر المدافن فماذا نرى ؟ هذا قبر كتب عليه اسم ملك

وتاريخ ملكه و يوم موته . لتتجل بخاطرنا عظمة ذلك الملك وجلال حضرته ، وكيف كان الألوف تحت أمره ، وكيف كان يزين التاج رأسه والذهب الوهاج يلمع على صدره وكيف كانت كلمة واحدة منه ترفع ، وكلمة واحدة منه تذل ، وكيف كان الجميع يطلبون رضاه و يتمسحون بأعتابه ، ولنجزع إذاً عندما نذكر تلك الضجعة الذليلة التى انتهى اليها بعدئذ ذلك الملك العظيم والمجد الفخيم .

وهذا قبر آخر . ماذا كتب عليه ؟ اسم ثرى عظيم اقتنى ثروة لا عد لها . فلنذكر كيف واصل ليله بنهاره فى جمع المال وكيف حرم نفسه لذة الراحة والنوم فى سبيل كنزه وتدخيره ، وكيف عادى الناس وظلمهم وكيف استلب حقوق الأرامل والأيتام ليرضى طمعه الذى لا يشبع . ولننظر كيف ترك كل ما جاهد فى جمعه ورضى بقيد ذراعيه بعد أن كانت الدنيا على سعتها ضيقة أمامه . أنظر كيف خرج من العالم بدون شئ كما دخل اليه بدون شئ وكيف دخل القبر عرياناً كما خرج من بطن أمه عرياناً (أى ١ : ٢١) كان لووهب ذهب العالم كله لا يعرف للقناعة معنى والآن تراه يترك ما ناله بتعبه وجهاده ليتمتع به من لم يتعب فيه . ذخر ذخائر ولا يدرى من يضمها . (مز ٣٩ : ٦).

وهذا قبر آخر . كتب عليه اسم واحد ممن اشتهروا بمحبة الشهوات . لنتخيل كيف كان يسعى وراء ارضاء شهواته . وكيف كان يختفى عن عيون الناس ليبلغ وطره وإذا به الآن قد فقد كل ميل للشهوات وكل رغبة فى اللذة ، وما عاد يشعر بالخطية التى اقترفها ولا بالاثم الذى ارتكبه ، ولم يبق لها من الأثر إلا ما يلطخ سمعته و يدنس صيته ويجلب عليه اللعنة والعار .

وهنا قبر آخر يجمع العظام النخرة البالية التى بقيت من ذلك الهيكل الانسانى البديع . هنا وجه لامرأة كانت ذات جمال رائع وذلك الوجه كان من أيام قلائل يسبى القلوب و يستهوى الأفئدة بجماله الجذاب ، وذلك الفم الأرجوانى الذى كان يبتسم فيخلب الألباب ، قد تحول كل ذلك الى شكل يخيف من يراه و يزعج من ينظر اليه . لقد تحولت الابتسامة الحلوة الى عبوسة دائمة .

تأمل . هنا قبر مراب سلب كثيرين أموالهم بما أخذه منهم من الربا الفاحش ثم مات دون أن يرد المسلوب وترك أمواله لبنيه فأنفقوها في وقت قصير في الملاهي والمنكرات . وهناك رمس حقير يجمع عظام رجل كان يعاقر المسكر فمات وهو سكران . و بالجملة تجد هذه القبور المتجاورة تجمع رفات شيوخ وشبان ورجال ونساء وأطفال وعظماء وأقوياء وعلماء وأغنياء وفقراء وجهلاء وأشقياء ، لأن الكل تحت سلطان الموت على حد سواء .

أتريد أن تتعلم أكثر . تعال واكشف هذا القبر لترجثة انسان كنت تعرفه كبيراً عظيماً جباراً عنيداً يرفع يده بشدة و يتكلم بقوة . ها قد ضعف . أنظر اليه وقد تحولت عظمته الى هوان ، وقوته الى ضعف ، وصوته الى خرس . تأمل هذا اللسان . كم مرة تكلم بالشر وكم دفعة تفوه بألفاظ العجب والكبرياء . كم من لسان فصيح كان إذا تكلم صمت الناس أصبح الآن طعام حشرة حقيرة . وهذه اليد كم مرة ارتفعت للضرب وكم مرة أهانت البائسين وكم مرة صفعت الوجوه وقبضت الدنانير ولكنك تراها الآن هادئة كم يد هنا يأكلها الدود وكانت إذا ارتفعت خضعت لها الرؤوس . كم من رأس أكلها الفساد كانت لا تسمح لرأس أخرى أن ترتفع أمامهم . وهذه العين كم مرة نظرت الشر . كم من عين كالتي قال عنها الحكيم « لا تشبع من النظر » (جا ١ : ٨) ملأها التراب وسكن فيها الدود .

كم من كثيرين من هؤلاء أذلوا الناس فأذلهم الموت . وظلموا الغير فظلمهم القبر . وأهانوا الآخرين فأهانهم البلى . كم من كثيرين منهم اشتدت آمالهم وعظمت مطامعهم . سلبهم الآن عما في قلوبهم من آمال وفيما يطمعون . لا آمال ولا مطامع . خابت الآمال وذهبت المطامع .

لما وقف الفلاسفة يؤبنون اسكندر الأكبر قال أحدهم « قد كنا أيها الشخص بالأمس نصغي للاستماع منك ولا نقدر على القول فهل تسمع الآن ما نقول » وقال آخر « يامن كان في غضبه الموت لم لم تغضب على الموت » وقال آخر « عهدي بك وأنت تمسني نفسك في امتلاك أرحب البلاد فكيف صبرت الآن على ضيق هذا

المكان ».

فهما قد رأيت المتكبر ساقطاً والعظيم حقيراً والفصيح فهيماً فقل أذن لمن على شاكلتهم انك الآن رأيت الذين كانوا مثلهم قد فقدوا ما يتباهون هم به اليوم . قل لهم أيها التراب علام هذا التشامخ وقد جئتم من التراب وستصيرون الى التراب .

بعد ذلك ماذا ترون فى الدنيا يامحبيها . الدنيا التى أنتم تعتبرونها وتعظمونها . ألم تصغر أمام عيونكم . ألم تصبح قيمتها أمامكم كذرة رماد صغيرة . أليس لكم الآن أن تفضلوا الحزن الذى يحسب مشيئة الله الذى ينشئ توبة لخلاص بلا ندامة على فرح العالم الذى يسمع كل محب له وقول السيد المسيح « و يل لكم أيها الضاحكون الآن لأنكم ستحزنون وتبكون » (لو٦ : ٢٥).

فباطلاً إذا نجرى وراء السرور فى هذا العالم . إن زهرة الحياة لا تنبت إلا فى التربة التى نبتت فيها أشواك الموت . هكذا لا نستطيع أن نكتسب لأنفسنا عظة تردنا عما نساق اليه بقوة شهواتنا البدنية إلا إذا تأملنا جيداً فى ما صار اليه أسلافنا .

ولكن بينما نرى أولئك الراحلين يعلنون بفصاحة تلك الانذارات نتأمل بين الأحياء فنرى الشرير مكباً على شره والغنى ساعياً لجمع ماله وعاشق المجد يطلبه بشدة وهم لا يدرون ماذا يتم لهم فى مساء هذا اليوم أوفى صباح الغد . وما أحسن ما قاله بوب الشاعر الانكليزى فى هذا الصدد « إن الحمل الصغير يمرح و يلعب قبل أن يذبح بدقيقة واحدة وربما لحس بلسانه اليد التى ستمتد لتريق دماءه هكذا نحن لا نعرف شيئاً مما ينتظرنا بعد لحظة واحدة ».

ولهذا يقول الحكيم « قلب الحكماء فى بيت النوح وقلب الجهال فى بيت الفرح » (جا ٧ : ٤).

الفصل الرابع عشر
فى عبرة الأبدية

« وأيضا جعل الأبدية فى قلبهم التى بلاها لا يدرك الانسان العمل الذى يعمله الله من البداية الى النهاية» (جا ٣ : ١١).

حياة الانسان لا تنتهى بالموت بل تعقبها حياة أبدية كما صرح الرسول بولس قائلاً « لذلك نحترس أيضاً مستوطنين كنا أو متغربين أن نكون مرضيين عنده . لأنه لابد أننا جميعاً نظهر أمام كرسى المسيح لينال كل واحد ما كان بالجسد بحسب ما صنع خيراً كان أم شراً » (٢ كو ٥ : ٩ ، ١٠) ولقد قال أيضاً أحد الأفاضل . « انى كل مرة أتأمل فى يوم الدينونة أرتعد مرتجفاً . ودائماً أسمع ذلك البوق الأخير صارخاً فى أذنى وهاتفاً : أيها الأموات قوموا واستعدوا للدينونة ».

فيجب علينا إذاً أن نفتكر دوما فى الأبدية لأن ذكرها يورث القديسين فرحاً وابتهاجاً ، والخطاة خوفاً وارتجافاً ، وكلا الفريقين يجنى من هذا التأمل نفعاً بليغاً . فهلم بنا إذاً نتأمل فى صورة الأبدية ونحدق فيها ببصرنا حتى إذا كنا على صلاح زدنا فيه نشاطاً ونمواً وإذا كنا على شر خشينا عاقبته وعدلنا عنه . قال القديس أوغسطينوس « إن كثر عليك التعب فاذكر الجزاء » وكان أحد المؤمنين يتشجع فى ضيقاته لأنه كان دائماً يقول لنفسه « انى أتعب لأجل السماء ».

نرى فى كلمة الله أن نبياً من أنبياء العلى لما أهمل ذكر الأبدية أوشك أن يزل و يسقط ولكن لما تذكر الأبدية ثاب الى رشده وأدرك عظم خطئه . وهو آساف المرتل الذى غار من نجاح الأشرار وتقدمهم وارتفاعهم وازدياد سرورهم بينما يكون أولاد الله واقعين تحت مختلف الآلام فقال « فلما قصدت معرفة هذا إذاً هو تعب فى

عينى حتى دخلت مقادس الله وانتبهت الى آخرتهم . حقاً فى مزالق جعلتهم . أسقطتهم الى البوار» (مز ٧٣ : ١٦ ــ ١٨).

بل إن الفلاسفة الوثنيين أنفسهم كانوا يرتجفون من تصور الأبدية ولما أرادوا أن يصوروها استعملوا رموزاً وتشابيها مخيفة ومرعبة . فبعضهم صورها بصورة أشر الافاعى نوعاً أى التى مجرد فحيحها يقتل البشر وصورها آخرون بصورة تنين مخيف فاغراً فاه على شفاه حفرة عميقة يرصد الناس ليبتلعهم أحياء . وغيرهم يصورون الأبدية بصورة حفرة عميقة جداً لها عند مدخلها أربع درجات : الدرجة الأولى من حديد والثانية من نحاس والثالثة من فضة والرابعة من ذهب ، وعلى هذه الدرجات أطفال وقوف يلعبون لعباً مختلفة وهم غافلون عن خطر السقوط فى هذه الهاو ية . والمراد بذلك اظهار تفاقم جهل البشر فمنهم من يتنزه ومنهم من يضحك ومنهم من يتعلق بمحبة خيرات العالم وجواهره وهم غير ظانين أنه من الممكن أن يلقوا الى الأبد فى جهنم .

أيها الأشقياء يا من تسرعون الى الهاو ية بخطى واسعة وأنتم لا تدرون ، وتجرون الى الأبدية باطمئنان وأنتم لا تشعرون قفوا هنيهة قبل ما تهبطون فى أعماق الأبدية . فكروا فيها قليلاً «من منا يسكن فى ناراً آكلة . من منا يسكن فى وقائد أبدية » (اش ٣٣ : ١٤) قل لنفسك أيها الجاهل يا من تخشى من حرارة الشمس هل تستطيع أن تحتمل اللهيب الأبدى ؟ أيتها المرأة المتنعمة يا من لا تحتملين أن توخز يدك بابرة هل تستطيعين الصبر فى تلك النار الأبدية ؟ أيها الساعى وراء اللذات يامن لا تقوى على احتمال نفس جارك هل تقدر أن تبقى الى الأبد بين جثث الهالكين الكريهة فى جهنم ؟ ليسأل كل متكبر وطماع وشهوانى نفسه قائلاً « أيتها النفس المتمردة العاصية التى أحببت الاثم واشتهيت الخطية . ألا تعلمين أية مجازاة يجازيك الله بها ؟ انها نار حامية ولهيب مستعر . فهل تطيقينها ؟ إذا كنت لا تحتملين المثول أمام يدى الله هنا لحظة لتندبى اثمك وشرك . فكيف تستطيعين احتمال ذلك العذاب المريع ؟».

انظر أيها الانسان كيف تداوى سترتك وتصلحها . ليس من علاج أعظم تأثيراً

من التفكير فى الأبدية . إن ذكر الأبدية هو الذى جعل جميع القديسين يصمون آذانهم عن سماع الشر و يغلقون أعينهم عن النظر الى القبائح . و يسكتون ألسنتهم فلا تنطق بالمكر والخداع . هو الذى حمل جميع الأتقياء على احتمال المكاره حباً فى الفضيلة : هو الذى جعل يوسف يؤثر الطرح فى السجن على العصيان . وهو الذى قوى الثلاثة الفتية على احتمال نار أتون نبوخذنصر بدلاً من احتمال نار غضب الله القدير . جميع القديسين كانوا يهزأون بآلام الحياة لأنهم كانوا يعتقدون أنها مهما عظمت فانها تنتهى بانتهاء العمر ولكنهم يخشون آلام الأبدية التى لا نهاية لها . ولذلك فضلوا أن يعذبوا وقتاً بدلاً من كل الأوقات . وهذا ما هددت به القديسة دميانة العذراء أباها عندما أغراه القيصر ليسجد للأوثان إذ قالت له « خير لك ياأبى أن تحتمل العذاب برهة وتموت شهيداً فتحيا مع المسيح الى الأبد من أن تحيا وقتاً وثنياً ثم تموت مع الشيطان الى الأبد ».

ان أخاب الملك إذ سمع من ايليا النبى قوله « فى المكان الذى لحست فيه الكلاب دم نابوت تلحس الكلاب دمك أنت أيضا » يقول الكتاب انه « شق ثيابه وجعل مسحاً على جسده وصام واضطجع بالمسح ومشى بسكوت » (١ مل ٢١ : ١٩ و ٢٧) فإذا كان الموت الوقتى الهين أزعج أخاب وأرعبه فماذا ينبغى أن يعمل من يسير بشره ليلقى به فى جهنم الى الأبد ؟ قال أحد الافاضل « ما أكثر الذين يرضون بجهنم ولا يتنازلون عن عشرة رديئة أو عادة مذمومة ».

لقد كان من عادات العصور الأولى عند تنصيب أحد خدام الدين أنهم يحرقون أمامه قليلاً من القطن ، وكان الغرض من هذه العادة أن يتذكر لهيب نار الأبدية . فالطريق الى السماء وعرة المسلك و بابها ضيق وتجارها شديدة وابليس لا يفتأ يهجم على المسافرين قصد الايقاع بهم . ولا ريب أنه لا يقى الانسان من شر هذه الأمور مثل ذكر الآخرة كما قال رب الجنود « اجعلوا قلبكم على طرقكم » (حج ١ : ٥).

قال القديس يوحنا ذهبى الفم « إن تأمل العذاب الأبدى هو بمنزلة الدواء المر الذى ينقى النفس من كل الشرور والخبائث ، فإذا كنت متغافلاً فإذكر الخمس العذارى الجاهلات اللاتى لم يأتين بزيت لمصابيحهن فسقطن وان كنت مختلساً

فاسمع سيدنا قائلاً « خذوه من يديه ورجليه واطرحوه فى الظلمة الخارجية . هناك يكون البكاء وصرير الأسنان » وإن كنت سكيراً فاسمع ما يقوله الغنى لابراهيم « يا أبى ارحمنى وأرسل لعازر ليبل طرف اصبعه بماء و يبرد لسانى لأنى معذب فى هذا اللهيب » وإن صارعتك الشهوة فافتكر فى اضطرام نار جهنم حتى يخمد اشتعالها فيك .

قيل أن ديونيسيوس الملك المغتصب اخترع من حملة أنواع العذاب سجناً بناه بصورة أذن فيه ثقب صغير يساعده على سماع كلام المسجونين وصراخهم وتذمرهم . فليت لنا هذه الأذن لنسمع تأوهات الأشرار فى الجحيم وأنينهم فى جهنم حتى نعلم كم تجلب الخطية من الويلات على مرتكبيها ليتأمل محبو العالم كيف أنهم ههنا لا يكرهون ملامسة أى شئ يؤلمهم أم فى الحياة الأخرى فيتراكم عليهم العذاب والآلام بغير انقطاع . وهؤلاء الذين يهابون الموت الآن يلتمسون هناك الموت فيهرب منهم . إذا شعرت باحتراق منزلك فانك تهرب ولا تقف خوفاً من النار فإن كان خوف العذاب الزمنى مخيفاً هكذا فما بالك لا تهرب خوفاً من نار جهنم ؟ لنتأمل فى ذلك جيداً لأن ذكر نار غضب القدير يلين قساوة القلب ويهدى المتمردين والعصاة .

قال المرتل « تأديباً أدبنى الرب والى الموت لم يسلمنى » (مز ١١٨ : ١٨) فكل ما يقاسيه الانسان هنا من الآلام يعتبر هيناً إذا نجا من الآلام الأبدية .

قال القديس أوغسطينوس « اضرب ههنا . اقطع ههنا . لكى تغفر الى الأبد ابلنا بالفقر هنا ارسل لنا العار هنا اضنكنا بالأمراض هنا . احزنا واشقنا واتعبنا من البلايا هنا لكى ترحمنا الى الأبد » .

لنردد فى ذهننا هذه الكلمة المريعة (الأبدية . الأبدية) لنذكر أنه توجد جهنم لا نهاية لها ، وأنه يوجد مجد أبدى لا آخر له ، الشمس إذ تغيب مساء لا يراها الانسان مع أنها موجودة فى كل مكان آخر . هكذا المجد الفضيلة ظاهر والناس لا يرونه . وشر الرذيلة واضح والقوم لا يبصرون . والموت يتقدم اليهم وهم لا يشاهدون وجهنم تتحرك تحتهم لابتلاعهم وهم لا يشعرون لأن الذى يعرف جيداً

مجد الفضيلة و يشعر أنه بعيد عنها ، وشر الرذيلة و يعرف أنه متمسك بها يذوب خوفاً حسرة . وهوذا أحد المتأملين جيداً فى ذلك يقول « من أجل ذلك ارتاع قدامه . تأمل فارتعب منه » (أى ٢٣ : ١٥).

ليست جميع الناس يطبعون صورة الأبدية على أعماق قلوبهم لأنهم لو فعلوا ذلك لرأينا فى سيرتهم تحسناً سريعاً وفى أعمالهم صلاحاً عجيباً ، ليتهم يجعلون صورتها ازاء أعينهم على الدوام وصوتها يرن فى آذانهم طول الأيام . قال بعضهم « أيتها التصورات المخيفة . تصورات جهنم والدينونة . لا تبرحى من أمام عقلى حين يجتهد العالم أن يغويني لكى أدنس سيرتى بواسطة مكايده وحيله الباطلة . ياتصورات الدينونة وجهنم الهائلة ارتسمى فى أذهاننا ولا تزولى من صفحات ذاكرتنا لنستطيع أن نعرف انتقام العدل الالهى وقيمة النعمة التى أمامنا ياجهنم . ياجهنم . إن ذكرك وحده يرعبنا ».

وكما أنه فى ذكر جهنم وعذابها كل خوف للأشرار ففى ذكر السماء وأمجادها كل سعادة للأبرار . وكم من قديسين عاشوا ولا هدف لهم ليلاً ونهاراً إلا ذكر فردوس النعيم الذى كانوا يحنون اليه ويهيمون به و يتوقون الى الوصول اليه . كانوا يتسلون بتصوره فى فكرهم حتى يتاح لهم أن يتطلعوا الى الحقيقة كما قال الرسول يوحنا « أيها الأحباء نحن أولاد الله ولم يظهر بعد ماذا سنكون ولكن نعلم أنه إذا أظهر نكون مثله لأننا سنراه كما هو » (١ يو ٣ : ٢).

ففى ذكر السماء أعظم تعزية للأتقياء المتغربين فى هذا العالم وهو الذى يجعلهم يزدرون بكل ما فيه من المشتهيات الحقيرة . فإذا ما دهمتهم الآلام والأحزان يذكرون أفراح مدينتهم السماوية وإذا لبست الدنيا أحسن زينتها قالوا أين هذا المنظر الشنيع من مجال بيت أبينا الذى لا يقوى على وصفه لسان ويهتفون مع داود النبى قائلين « إن نسيتك ياأورشليم تنسى يمينى . ليلتصق لسانى بحنكى إن لم أذكرك إن لم أفضل أورشليم على أعظم فرحى » (مز ١٣٧ : ٥ ، ٦).

فما بالنا نحن أذن نأخذ فى التحدث عما فى العالم من جمال حقير ومجد باطل وننسى أن نلهج بمحاسن مدينة الله العلى أورشليم السمائية . لماذا لا تذكرنا بلايا

هذه الحياة بسعادة السماء لماذا لا تذكرنا مخاوف الدنيا بأمان الملكوت ؟ لماذا لا تذكرنا أحزان العالم بأفراح النعيم ؟ لماذا لا نرفع عيوننا الى السماء ونتطلع الى ذلك المجد الأبدى ؟ إن نفوسنا تميل بنا الى التأمل فى مجد الأرض دون مجد السماء ، فعلينا إذن أن نصادر أميالنا إذا انحرفت بنا الى التأمل فى الأرض . ونسر منها إذا رأيناها تنزع بنا الى السماء . فلا يليق بمن خلقوا على صورة الله أن يطلبوا السرور من الأمور الفانية ، بل لنجعل موضوع سرورنا اشتهاء الأمجاد الأبدية .

ومن لا يسر إذا شعر أنه لأجله قد أعدت أفراح سرمدية وسعادة خالدة . فإذا تأملت فى هذا أخذك الميل الى الشوق الذى يولد فيك العمل لتحصيل ذلك المجد حتى تقول مع القديس أغسطينوس « يا أورشليم يابيت الله السرمدى أنت بعد الله بهجتنا وتعزيتنا وسلوتنا . لأن ذكر اسمك العذب يخفف حزننا و يلطف عذابنا ».

وتقول معه أيضا « ملكنى ذاتك أيها الخير السامى الذى لا خير سواه وأسعدنى بك يا ينبوع السعادة الكاملة . روحى تتوق اليك جداً ولذلك هى حقاً ذابلة حتى أبلغ اليك ياحياتى المحبوب . فعلام تخفى عنى وجهك . ألعلك تقول « لا يرانى بشر و يعيش » امتنى يارب وابصرك دعنى أراك وأموت عن العالم .

الفصل الخامس عشر
فى انتقال الصالح

« أيضا إذا سرت فى وادى ظل الموت لا أخاف شراً لأنك أنت معى » (مز ٢٣ : ٤).

قد دخل مخلصنا القبر ولكنه لم يمكث فيه بل جاوزه . كان الناس يرون القبر سجناً أبدياً وأنه مدخل مظلم لا خروج منه ولكن يسوع جعله مجازاً للمفديين من هذه الدار الى ملكوت السماء ، فالموت والقبر بعد قيامة السيد المسيح غيرهما قبلها . وذلك الانسان الذى يصبر الى المنتهى ثابتاً فى الايمان والتقوى ينال الحياة الأبدية « ولكن الذى يصبر الى المنتهى فهذا يخلص » (مت ٢٤ : ١٣) وقال يوحنا الرسول « وهذه هى الغلبة التى تغلب العالم . ايماننا » (ايو٥ : ٤) فحياة المؤمن هنا مفعمة بالرجاء والاتكال على الله . فهو به مكتف وعليه يستند حتى الى الموت يصيح قائلاً « فدى نفسى من العبور الى الحفرة فترى حياتى النوع » (أى ٣٣ : ٢٨) و يقول أيضاً « لأن الله هذا هو الهنا الى الدهر والأبد هو يهدينا حتى الموت » (مز٤٨ : ١٤).

هذا المؤمن يضطجع على فراش الموت منتظراً الساعة التى فيها ينتهى أجله مملوءاً تعزية ، لا يخشى موتاً ولا دينونة إذ لا سلطان لهما عليه كما قال السيد له المجد « من يسمع كلامى و يؤمن بالذى أرسلنى فله حياة أبدية ولا يأتى الى الدينونة بل قد انتقل من الموت الى الحياة » (يو٥ : ٢٤) وكما قال الحكيم « فى سبيل البر حياة وفى طريق مسلكه لا موت » (أم ١٢ : ٢٨).

معلوم أن الموت هو ألد أعداء البشر و يدعوه الرسول بولس « آخر عدو يبطل » ولكنه هو نفسه يهتف به قائلاً « أين شوكتك ياموت » (١ كو ١٥ : ٢٦ ــ ٥٥) وذلك لأن الموت عدو لقوم وحبيب لآخرين . عدو للخاطئ وحبيب للتقى يقول

الحكيم « مخافة الرب ينبوع حياة للحيدان عن اشراك الموت » (أم ١٤ : ٢٧) فما أسعد الذين يموتون فى حال البر والقداسة فهؤلاء قد نالوا الطوبى والغبطة كقول الكتاب « وسمعت صوتاً فى السماء قائلاً لى أكتب طوبى للأموات الذين يموتون فى الرب منذ الآن . نعم يقول الروح لكى يستريحوا من أتعابهم وأعمالهم تتبعهم » (رؤ ١٤ : ١٣).

ان ذلك النبى الذى أرسله الله الى بر بعام قد أمره أن لا يقبل ضيافة أحد ولا يأكل ولا يشرب عند أحد ولا يدخل بيتاً أصلاً . ولكنه إذ خالف الرب هجم عليه أسد عند عودته وقتله غير أن الأسد لم يجسر أن يأكله أو يمزقه بل جلس فوق جثته يحرسها من بقية الوحوش الى أن أقبل عليها أشخاص حملوها ودفنوها (١ مل ١٣) هكذا الموت يسمح له الله أن يقترب منا و يأخذنا ولكن لا يعذبنا بل يحملنا بسلام الى أماكن الراحة . لهذا نجد الأبرار إذا سمعت نفوسهم الدعوة الى مفارقة أجسادهم لبوا النداء وسلموا مبتهجين وهم يقولون « لأنك نجيت نفسى من الموت . نعم ورجلى من الزلق لكى أسير قدام الله فى نور الأحياء » (مز ٥٦ : ١٣).

فلا يوجد حينئذ شئ يحزن أولاد الله . لا يكدرهم ترك خيرات العالم لأنهم لم يضعوا قلوبهم عليها . ولا تقلقهم مفارقة الملذات الجسدية لأنهم لم يتعلقوا بها . ولا يؤلمهم اهمال الأمجاد والعظمة لأنهم لم ينشغلوا بها . فهم يسلمون فى كل شئ بفرح عالمين إن لهم مالاً أفضل فى السموات و باقياً (عب ١٠ : ٣٤) ولذلك لم يحبوا حياتهم حتى الموت (رؤ ١٢ : ١١).

نعم قد تلألأت للمؤمن الدنيا بزخرفها ونعيمها ولكنه لم ينخدع بها ، وقد أخذ هذا المنظر يتضاءل أمام عينيه وابتدأ جسمه البالى الذى حاربته نفسه وقهرت شهواته على الدوام أن ينحل فيتعزى عزاء أبدياً .

بل إن المؤمن المشرف على الموت إذا رأى أهله حوله باكين يشجعهم ويحثهم على سلوك الصلاح الذى ينجى من الموت . فابراهيم واسحق و يعقوب حين دنو موتهم وشعورهم به لم يرتعبوا بل كانوا يستحضرون أولادهم و يباركونهم و يظهرون

كأنهم لم يكونوا يتوقعون شيئاً جديداً يحل بهم ، و يوسف وهو فى النزع قال لأخوته بثبات « أنا أموت ولكن الله سيفتقدكم و يصعدكم من هذه الأرض » (تك ٥٠ : ٢٤) وموسى حين أخبره الله أنه سيموت لم يخف بل أوصى اسرائيل بوصية الرب و وصف الله بقوله « ان جميع سبله عدل . اله أمانة لا جور فيه صديق وعادل هو » (تث ٣٢ : ٤) وداود حين أتت منيته أوصى أبنه سليمان بحفظ وصايا الرب وقال له « أنا ذاهب فى طريق الأرض كلها » (١ مل ٢ : ٢) و بولس الرسول حين شعر بدنو ارتحاله قال لتيموثاوس « فانى أنا الآن أسكب سكيباً و وقت انحلالى قد حضر » (٢ تى ٤ : ٦) و بطرس الرسول يتكلم عن نفسه بلا وجل قائلاً « عالماً أن خلع مسكنى قريب كما أعلن لى ربنا يسوع المسيح أيضاً » (٢ بط ١ : ١٤).

هناك يضع المؤمن يده فى يد ابراهيم واسحق و يعقوب و ينظر وجه بولس الرسول ، و يقف مع بطرس ، ويجلس فى الحقول المخصبة مع موسى وداود ، و يصلى فى نور شمس النعيم مع يوحنا والمجدلية . فيالها من غبطة عظيمة !!

أجل يشعر المؤمن هنا أنه سيخسر ممتلكاته وكل ثروته ولكنه لا يحزن لأنه يكون مشغولاً بالتفكير فى ما سيربح فى السماء . يفكر فى المدينة العظيمة التى لها الأساسات التى صانعها و بارئها الله . يفكر فى المساكن الأزلية التى لا يصح أن تقابل بها أعظم قصور ملوك الأرض . يفكر فى الخيرات السماوية التى تشبع شبعاً أبدياً وتملأه اكتفاء لم يشعر بجزء منه لوامتلك كل الأرض هنا .

فما أعظم راحة المؤمن وهو على فراش الموت وما أسمى هدوء باله وسكون خاطره وضميره . لا يقلقه شئ لأن خطاياه قد غفرت له وقلبه اشترك بنعمة الله وصليب المسيح . فهو يشتهى حينئذ أن يظهر محبته الأكيدة ليسوع بشدة . ذلك المخلص الذى كان ذكره فى قلبه مدة حياته ، ذلك المخلص الذى عليه ألقى اتكاله وهو الآن رجاؤه ومعتمده الوحيد فله قد عاش واليه الآن ينتقل . وتظهر على وجه المؤمن لوائح السلام الداخلى والتعزية الالهية وهو يهتف قائلاً « إن عشنا فللرب نعيش وإن متنا فللرب نموت إن عشنا وإن متنا فللرب نحن » (رو ١٤ : ٨) و يصيح

أيضاً « جعلت الرب أمامى فى كل حين لأنه عن يمينى فلا أتزعزع لذلك فرح قلبى وابتهجت روحى جسدى أيضاً يسكن مطمئناً لأنك لن تترك نفسى فى الهاوية . لن تدع تقيك يرى فساداً . تعرفنى سبيل الحيوة . أمامك شبع سرور وفى يمينك نعم الى الأبد » (مز ١٦ : ٨ ــ ١١).

إن كثيرين من القديسين كانوا فى أثناء عذابهم مبتهجين وما سبب ذلك إلا أن النفس كانت تزداد قوة كلما كان الجسد يزداد ضعفاً . وقوة الروح كانت تقوى ايمانهم ، وقطرة واحدة من النعمة الالهية التى كانت أنفسهم مرتوية بها كانت تسكرهم وتختطفهم عن الحواس .

وهكذا جميع القديسين فى كل العصور لا تستطيع المخاوف التى تتجمع عند الموت أن تزعجهم وإذا رأى المؤمن ما يؤلمه منها فانه يرفع عقله و يتفرس به فيجد مخلصه مصلوباً فيخجل و يتشدد عزمه ويخاطب سيده قائلاً « لقد تألمت قبلى يامخلصى وقد تألمت أكثر منى بما لا حد له » وقد قال الأنبا موسى أسقف أوسيم عندما قام ليدافع عن المسيحيين أمام مضطهديهم وحاول المؤمنون أن يمنعوه « انى لا أستحق أن أسفك دمى الدنس من أجل من سفك من أجلى دمه الطاهر ».

وكيف يشعر المؤمن بألم بينما رغبته فى مشاهدة مخلصه تنسيه جميع الآلام وهوذا المخلص يقول عن الأتقياء . « ومن يد الهاوية أفديهم . من الموت أخلصهم . أين أو باؤك ياموت أين شوكتك ياهاوية » (هو ١٣ : ١٤) فحينئذ تكون عينا البار مرفوعتين الى السماء تشيران الى أن قلبه وأمياله المقدسة تتوق الى الوصول الى ذلك المكان والحصول على تلك السعادة والتطلع الى الأبدية .

إن التأمل فى الماضى والحاضر والمستقبل ، كل هذا يملأ قلب الصالح فرحاً وسلواناً فهو ينظر الى الماضى فيجد أنه قد استراح والى الحاضر فيرى فيه كل ما يسره . يفرح بقرب تركه شقاء العالم . يفرح بقرب دخوله باب السماء وما أحلى ذكر المستقبل عنده لأنه يرجو أن يجتمع بالهه الذى أحبه دون أن يراه كقول الرسول بطرس « الذى وإن لم تروه تحبونه » (١ بط ١ : ٨).

فمن يستطيع أن يصف مقدار فرح الانسان الصالح وقت الموت عندما يعلم أن ساعة جهاده وتجاربه قد انتهت . إن السلام الذى يملأ قلوب المؤمنين حال موتهم يجعل فراشهم وثيرة لينة كريش النعام فلا يمكن أن تشاهد فى الأعراس ولا فى ولائم الأعياد ولا بين الذين أدركوا ساعة النجاح أناساً مبتهجين مثل المرضى المؤمنين . إن سلام الله الذى يفوق كل عقل يحفظ قلوبهم وأذهانهم .

وعند ورود ساعة الموت يمتلئ المؤمن فرحاً وهو يقول « يا أبتاه فى يديك أستودع روحى » (لو ٢٣ : ٤٦) وملاك الرب يستلم روحه ليحملها الى الأفراح الأبدية أمام عرش الله والخروف . فما أبهج وما أسعد نهاية ذلك الانسان الذى استحق أن يرى المسيح وجهاً لوجه كما هو و يشترك معه فى المجد والقداسة مشابهاً له فى ذلك و يشكره لأنه يرفعه من أبواب الموت (مز ٩ : ١٢) فمن يستطيع أن يتصور تلك الحالة السعيدة بل و يتصور أقل جزء من بهجتها .

تلك هى نهاية المؤمن الذى جاهد وغلب ، الذى احتمل الضيق والآلام بصبر غير ناظر إلا الى رئيس الايمان ومكمله يسوع (عب ١٢ : ٢) والآن قد انضم الى زمرة الأبرار ليتمتع بحياة سعيدة لا يعقبها موت ولا تعب وهو يرنم بترنيمات سماوية بدون انقطاع ولا ملل حتى صار يحق لنا أن نهتف مع القائل « لتمت نفسى موت الأبرار ولتكن آخرتى كآخرتهم » (عد ٣٢ : ١٠) كيف لا والكتاب يصف راحتهم قائلاً « وسمعت صوتاً عظيماً من السماء قائلاً هوذا مسكن الله مع الناس وهو سيسكن معهم وهو يكونون له شعباً والله نفسه يكون معهم الهاً لهم . وسيمسح الله كل دمعة من عيونهم والموت لا يكون فى ما بعد ولا يكون حزن ولا صراخ ولا وجع فى ما بعد لأن الأمور الأولى قد مضت » (رؤ ٢١ : ٣ و ٤).

إن المرأة الجميلة لا تشعر بجمالها أو تسر به بشهادة الناس لها ولكن سرورها يعظم إذا شاهدت جمالها فى المرآة ، هكذا المؤمن لا يمكن أن يسر بايمانه وفضيلته إذا مدحهما الناس وشهدت لهما الألسنة بقدر ما يرى نفسه فى مرآة الموت الصافية . فما أجمل ابتهاج نفسه فى ذلك الحين . ومهما كشف الانسان عند الموت من سعادة أبدية

ومجد خالد وميراث لا يفنى فلا يسره ذلك بمقدار علمه أن نفسه مطهرة وأنها عاشت عيشة ترضى الله .

إن الزارع الذى يبذر حنطته لا يفرح إلا إذا رآها قد ماتت لأن موتها يسبق أوان ظهورها مثمرة هكذا الصديق لا يحيا إن لم يمت (١ كو١٥ : ٣٦) فللمؤمن إذاً أن يصرخ ليلاً ونهاراً قائلاً « ليأت ملكوتك » (لو١١ : ٢) فكيف يطيق البقاء فى سجن الأرض وكيف لا يشتاق أن ينطلق الى حضرة الهه ومن ذا الذى يذهب كارهاً الى أخذ أجرته بعد التعب أو الى الحصول على أكليل الظفر وصولجان الفخار بعد أن ينتهى من المعركة بالانتصار .

قال القديس كبير يانوس « إذا كان انسان قاطناً فى بيت جدرانه مائلة للسقوط وطبقاته مزعزعة الأركان و يشعر أنه مادام فى هذا البيت فهو تحت خطر الموت فكم تكون أشواقه عظيمة للخروج منه والابتعاد عنه . هكذا كل الأشياء فى هذه الحياة تهددنا بالخراب الروحى ، والمؤمن الحقيقى الذى يخشى من السقوط فى حزنها يشتهى بكليته أن يخرج منها فائزاً بخلاص نفسه ، ولذلك يقول الملاك لدانيال إذ أخذ يسأله عن أموره « أما أنت فاذهب الى النهاية فتستريح . وتقوم لقرعتك فى نهاية الأيام » (دا ١٢ : ١٣).

اننا نرفع أعيننا ونشاهد أشياء كثيرة خلقها الله ولكن لا نعرف عللها أو مصادرها ، الرسول بطرس يقول « لأننا نعلم بعض العلم ونتنبأ بعض التنبؤ ولكن متى جاء الكامل فحينئذ يبطل ما هو بعض ، (١ كو١٣ : ٩ و ١٠) فعلمنا البسيط بما نرى من شأنه أن يزيد اضطرام أشواقنا دون أن يشبعها من المعرفة فكم يكون سرورنا حينما نرحل من هذه الحياة الدنيا ونفتح عيوننا ونرى كل شئ ونحصل فى لحظة من الزمن على كل حكمة وعلم ومعرفة نسموبها على كل العلماء الذين ظهروا فى الدنيا . روى أن فيلسوفاً حكم عليه بالموت ففرح لأنه قال « عن قريب أطلع على حقيقة مستقبل النفس » فإذا كان علم حقيقة واحدة حبب الموت لذلك الفيلسوف ، فكم يود المؤمن إذاً أن ينتقل ليشاهد ما لم تره عين ولم تسمع به أذن ولم يخطر على بال انسان (١ كو٢ : ٩).

كيف لا يحب لمؤمن الانتقال وهو يعلم أنه سيشاهد الله تعالى . وما دمنا نؤمن أن الله تعالى الممجد المخوف ينتظرنا ليكشف لنا وجهه الكريم و يشركنا فى أفراحه ويمتعنا بامتلاك كنوزه السماو ية فكيف نفكر أن نتأخر فى هذه الحياة ؟ إن موسى النبى اشتهى أن يرى الله قائلاً « أرنى مجدك » فأجابه الله قائلاً « لا تقدر أن ترى وجهى لأن الانسان لا يرانى و يعيش » (خر ٣٣ : ١٨ و ٢٠) قال القديس أوغسطينوس « لماذا أمسك عن أن أقول « أمتنى يارب وأراك » ان خسارة كل ما أرى فى العالم ليس بشئ أمام رؤ يتك فلتغمض عيناى عن رؤ ية كل شئ زائل . أودعك أيتها الغابات والبساتين والأودية والجبال والبحار والينابيع والأنهار لأنى لست أبالى بعدم رؤ ية محاسنك لأرى من أبدعك وأعطاك هذه المحاسن . لا أطلب أحداً سواك يارب ».

انها نعمة عظيمة من الله أن ينقذ نفوس الأتقياء من شرور العالم الحاضر . ورحمة منه لا يعرف قرارها أن يجعل تلك النفس فى حضرته المقدسة . قال القديس يوحنا ذهبى الفم « لو اتفق أن ملكاً أعد لانسان ما مسكناً جليلاً داخل قصور بلاطه الملوكى ولكنه قبل أن يسكنه فيه أسكنه فى كوخ حقير فكم تكون أشواقه عظيمة الى الخروج من ... الكوخ لكى يذهب و يقيم فى ذلك القصر المنيف . والنفس إنما تكون داخل جسدها فى هذا العالم كسجين فيه ولا يمكنها أن تخرج منه إلا بالموت لتنطلق الى بلاط الملك السماوى ».

أيها المؤمن هلم اصعد على أجنحة الر ياح الى مقر راحتك . الهك ينتظرك . الملائكة تستعد لاستقبالك . باب السماء مفتوح أمامك . القديسون الذين سبقوك ينتظرون قدومك اليهم . فمن منا إذاً لا يقول مع حبقوق « الرب السيد قوتى ويجعل قدمى كالأيائل ويمشينى على مرتفعاتى » (حب ٣ : ١٩).

اسمعوا البار يرنم فى تابوته قائلاً « أودعك ياشمس الحياة لأن الرب سيكون نورى وحياتى الى الأبد . أودعك أيتها الأنغام المطربة لأنى أسمع هتاف الممجدين فى السماء . أودعك يافرح العالم لأن يسوع هو فرحى وسلامى . امسحوا دموعكم لا تبكوا على . دقوا نغمة الفرح وأبطلوا نغمة الحزن ، صفقوا بأيديكم . أتبكون على

رأس توجها الله باكليل المجد ، وعلى يد تمسك قيثارات الذهب ، وعلى قلب اغتسل من الخطية ورقص طرباً ، وعلى من صار في حضن المخلص . أتبكون على فقير لبس ثوب الغنى ، وسقيم صار صحيحاً ، ومحتقراً أخذ مجداً سرمدياً » ؟.

لهذا نسمع آساف النبي يصرخ قائلاً « برأيك تهديني و بعد الى مجد تأخذني . من لي في السماء ومعك لا أريد شيئاً في الأرض » (مز ٧٣ : ٥٤) وسمعان الشيخ يقول « الآن تطلق عبدك ياسيد حسب قولك بسلام . لأن عيني قد أبصرتا خلاصك » (لو ٢ : ٢٩ و ٣٠) و بولس الرسول يقول « لي اشتهاء أن أنطلق وأكون مع المسيح ذاك أفضل جداً » (في ١ : ٢٣).

وقد سمعنا عن أتقياء كثيرين صرحوا عند موتهم بأنهم مسرورون وأن سعادتهم في انتقالهم من هذا العالم : روى عن شيخ تقي أنه عندما شعر بدنو أجله جمع أولاده وحفدته حول سريره وفي الدقائق الأخيرة من حياته تناوم وأخذ يبتسم ثلاث مرات وعيناه مغمضتان فلما فتحهما سأله واحد من أولاده عن سبب تبسمه المتكرر ثلاث مرات . أجاب الشيخ الورع « في أول مرة خطر ببالي كل الملذات التي تمتعت بها طول عمري فلم أقدر أن أمنع ذاتي عن أن أبتسم ضاحكاً على عمى أولئك الذين يعتبرون تلك الأشياء ذات قيمة مع كونها تشبه فقاقيع الصابون . وفي ثاني مرة تذكرت كل ما نزل بي مدة حياتي من البلايا والهموم ففرحت لدنو الساعة التي تذهب عني فيها أشواك تلك الشدائد وأبدأ في قطف وردها . وفي ثالث مرة عندما أمعنت النظر في الموت لم أستطع أن أمنع نفسي عن الابتسام لأفتكاري في الهول الذي يلقيه على الناس هذا الملاك المرسل من الله لكي يضع حداً لآلامهم و يقودهم الى مقر الراحة والسرور الأبدي ».

جاء عن القديس اغناطيوس أنه اقتيد من سورية الى رومية ليلقى فريسة للوحوش الكاسرة فخشي أن ترفق به الوحوش كما تراءفت على غيره من القديسين وأن لا تمسه وقاراً . فقال « ليت الوحوش تزداد نهماً فإن أسنانها ليست إلا كرحى فإنها إن طحنت القمح لا تفنيه بل تصيره دقيقاً . فلتسحقني فأصير قرصاً نقياً معداً للسماء » وقيل عن القديس بوليكربوس تلميذ يوحنا الرسول أنه حينما وضعوه في نار

الاستشهاد ربطوه بوتد فقال لهم « دعونى من هذا الوثاق فإن من وهبنى قوة على الأتيان الى النار يعطينى أيضاً صبراً على احتمال اللهيب ».

والقديس كبريانوس لما سمع حكم القضاء عليه بالموت قال « أشكر الله لتحريره اياى من هذا الجسد » وجاء عن القديس باسيليوس إن الامبراطور فالنص أرسل اليه قواده طالباً منه الرجوع عن الايمان ليوليه المناصب و يصله بالخيرات فرفض ذلك وهزأ بهم قائلاً « اعطوا ما تعدونى به للأولاد » فلما هددوه بالعذاب قال لهم « هددوا أعيانكم اللابسين حلل الأرجوان المستعبدين لشهواتهم » ثم هدده موديستوس الوالى بالاستيلاء على أملاكه و بالعذاب والنفى والقتل فقال « لا يخشى فقد المال من لا يملك شيئاً . ولا الغنى من يحسب السماء وطنه الحقيقى ولا العذاب من يسلم الروح بضربة واحدة . ولا الموت من يرى أنه الطريق الوحيد الى حضرة الله » فقال له الوالى انك تختل العقل فأجابه أرجو أن أبقى الى الأبد مختلاً هكذا .

وهذه آخر كلمات القديس انطونيوس لتلميذيه « ادفنانى تحت الأرض ولا تعرفا أحداً موضع لحدى حتى إذا جاء يوم القيامة اقتبل هذا الجسد من يد يسوع المسيح بكر القيامة خالياً من الفساد » وقال القديس باخوميوس لتلاميذه قبل موته « اننى أشاهد ياأولادى الأعزاء أن الله عن قريب يريد أن يدعونى اليه . أما أنا فمن دون خوف أقبل نحو الموت لأنى واثق بصلاح الله غير المتناهى .

وقال القديس يوحنا ذهبى الفم فى رسالة أرسلها من منفاه الذى نفته اليه الملكة أودكسيا « انى لما خرجت من المدينة لم أعد أفكر فى شئ إنما أخذت أحدث نفسى هكذا . إن نفتنى الملكة فالأرض بكمالها للرب . وإن أحبت أن تنشرنى فقد نشر اشعياء من قبلى . وإن أرادت أن تلقينى فى البحر فانى أذكر يونان . وإن شاءت أن ترجمنى فلى أسوة باستفانوس أول الشهداء . وإن رامت أن تقطع رأسى فأكون رفيقاً ليوحنا المعمدان . وإن آثرت أن تغتصب مالى فعريانا خرجت من بطن أمى وعريانا أعود الى هناك وكانت آخر كلمة لهذا القديس قبل أن يلفظ النفس الأخير « أشكر الله على كل شئ ».

ورد فى سيرة أحد الآباء الناسكين فى برية الاسقيط أنه عند موته اجتمع حوله أصحابه وصاروا يبكون ، أما هو فكان مسروراً ولما سئل عن سبب ذلك أجاب قائلاً « لماذا تبكون مع كونكم تشاهدوننى منطلقاً من الا تعاب والشقاء الى دار النعيم والراحة ». وجاء فى أخبار القديسين أن صياداً وجد أحد السائحين يرتل فى حالة احتضاره ترتيلاً شجياً بنغمة مطربة فأقترب منه الصياد وقال له « كيف إن رجلاً مثلك فى ساعة الموت وفى حال الذل والتعاسة يرنم مثل هذا الترنيم الحلو فأجابه السائح « إعلم ياأخى إنّ ليس بينى و بين ألهى سوى هذا الحائط (وأشار الى جسده) فكلما أراه مائلاً الى السقوط أعلم أنه قد دنا وقت اقترابى من الهى وتركى زمان غربتى وذهابى عند الرب الهى لأ تمتع به ».

وقال قديس وهو يحتضر « ياموت أنت آخر أشواقى لأنى بك أكون مع المسيح الهى الذى أحبنى » وسئل غيره أى شئ تحتاج ؟ فقال « السماء » وقال آخر « عندما تسمعون انى مت لا تصدقوا هذا الخبر لأنه لا يعتبر قد مات من سيحيا حياة أفضل . سأكون فى محل أرقى . سأخرج من خيمة هذا الجسد الترابى العتيقة وادخل البيت الأبدى . سألبس جسداً لا يدانيه الموت ولا تلامسه الخطية جسداً مثل جسد مخلصنا الصالح المولود من الروح لا يموت » قال أحد القديسين ينبغى أن نسمى يوم موت الأبرار بيوم ولادتهم لأن فى هذا اليوم يولدون ولادة جديدة لحياة لا يعقبها موت ».

الفصل السادس عشر
فى موت الأثيم

« اعطوا الرب الهكم مجداً قبل أن يجعل ظلاماً وقبلما تعثر أرجلكم على جبال العتمة فتنظرون نوراً فيجعله ظل موت ويجعله ظلاماً دامساً » (ار ١٣ : ١٦)

إن السواد الأعظم من الناس يرتجفون رعباً و يستولى عليهم الفزع والاضطراب عند سماعهم ذكر الموت ولا سيما عند دنوه منهم لانهم يعلمون بأنه الطريق الذى يفضى بهم الى الدينونة الأبدية ، وإن الانطلاق من هذا العالم يقودهم الى تحمل العقاب عما جنت أيديهم من الشرور التى لم يتوبوا عنها والى نوال العذاب جزاء لما ارتكبوه من المآثم والخطايا التى لم يغسلوا أنفسهم من أقذارها . فهؤلاء يرومون أن يدوموا فى ظلمة هذه الحياة مهما كانت دامسة هرباً من انكشاف أمرهم وانقضاض حكم الله عليهم ولكنهم يحاولون المستحيل .

لهذا ترى الانسان غير التائب ينطرح على فراش موته متوجعاً متألماً وروحه ترتعد مقشعرة مملوءة خوفاً وانزعاجاً من الموت وما يعقبه : تراه متروكاً بلا تعزية ولا معونة لأنه لم يؤمن بالله ولم يعرفه ، وقد أنكره وخالف وصاياه . إن الموت حرب شديدة لا يقوى على الدخول فى ميدانها إلا كل جندى عاش متسلحاً بالفضائل : فالخاطئ الذى لم يتورع عن ارتكاب الاثم يحس بمرارة العذاب و يرى الموت كأساً لابد له من ارتشافها وتشتد الوطأة عليه كل يوم وتضطرب فى كل دقيقة جميع حواسه ولا يشعر براحة ولا هدوء ولا يدرى أين يتوجه ولا ممن يلتمس العلاج لدائه . وإذا تحركت فيه الندامة يحاول أن يهملها لأنه يريد أن يصور نفسه لنفسه بصورة صالحة .

ها الموت واقف أمامه يهدده بأخذ روحه فى الحال و ينذره بأنه سيزيل عنه

كل الأفراح والمجد والملذات وكل ما فى العالم . فينظر بارتباك الى ما حوله فلا يرى إلا ما يوبخه من الخارج وما يبكته من الداخل وهو إذ ذاك لا يسمع شيئاً ولا يقدر أن يستفيد من أحد لأن قلبه قد تصلب من زمن مديد بفعل الآثام التى داوم على ارتكابها بعناد شديد . فيفتش فى صحيفة حياته عله يجد شيئاً يستر به نفسه العارية من الفضائل فلا يزيده هذا التفكير إلا خوفاً وانزعاجاً كما قال الكتاب « نعم نور الأشرار ينطفىء ولا يضىء لهيب ناره النور يظلم فى خيمته وسراجه فوقه ينطفىء . تقصر خطوات قوته وتصرعه مشورته » (أى ١٨ : ٥ ــ ٧).

قال أحد الأفاضل « إن التفكير فى كل من الماضى والحاضر والمستقبل يلقى الرعب فى قلب المحتضر الشرير فانه يجد فى الماضى بطلان سعيه وراء لذاته . و يرى وراءه سلوكه وكثرة ما ارتكب من القبائح فيتحسر على ما فرط ولا ينفعه الندم . و يرى فى الحاضر ما يحيره حيرة غريبة . يرى الفراق محيطاً به . فراق الأهل والأحباء . فراق الملذات والشهوات . فراق نفسه من جسده . و ينظر الى المستقبل فلا يرى إلا الله فى أعلى السماء قاضياً عادلاً مهيباً ، وتحت قدميه نار لا تنطفىء ».

فماذا يعمل الخاطىء حينئذ وماذا يرى إلا كل ما يملأه جزعاً والتياعاً وبمن يستغيث و يستجير ، أبالمجد الذى أحبه وهو الآن يفارقه ؟ أم بأهله وهم عاجزون عن انقاذه ؟ أم بالاله الذى يعتقد أنه عدو له ؟ أجل . يتقلب الخاطىء على فراش مرضه ضحية لأشد الاضطرابات والمخاوف . يحاول أن يهرب ولا يستطيع . يخرج من أعماق نفسه أحر التأوهات التى لا ندرى إن كانت عن ندامة أم عن يأس من رحمة الله ، وإذا لاحت أمامه صورة يسوع الذى صلب لأجله زاد انزعاجه واشتد هلعه فتشخص عيناه و ينفتح منه ذلك الفم الذى علته غبرة الموت و يرتجف بدنه وتغادر تلك النفس التعيسة جسمه الترابى لتنال عقاب ما جنت . قال الحكيم « عند موت انسان شرير يهلك رجاؤه ومنتظر الاثمة يبيد » (أم ١١ : ٧).

فأى هدوء يجده أولئك الراحلون من هذا العالم وهو مثقلون بالذنوب والخطايا وأى سلام يجد مكاناً فى قلوبهم المملوءة من كل رجس ودنس . وكيف يستريحون من قلق الضمير وهم يتأكدون أن أمامهم عقاباً شديداً وعذاباً مريعاً وانهم

سيحاسبون حساباً عسيراً أمام يسوع المسيح القاضي العادل . ذلك الاله الذى عاندوه لآخر نسمة من حياتهم والذى احتقروه حتى دنت نهايتهم . كيف يستريح الضمير الذى كان ولم يزل فى نومه أما الآن فقد استفاق من غفلته بقوة عظيمة لأن الخوف من جهنم قد أيقظه فرآها فاتحة فاها لابتلاعه الى أبد الدهور . قال الكتاب عن الشرير « صوت رعوب فى أذنيه فى ساعة سلام يأتيه المخرب » (أى ١٥ : ٢١).

إن ضمير الانسان لا يستيقظ ولا يتنبه إلا إذا أيقظته شوكة الموت فيبتدىء يذكر سيئاته التى نسيها . فيقول الآن أذكر انى أهملت العبادة الآن أذكر انى احتقرت الفقير. الآن أذكر انى سعيت وراء الملذات . الآن أذكر انى كنت أترك كل ما يختص بالله لأتمم كل ما تطلبه منى أميالى الرديئة الشريرة .

أجل . حينذاك يتصور الخاطىء إن كل ما حوله يوبخه ويهدده بما يحل به من العقاب وإذا سألته ماذا يقول عن مجده وغروره ؟ فأين إذاً الخيرات التى نسى نفسه لأجل جمعها . أنا أؤكد أنه يهبها جميعها لمن يستطيع أن يريحه من ذلك القلق الذى لا يطاق ولكن واأسفاه فإن ثروة العالم كلها لا تشفع فيه . قال الكتاب « تائه هو لأجل الخبز حيثما يجده و يعلم أن يوم الظلمة مهيأ بين يديه » (أى ١٥ : ٢٣).

قال القديس أوغسطينوس « ستفارقه الخيرات الأرضية التى أحبها وتصحبه الخطايا التى فعلها . أيها الجهلاء يامن أخطأتم بتكثير أموالكم التى جمعتموها بالوسائل المحرمة ستنزع منكم الأموال ، وسيرافقكم ما ارتكبتم فى سبيل حبها من المعاصى ولن تعودوا فيما بعد تتمتعون بمشاهدة الأشخاص الذين تعلقت قلوبكم بحبهم المحرم بل سيمكث عوضاً عن ذلك ألم وندم وانزعاج لما فرط منكم من المآثم والمنكرات ».

ومما يزيد رعب الخاطىء حال موته تعلق قلبه بالخيرات التى له فالموت الحد الفاصل بينه و بين أولاده وأهله وأصحابه وملذاته . انه حينئذ لا يسعه إلا أن يصرخ « ما أمر الموت » وكم يكون بكاؤه على أمواله التى تفارقه وإذا سالته لما تكبى

أجابك « الهتى التى عملت قد أخذتموها مع الكاهن وذهبتم فماذا لى بعد وما هذا تقولون لى مالك » (قض ١٨ : ٢٤) قيل ان القنفد بعد أن يكون قد أكل وشبع من ثمار الشجرة المتناثرة على الأرض يتبدئ أن يتمرغ فوق ما يتبقى من هذه الثمار فيربطها بريشه ويحملها الى وكره محاولاً الدخول بها اليه من بابه الذى يجعله عادة ضيقاً مخافة أن يلجه غيره من الحيوانات فلا يستطيع الدخول فيضطر أن يلقى ما كان حاملاً اياه و يدخل فارغاً كما خرج و يذهب تعبه فيما جمع هباء ، هكذا الخاطىء يشعر حين الموت أن كل ما تعب فيه للعالم كان باطلاً وقد ذهب هباء منثوراً .

وكم يتمنى الخاطىء المشرف على الموت أن يعود الى الحياة مرة أخرى أو أن يسترجع حياته الغابرة وأيامه التى قضاها فى الباطل أو أن يولد ثانية ليسلك سلوكاً جديداً و ينزل الى ميدان الحياة مرة أخرى ليكسب ما يشعر أنه خسره الآن . ولكن كل هذه الأمانى تشوقات باطلة لا فائدة منها . بل من شأنها أن تزعجه وتزيده خوفاً و يبتدىء ضميره ينخسه و يوبخه فيحكم على نفسه بالعقاب قبل أن يحكم عليه العدل الالهى . حينئذ تحدق الشياطين به من كل جانب وهى باذلة كل الجهد فى تعذيب ضميره لأنها ترى أنه لم يبق له فى الحياة إلا برهات وجيزة فهى تريد أن تقلقه حتى لا يفكر فى أمر خلاصه . إنها تصور له جميع الخطايا التى ارتكبها والأماكن التى ارتكبها فيها . وتذكره بكل اثم وكان هو قد نسيه وأهمله . قد كان الشيطان قبلاً يجتهد أن ينسى الانسان ما يرتكب من الذنوب و يطمئن باله من جهة العقاب الالهى و يعده بالرحمة الالهية ، أما الآن فانه بالعكس يذكره بخطايا و يقول له « كيف ترجو رحمة الله أنت يامن قضيت حياتك معانداً اياه وكيف يغفر لك خطاياك وهو الذى أوصاك أن لا ترتكبها ؟ » بل يرى الخاطئ أن الخطايا نفسها تنتصب أمامه وتقول له (أحببتنا فى العالم الأرضى فرافقناك الى العالم السماوى).

إن من يتفرس فى البحر حال سكونه و يشاهده رائقاً صافياً يحكم على عمه أنه خال من الأوساخ . ولكن من ينظر فى حال هيجانه يندهش لما يراه مخفياً فيه من الأقذار والاوساخ الطافية على وجه الماء . هكذا ترى الخطاة فى حال صحتهم وصفه

عيشهم وراحة بالهم ولكن مهلا حتى تأتى عواصف الموت فترى ضمائرهم تقذف ما حوته من أدناس الخطايا وأقذار الذنوب وتكون لهم شوكاً حاداً ينفذ الى قلوبهم ولا تستريح مطلقاً .

إن نيرون قيصر رومية لما أعجب بقصيدة هوميروس التى نظمها على حريق تروادة أراد أن يمثل ذلك أمامه فأوعز بحرق مدينة رومية ووقف على شرفة عالية يقرأ شعر هوميروس والمدينة تشتعل وأهلها يصرخون نساء ورجالاً كباراً وصغاراً طالبين المعونة ولا معونة . هكذا الشيطان يقف بجانب الخاطىء الذى أطاعه وبينما يكون الخاطئ معذباً من خطاياه ومحترقاً من توبيخ الضمير يكون الشيطان شامتاً مسروراً لأنه استطاع أن يخدعه كل الطريق حتى سلمه الى الهاوية .

الويل لمن لا يتوب قبل حلول ساعة موته فإن ملائكة الله يقبلون وقتئذ عليه والغضب يتقدمهم ونار الله الآكلة ترافقهم فيستولى عليه الانزعاج والرعب ويحاول الفرار من فوق سرير احتضاره ولكن أنى تكون له القدرة على ذلك . حينئذ لا يجد لديه وسيلة إلا الندم والتوسل وهل يجدى الندم بعد العدم . يستغيث : ارحمونى . رحمونى ولا تحضرونى أمام الديان ونفسى مدنسة بالشرور والخطايا . ولا تفصلونى عن الجسد وأنا ملوث بالنتانة والخطيئة . اتركونى زماناً يسيراً لكى أتوب وأرجع الى الله . فتسمع نفسه صوت ملائكة الله قائلين لها (أيتها النفس الشقية . لقد صرفت أيامك كلها فى الكسل والتوانى والآن تريدين التوبة والنجاه إن ذلك من المحال لأن نجمك قد أفل وموتك قد دنا واقترب . الله يدعوك لتدانى على ما عملت فاخرجى أيتها النفس الخاطئة لتنالى عقابك . لأن وقت الخلاص قد انقضى وحبل الرجاء قد انقطع . وكل هذا اتماماً لقول الكتاب الالهى « كم ينطفئ سراج الأشرار ويأتى عليهم بوارهم أويقسم لهم أوجاعاً فى غضبه أويكونون كالتبن قدام الريح وكالعاصفة التى تسرقها الزوبعة . لتنظر عيناه هلاكه ومن حمة القدير يشرب » (أى ٢١ : ١٧ و ١٨ و ٢٠).

ما أعظم الحزن الذى يلحق الخاطئ بعد موته . ولو تجمع كل ذل فى العالم لما ساوى أسى الخاطئ وحرقته . فما أرعب الموت للنفس التى ليست فى المسيح إذ

يكون لها مضجع مملوء بالأنين ومنظر يفتت الأكباد وكلمات كلها مرارة وهى ترتعد كلما قربت من باب الجحيم فتسمع صراخ الأرواح المعذبة فيه وتلتفت الى تحت فترى الأبالسة فى العذاب الأبدى فى تلك الهوة الملتهبة وتتمنى أن تدفع كل ثروة العالم من أجل ساعة تعيشها ، ولكن وقد قبض الشيطان عليها فلا بد لها من النزول ، وهنا من يقدر أن يتصور عويل النفس الهالكة وهى تنحدر الى أعماق الجحيم . إن مقابر الجحيم الهائلة تتعجب وظلمة الليل الحالكة ترتعب حينما تسمع صوت عويل النفس الهالكة وهى نازلة وسط اللهيب المتصاعد .

كثيرون من الفلاسفة الكفار الذين عاشوا يدعون الناس الى الكفر والالحاد عندما دنت ساعة موتهم وشعروا بهولها ومرارة الكأس الحمام التى تقدم لمن يموتون فى الخطية اعترفوا بضلالهم وشر غواياتهم .

قال شارل التاسع (نيرون الحديث) وقت احتضاره : ما هذه الدماء . ما هذا القتل . هوة عميقة تريد أن تبتلعنى ، ياللهول لقد اتبعت مشورة الأشرار ، انى لا أعرف أين أنا ، انى مرتعش وخائف وركبتاى غير ثابتين ، ماذا أعمل انى هالك الى الأبد . أنا أعرف ذلك ومتأكد منه !

وفولتير بعد أن قضى حياته كلها فى الكفر والضلال مجدفاً على الله صرخ ساعة موته قائلاً : أيها المسيح ! الرب يسوع ! وكانت تخنقه العبرات و يبكى بكاء مراً لأنه أصبح متروكاً من الله والناس . ولم يستطع اطباؤه وأصدقاؤه أن يتحملوا هذا المنظر المؤلم فهربوا من حوله قائلين : إن آلامه وعذابه أشد مما رأينا فى زيارتنا لجميع المرضى .

وتوما بيشى الذى بذل كل جهده فى مقاومة الدين المسيحى ومحاربة من يبشر بالانجيل صرخ عند موته بألم شديد قائلاً : يارب ساعدنى ، يارب ساعدنى . يامن صلبت على عود الصليب ساعدنى .

والسير فرنسيس بنيبورت الكافر أصبح قبل موته بثلاثة أيام هيكل عظام بسبب شدة آلام نفسه لتجديفه على الله ، وكان يقول ساعة احتضاره هالك وملعون أنا الى الأبد لأنى طعنت المسيح بالحربة فى جنبه . جهنم تحتى والهلاك يحيط بى فمن

ينجينى ؟

وميرابو — عند موته — تبرع بمبلغ ثلاثة آلاف من الجنيهات لمن يبرهن له على عدم وجود جهنم ، كما أن شاسترس عند احتضاره طلب مخدراً ليزيل مخاوف العقاب من فكره .

كان « اتيان الن » جاحداً وكانت امرأته تقية فاضلة فلما دنا أجله وانطرح على فراش الموت وقربت ساعة انطلاقه من هذه الدار الفانية سأله أحد الحاضرين قائلاً : أتشتهى أن يتدين أولادك بدينك أو بدين أمهم ؟ فأجاب على الفور (بدين أمهم) وجرى مثل ذلك مع الدكتور بولس أحد كفرة جرمانيا المشهورين الذى كان ينكر وجود الخالق له المجد و ينكر المعجزات والوحى وخلود النفس ، فانه لما مرض مرض الوفاة قال (انى قريب من الموت وسينتهى وجودى) و بقى ينتظر الفناء بنفس لا تعرف العزاء ، إلا انه قبل موته بقليل بقى بضع ساعات لا يتكلم ولا يبدى حركة . وظن الحاضرون أنه لم يعد قادراً على الكلام ولكنه عاد وفتح عينيه وتطلع الى فوق كأنه يرى ما لا يراه إلا القريبون من أبواب الموت وحاول الجلوس ثم قال بهدوء حقاً توجد حياة أخرى ثم أسلم الروح .

وقال أحد العلماء الأشرار عند موته : سأترك جسدى فى القبر وروحى فى أعمق منه . وقال جورج الرابع ملك انكلترا عند احتضاره : ما هذا انه الموت يا ابنى . لقد خدعونى . فما أرهب أن يرى الانسان فى أخر دقيقة من عمره أنه قضى حياته فى سبيل البطل والضلال وأنه لم يبق له سوى توقع الهلاك المريع وعقاب الله الشديد .

فانظروا وتعجبوا فإن ذاك الذى كان بالأمس ذا هيبة وسطوة نراه اليوم مرتعداً فاقد السلطة والجاه وهو يتوسل بقليل من الرحمة ولكن ليس من يرثى اليه أو يعطف عليه ، ها هو بين مخالب الموت أسير ينوح يسكب دموعاً حارة يبكى إذا ما استعرض اهماله وقساوة قلبه وعدم ايمانه . يتألم و يتعذب عندما يتصور العذاب الذى سيحصده ، وظلام النار التى سيستقر فيها ، وهيئة الشياطين المخيفة التى سيجاورها فما يعمل فى تلك الساعة الرهيبة وكيف يتخلص من تلك الحالة المزعجة ؟ فماذا أشقاك وأتعسك يا من تهاونت فى أمر خلاصك ، انك الآن تتحقق أنك كنت مخدوعاً ومغروراً وانك سعيت باطلاً .

الفصل السابع عشر
فى أن توبة الخاطئ عند الموت لا تقبل غالباً

« أنا أمضى وستطلبونى وتموتون فى خطيئتكم » (يو ٨ : ٢١)

« الشرير يميت الشرير » (مز ٣٤ : ٢١)

إن الخطاة الأثمة يقضون حياتهم يعبدون الهاً غير الله و يسجدون لاله غير الله يحبون الهاً غير الله ولا يذكرون الله إلا حين شعورهم بقرب ساعة انطلاقهم اليه .. ولذلك لا يسمعون منه سوى القول المريع (انعطفوا الى الأشياء التى أحببتموها والخطايا التى ارتكبتموها واطلبوا منها الغوث والمعونة لأنكم عشتم لها وقضيتم حياتكم فى خدمتها).

آه . إن الناس يخشون الخطيئة ويخافون من عقابها ولكن علة تجاسرهم على السير فيها هو توهمهم انهم يتوبون حال الموت وإن توبتهم تقبل منهم . قبل أن يلفظوا النفس الأخير يقولون لله أخطأنا ، و يعتبرون ذلك كافياً لخلاصهم ولم يسمعوا قول الله الرهيب « فاذكر خالقك فى أيام شبابك قبل أن تأتى أيام الشر أو تجيء السنون إذ تقول ليس لى فيها سرور » (جا ١٢ : ١).

وكأن لسان حال الخاطىء الذى يؤجل توبته للساعة الأخيرة أو لحين الشيخوخة يقول (اللهم انى أعدك بأن أتوب عن الشر ولكن متى عدمت قوتى ولم يبق لى وقت لأغيظك فيه . وسأخلص اليك المحبة ولكن متى عجزت عن التصرف بها فى ما يلذ حواسى . وسأندم على اهانتى اليك ولكن متى ضعفت ولم تعد لى قوة للاستمرار فى اهانتك . وسوف اعترف وأقر بأننى أخطأت إذا ما ربطت يداى ورجلاى عن السير فى طريق الخطيئة ــ ياغبى . انك لا تتهاون إذا دعيت لوليمة أو

إذا فتحت أمامك أبواب للربح . انك تجد لتحصل على كل شيء إلا على رضى الله . فكيف تتلمس الرضى حين موتك ، وأنت لم تسع اليه قط فى حياتك ؟

لو إن حصانا جمح من صاحبه وركض هارباً حتى اعترضه نهر فوقف ، فهل من الصواب أن نظن أنه قصد بوقوفه تمكين صاحبه من مسكه ؟ ألا يطبق هذا المثل على من يركض طول حياته وراء شهواته حتى إذا ما اعترضه الموت طلب الرحمة ؟. قال أحد الآباء (من تتركه الخطايا قبل إن يتركها لا يعتبر راغباً عنها بمحض اختياره ، بل يعتبر محروماً منها رغم ارادته) والدليل على ذلك إن كثيرين ممن أصيبوا بأمراض خطيرة أظهروا التوبة لأنهم ظنوا أن ساعة موتهم قد اقتربت ، وما إن عادت اليهم الصحة حتى رجعوا الى سابق عهدهم من معاداة الله . فلم تكن توبتهم أذن عن كره فى الخطيئة بل خوفاً من انتقام العدل الالهى . وتوبة كهذة لا تقبل مطلقاً . نعم إن الله وعد بقبول الخطاة حين يرجعون اليه تائبين . ولكن توبة الخاطئ فى ساعة موته لا تعتبر توبة حقيقية صادقة مقبولة لأنها إنما هى توبة اضطرارية ناتجة عن الخوف الشديد . إن شمعى الذى سب داود الملك مرة رجع وطلب منه السماح لما وقع تحت يده ، لكن داود مع كونه اطلق سبيله كلف ابنه سليمان بقتله (٢ صم ١٦ ، ١ مل ٢ : ٨ و ٤٦).

هكذا كثيرون من الناس على هذه الصورة . لما يجدون أنفسهم قد وقعوا تحت يد الله القوية يتوبون توبة اضطرارية ولكنها لا تقبل منهم لأنها جاءت بعد فوات الفرصة وفى ساعة ضيقة لا تمكنهم من الاستعداد لها كما ينبغى .

إن من لا يحب الله فى حالة الحرية وسعة الوقت يكون أقل حباً حين يحضره الموت و يرى جهنم فاغرة فاها لابتلاعه . إن مقاساة الأوجاع والأمور الناتجة عن الحزن تؤثر على قوى النفس ولا تدعها تملك عواطفها فكم بالحرى رهبة الموت وهى أشد تأثيراً لأنها تهد أركان العقل قال الحكيم « ليس لانسان سلطان على الروح ليمسك الروح ولا سلطان على يوم الموت » (جا ٨ : ٨).

فمن يظن أن توبته فى حالة مرض الموت تقبل منه إنما يتوهم المستحيل . لأن المريض يكون دائماً مشغولاً فى أحوال مرضه . اليوم الحمى شديدة . غداً تتنازلت

قليلاً . أمس شعر بخفة المرض ونام مستريحاً . واليوم ثقل المرض عليه وقضى الليل أرقاً . هذا الدواء أفاد وغيره لم يفد ، وهكذا يستعرض أحوال مرضه حتى يبغته الموت .

إذا كان رئيس السفينة جباناً ولا يمكنه أن يسيرها فى حالة اعتدال الطقس فكيف يمكنه أن يدفعها للسير والطقس فى تقلب ؟ هكذا إذا لم يعمل الخاطئ للتوبة وهو فى حال الصحة فكيف يجاهد فى سبيلها وهو فى حال المرض والضعف واضطراب الفكر . هذا . وغير خاف أيضاً أن البعض لا يطول معهم المرض ، والبعض لا ينذرهم بالموت مرض يسبقه فقد يموتون بغتة بانفجار أو بداء السكتة القلبية ، والحاصل إن كثيرين فكروا فى التوبة ولكنهم أرجأوها الى ما قبل الرحيل فانقضى العمر ولم ينتهزوا الفرصة ثم انقض الموت عليهم بغتة وهو بهم الى جهنم وهم الآن فى عذاب أبدى وحسرة لا نهاية لها .

إن الملك القوى إذا أراد الاستيلاء على المدينة يفاوض أهلها أولاً باللين فإذا رفضوا التسليم له حاصر المدينة بغير رحمة واستولى عليها بقوته الغاشمة . هكذا الخاطئ الذى يرفض فى حياته نعمة الله وعدله فان الرحمة تنساه إذا طلبها وهو فى طريقه الى الجحيم .

أنتم ترفضون الصلح معه فى الوقت الذى يطلبه منكم ، فهو أيضاً يأبى أن يرتضى بمسالمتكم حين يأتى وقت تطلبونه فيه مكرهين . وهو القائل « أنا أمضى وستطلبوننى وتموتون فى خطيئتكم » أى انسان يغفل عن نجاة نفسه قصداً وتعمداً وأى انسان محبوس فى سجن ضيق يمكنه أن يحل القيود من رجليه ومع ذلك يتباطأ ؟ وأىّ مريض يعطى له دواء مفيد ولا يستعمله ؟

ما أجهل الانسان الذى يشعر انه يكسب الخلاص عندما يحضره الموت بمجرد لفظة يجود بها ! وما هى إذاً قيمة قول بطرس الرسول « وإن كان البار بالجهد يخلص فالفاجر والخاطئ أين يظهران » (١ بط ٤ : ١٨) وما هو معنى قول الرسول بولس « انه بضيقات كثيرة ينبغى أن ندخل ملكوت الله » (اع ١٤ : ٢٢) أو ما قاله مخلصنا الصالح « ما أضيق الباب وأكرب الطريق الذى يؤدى الى الحياة » (مت ٧ : ١٤).

فالانسان الذى يهدئ روع ضميره بقوله (سأتوب عندما يقترب الموت) يمثل دور قايين لأنه حزن على قتل أخيه ولكن بعد أن سمع أنه سيكون مطروداً مهاناً (تك ٤ : ١٢ و١٣) وكحزن هاجر على اغضاب مولاتها ولكن بعد أن سمعت الأمر بطردها (تك ١٦) وكتوبة شاول حينما ندم على عدم قتله العمالقة بعد أن علم أنه من أجل ذلك سيفقد الملك (١ صم ١٥) هكذا يقول الله لكل خاطئ يريد التوبة عند الموت : أنت لم تتب لأنك تحبنى أولأنك تكره الخطيئة بل لأن الخطيئة ستتخلى عنك ، وجهنم تستعد لابتلاعك .

انهم يريدون الآن أن يخلعوا ثوب الشر القذر و يلبسوا ثوب البر المقدس ، لا كرهاً فى الشر ولا حباً فى البر . بل لأنهم رأوا أن حالتهم الحاضرة المؤلمة يزيدها الشر ألماً ، والبر يزيل خوفها فهم أشبه بجسم متن حلى بأجمل اللباس .

إن شمشون الذى كان يقوى على كل خطر عندما كان مع الله وكانت نعمة الله معه ، لما رأى أن الله خلصه مراراً من أيدى دليلة التى سقط فى حبائلها إغتر بالأمل معتقداً بأن لا خطر من استمرار سقوطه لأن الله فى كل مرة يخلصه . وهذا هو نفس الأمل الذى يخدع الخطاة فانهم يتصورون أنه لا يأتى يوم فيه يتخلى الله عنهم كما تخلى عن شمشون . فشمشون إذ أعطاه الرب قوة بعد أن أوثقته دليله مرة واثنتين وثلاثاً ليمتحن ظن أنه إذا باح لها بسر قوته ينجو أيضاً لأنه قال « أخرج حسب كل مرة وانتفض . ولم يعلم أن الرب فارقه » (قض ١٦ : ٢٠) وهكذا كثيرون إذا أوقعتهم خطاياهم فى بلية يقولون : عندما ينقذنا الرب منها نعيش له . فإذا أنقذهم منها يعودون بخطاياهم اليها و يقولون كما نجونا منها فى المرة الأولى ننجو فى المرة الثانية وهكذا الى أن تنتهى الحياة وعندئذ يقولون « خلصنا يارب فلا نعود للخطيئة » فيقول لهم (لم يبق بعد زمان لكم لتعودوا للخطية ، ولكنها لاصقة بكم وستموتون بها) كثيرون هم أولئك الذين لا يستعدون للموت ارتكاناً على أن الخطية هينة وأن الله لا يتركهم ، و يظلون على هذا الوهم حتى تأتى ساعة الموت فيعرفون أن الله كان بعيداً عنهم وأن الشيطان خدعهم كشاول ملك اسرائيل الذى ذهب يطلب الرب فسمع صوت صموئيل النبى يقول له « لماذا تسألنى والرب قد فارقك وصار عدوك » (١ صم ٢٨ : ١٦).

وهل تظن أيها الخاطئ الذى داومت على ارتكاب الخطيئة وألفتها نفسك طول حياتك انك تجد طريقة للخلاص منها فى لحظة من الزمان ؟ قيل عن مترايداطس المتمرد المشهور انه كان مواظباً على استعمال العشب المسموم المسمى (سوكران) غذاء له وكان يأكله على الدوام فصار ذلك العشب مألوفاً عنده حتى إذا أراد يوماً الانتحار للتخلص من مصيبة داهمته طلب ذلك العشب وأكل منه بكثرة فلم يؤثر فيه ولم يبلغه مناه . وهذا الأمر عينه يعرض للخاطئ المسكين فانه لاستمراره على ارتكاب الخطيئة كل يوم تصير فى شخصه طبيعة ثانية بحيث لا يمكنه أن يتخلص منها عند دنوه من حافة القبر ولا تفيد الارشادات والنصائح فى ازالة ما ثبت فيه من الشر لأن تأثيرها فى نفسه يخف شيئاً فشيئاً لكثرة تكرارها حتى يضمحل أخيراً . فالذين يسكنون بقرب مطحنة ذات جعجعة قوية ونهر دائم الخرير أو بحر كثير الهيجان يعلمون بالاختبار أن الصوت الذى كان يزعجهم فى أول الأمر تخف وطأة تأثيره لديهم لكثرة تعودهم على سماعه حتى يصبحوا لا يشعرون به . هكذا حقائق الدين كلما تكرر رفضنا لها ضعف تأثيرها فينا حتى نشرف على الموت وقد فقدنا تأثيرها بالكلية ولم يبق إلا تأثير الخطيئة .

فالتوبة للخاطئ المدنف إذا أشبه بالحجر الثقيل لذى اليدين الضعيفتين . وما هو ذلك الحجر الثقيل ؟ هو ملكاته الرديئة المستحيلة الى طبعه .

وهل تظن أيها الخاطئ التعس أنك إذا ملت للأفكار المقدسة يسكت عنك ابليس وهو يعلم أن أوان رحيلك قد دنا ؟ أنه يجمع كل قواه حتى لا تفلت من يده تلك النفس التى تملك عليها طيلة أيام حياتها . إن آخر يوم فى الحروب هو أشدها هولاً لأن فيه ينتهى كل شئ ، فآخر أيام حياتك أشد أيامك هولاً والشيطان يزيدك فيه رعباً وخوفاً . قال الرائى « لأن أبليس نزل اليكم و به غضب عظيم عالماً أن له زماناً قليلاً » (رؤ ٢١ : ١٢).

إن اعتماد الانسان على رحمة الله مع استمراره فى ارتكاب الاثم وهم باطل ، لأنه إذا كان الله رحوماً فلا ينبغى أن تكون رحمته خاصة بانسان دون كل البشر فرحمة الله عامة للكل فلورحم انساناً قضى حياته فى الشر والاثم لكان ذلك منه

قساوة على كل البشر ولامتلأت الدنيا من الشر لأنه إذ يرى كل انسان أن الله قبل الخاطئ بعدما قضى حياته بعيداً عنه فانه يسلك هو أيضاً هذا السبيل لينال حظه من العالم ولا يمنعه ذلك من أن تكون له الحياة الأبدية بمجرد قوله ساعة الموت (اللهم اغفر لى)!!

قال أحدهم لقد رفض الله أن تقدم له ذبيحة من أحد هذه الطيور البوم والغواص والكركى (لا ١١ : ١٧) وذلك لأن الأول يختفى فى النهار و يظهر فى الليل ، والثانى يظل حياته ساكتاً ولا يصيح بصوت عذب إلا عند موته ، والثالث له رائحة فم كريهة طالما كان حياً وعند موته تتحول الى عرف زكى وعلى هذا المنوال ترفض توبة الخاطئ المحتضر لأنه لم يعمل لها فى نهار الحياة ولكنه طلبها فى ليل الموت ولأنه أهمل طلب الرحمة فى حياته والتمسها فى ساعته الأخيرة ، ولأنه أرسل من فمه وهو حى رائحة التجديف النتنة على اسم الله ولم يفكر فى عبادته إلا وهو يلفظ النفس الأخير.

أن كثيرين إذا سمعوا هذا الكلام أجابوك فوراً : وما هو قولك فى اللص اليمين . ألم يخلص فى آخر نسمة من حياته ؟ ياللغباوة . كم من المواعظ سمع اللص . انه لم تطرق أذنيه ولا كلمة واحدة من كلام الله . وفى يقينى أن اللص أتى ما لم يأته أعظم القديسين . لأن ايمانه الذى به خلص كان عظيماً للغاية . أنه آمن بالمسيح ولكن ليس وهو يصنع المعجزات و يأتى العجائب بل آمن به وهو معلق على عود الصليب نظيره . انه آمن قبل أن تحدث الزلزلة التى برهنت على لاهوت ابن الله إن التلاميذ كلهم قد هربوا وضاع رجاؤهم إذا رأوا المخلص معلقاً على الصليب . أما اللص فقد أعلن ايمانه به وهو يراه مهاناً من الجميع . فهل لم يكن حقاً عظيماً ايمان مثل هذا ؟

هب أن الله قبل اللص فى آخر حياته فهل لا تخشى أن يكون مصيرك الهلاك إذا اعتمدت على هذا الأمل ؟ لقد سمعت أن يونان النبى طرح فى البحر فابتلعه الحوت ثم قذفه على الشاطئ حياً (يون ١ : ١٠) فهل تدفع بنفسك فى البحر على أمل أن تنجو كما نجا يونان . لقد سمعت أن الفتية الثلاثة طرحوا فى أتون النار ولم

يحترقوا ، فهل تطرح نفسك فى النار وأنت تأمل النجاة مثلهم ، و يوسف الصديق نال الوزارة فى مصر بعد أن ألقى فى الجب فهل تتوهم أنك إذا طرحت نفسك فى جب تصل الى منصب الوزارة . فلا ينبغى إذاً أن تستند على ذلك اللص الذى عاش خاطئاً وقبل ، فشتان بين حالتك وحالته ، تذكر يهوذا الذى ندم وقال « أخطأت » ثم لشدة تأثره مضى وخنق نفسه ومات هالكاً (مت ٢٧ : ٤ و ٥) وقال شاول الملك أخطأت (١ صم ١٥ : ٣٠) وقال فرعون المتقسى « أخطأت » (خر ٩ : ٢٧) وقال بلعام « أخطأت » (عد ٢٢ : ٣٤) ولكن هؤلاء كلهم هلكوا لأن توبتهم لم تكن صحيحة لأن الخاطئ المائت إذا بكى فليس على خطيئته بل على عقابها . إن منح المخلص الخلاص الى اللص كان امتيازاً خصوصياً نظراً للزمان والمكان والظروف الملابسة ، وقد لحظ القديس أوغسطينوس أن المسيح سلك مع اللص سلوك طبيب تخرج فى احدى المدارس العليا وهو يريد أن يشهر براعته ففتش على أسقم مريض و وهبه الصحة مجاناً و به نال شهرة فائقة . فلا يصح فيما بعد أن يأتى كل مريض و يطلب منه الشفاء مجاناً . فيسوع المسيح أراد أن يعلن فرط رحمته للخطاة فشفق وخلص أشرهم فلا ينبغى أن تعتمد أنت على ذلك راجياً أن يخلصك فى آخر حياتك كما خلصه وإلا انتقلت الفضيلة من العالم وكانت المكافأة فى السماء على الرذيلة طول الحياة مع كلمة وجيزة يقولها الانسان عند الموت . قال القديس أوغسطينوس أيضاً : إن السيد المسيح خلص اللص لئلا ييأس أحد وقد جعله وحيداً لئلا يطمع أحد . وإذا أردنا أن نستفيد حقاً فلا نجعل لأنفسنا عيناً واحدة فقط ننظر بها اللص الأيمن بل لنجعل لنا عينين نرى بالواحدة اللص الأيمن و بالأخرى الأيسر . فلماذا تنظرون لخلاص اللص الأيمن ولا تنظرون لهلاك اللص الأيسر ، عن يمين المخلص خلص واحد وعن يساره هلك واحد . فلماذا تعتمد على حالة الذى كان عن يمينه ولا تعتبر من حالة الذى كان عن يساره . أنظر الى هذا اللص الأيسر فانه كان يشاهد الزلزلة العظيمة التى حدثت حين الصلب و يرى تزلزل الصخور وتشقق الأحجار وقيام الأموات من القبور حتى أن قائد المائة والذين كانوا معه يحرسون يسوع لما رأوا الزلزلة وما كان خافوا جداً وقالوا حقاً كان هذا ابن الله (مت ٢٧ : ٥١ ــ ٥٤) ولكنه مع ذلك لم يؤمن ، فهل تنتظر عند موتك أن يقدم لك الله أدلة على لاهوته أكثر من ذلك ؟

وأية قدرة تكون لك حينئذ أيها الخاطئ على عمل الصلاح الذى تبرهن به على توبتك لأن يوحنا المعمدان يقول « فاصنعوا أثماراً تليق بالتوبة » (لو ٣ : ٨) قال القديس أوغسطينوس : هذه هى العقوبة العادلة على الخطيئة . وهى أن الخاطئ لا يريد أن يصنع خلاصاً حينما يكون قادراً عليه . وإذا أراد بعد أن يصنعه فتزول منه القدرة على صنعه .

قال أحدهم « إن الذى لا تدرك أحكامه من عادته أن يعلق مبدأ القداسة أو خلاص الناس على فعل ما هو صالح زهيد لا اعتبار له فإذا فعلوه يمنحهم ـــ جلت مكارمه ـــ فيما بعد نعمة فائقة و يصونهم صوناً خصوصياً حتى أنهم يبلغون الى نعيم الملكوت لا محالة وإذا تغاضوا عن فعله يعدمهم التأييدات الخصوصية والنعم الوافرة التى حسب رأى العلماء اللاهوتيين لا يلتزم تعالى أن يعطيها للبشر، و يتركهم يتبعون أراءهم الخادعة فيهلكون . قال له المجد « لأنهم مبصرين ولا يبصرون وسامعين ولا يسمعون ولا يفهمون » (مت ١٣ : ١٣) فهم أشبه بميت فى قبره مقيد اليدين والرجلين معصوب العينين . فالخاطئ لا يقدر أن يتوب حين وفاته لأنه يكون حينئذ مشدود العينين بعمى روحى يجعله يجهل الله أكثر مما كان يجهله فى حياته .

فلا يستطيع أحد أن يخلص ما لم تساعده نعمة الله . . وأما الذى يرذل هذه النعمة فى حياته فإن الله يرفعها عنه حين مماته حتى لا يقوى على التوبة والخلاص مهما طلبها بدموع .

قال المخلص « صلوا لكى لا يكون هربكم فى شتاء » (مت ٢٤ : ٢٠) فإذا كان الشتاء غير مناسب للسفر من جهة لأخرى فإن ساعة الموت أكثر عدم ملائمة للسفر الى الحياة الأبدية . ونضرب لكم بعض الأمثلة . يوليانوس الملك الجاحد الذى كفر بالسيد المسيح واضطهد قديسيه وحاول أن يبنى الهيكل ليكذب نبوته خرجت نار من الأرض وصدمت ما بناه ومع ذلك لم يرتدع بل حينما سار الى حرب الفرس تعهد بابادة المسيحية بعد رجوعه ولكنه طعن فى قلبه برمح أفقده الحياة وشعر بقوة من اضطهده إلا أنه لم يؤمن بل أخذ فى دمه السائل من صدره ونثره فى الجو

وصرخ قائلاً « لقد غلبت أيها الجليلى ».

حكى عن شاب تعلق قلبه بفتاة تعلقاً شديداً حتى نقلها الى قصره وعاشرها مدة حياته دون أن يسمع نصيحة أو يقبل ارشاداً ولما أدركه المرض واشتد عليه ، زاره أحد خدام الله فسأله ماذا ينبغى أن أفعل لأخلص فسربه الخادم وأخذ يطلب منه أن يفى ديونه و يرد ما لديه من الودائع لأصحابها و يغفر لمن أساء اليه فقبل أن يجرى ذلك بكل سرور ولا توان ثم طلب منه أخيراً أن يطرد عنه الفتاة . حينئذ تأوه وقال له « لقد صعبت على الأمر وطلبت منى ما لا أستطيع اجابته » فأخذ يحسن له طردها حتى لا يخسر نفسه فأجابه « لا أستطيع » فهدده بعذاب جهنم . فأجابه « لا أستطيع » فشوقه الى سعادة السماء فأجابه « لا أستطيع » وهكذا أخذ يعده و يتوعده وهو يجاوب « لا أستطيع » الى أن قال بلهجة الاصرار قلت ولا زلت أقول « لا أستطيع » ثم جمع قواه الضعيفة الباقية وقبض على ساعد تلك الشقية وقال لها بصوت مرتفع « كنت عزى فى حياتى وستكونين كذلك فى مماتى » ثم اجتذبها بعنف وضمها الى صدره واحتضنها وقبلها . وفى الحال اشتد عليه المرض ثم اضطربت حركة قلبه وفاضت روحه الهالكة الى جهنم .

وكان أحد الخطاة الغارقين فى الرذيلة إذا نصحه أحد أصدقائه أن يتركها كى لا تهلك نفسه أجابه ياصاح إن الذهاب الى جهنم حسن من أجلها . وشارل الثانى ملك انجلترا قال وهو يحتضر « لا تدعوا نلى المسكينة تموت جوعاً » (اشارة الى حبيبته نلى جو ين) و برنر الشاعر الانجليزى لم يذكر عند موته سوى عدوه مانثيو بن المحامى الذى طالبه بالدين وهدده بالسجن فلم يقل سوى ذلك اللعين مانثيو بن ».

هكذا يهلك الخطاة وإذ يقول واحد منهم لله سامحنى يجاو به متى عودت لسانك على قول هذه العبارة التى ما لفظتها قط فى حياتك وقد طلبت منك مراراً أن تقولها فكنت تأبى بقساوة شديدة ؟.

قيل عن رجل شقى أشرف على الموت وكان أحد الجالسين حوله يطلب منه إن يطلب المغفرة من الله فقال له « كيف يسوغ لى هذا ولى أربعون سنة وأنا أرفض

التوبة ».

فإحذر أيها الخاطئ ولا تعلق توبتك على أى وقت غير « الآن » و « والآن » و « الآن » فقط .

الفصل الثامن عشر
فى أن يوم الموت يأتى بغتة

« لا تفتخر بالغد لأنك لا تعلم ماذا يلده يوم » (ام ٢٧ : ١)

قال أحد الحكماء « ليس شئ أكيداً مثل الموت ، أما وقت مجيئه فلا شئ مجهول نظيره ». وقال القديس أوغسطينوس « إن الله أظهر حسن حكمته خاصة فى أنه أخفى عنا معرفة يوم موتنا ليلزمنا بحسن التصرف كل أيام حياتنا والالتصاق بالقداسة ، لأننا لو نحصل على اليوم الذى نموت فيه لكنا لا محالة نتقاعد عن أعمال التوبة ومباشرة الأعمال الصالحة ونؤخرها الى السنة الأخيرة من حياتنا ، ومن السنة الأخيرة الى الشهر الأخير ، ومن الشهر الأخير الى الاسبوع الأخير ، ومن الاسبوع الاخير الى اليوم الأخير ، ومن اليوم الأخير الى الساعة الأخيرة ، وهكذا نؤجل حتى نفقد خلاصنا بالكلية » ولهذا قال السيد « فكونوا أنتم إذاً مستعدين لأنه فى ساعة لا تظنون يأتى ابن الانسان » (لو ١٢ : ٤٠).

وقال الرسول بولس « إن يوم الرب كلص الليل هكذا يجىء . لأنه حينما يقولون سلام وأمان حينئذ يفاجئهم هلاك بغتة كالمخاض للحبلى فلا ينجون » (١ تس ٥ : ٢ و ٣) وقال الرب لملاك كنيسة ساردس « كن ساهراً وشدد ما بقى الذى هو عتيد أن يموت لأنى لم أجد أعمالك كاملة أمام الله . فإذكر كيف أخذت وسمعت واحفظ وتب فإنى إن لم تسهر أقدم عليك كلص ولا تعلم أية ساعة أقدم عليك » (رؤ ٣ : ٢ و ٣).

وقال المخلص أيضا « طوبى لأولئك العبيد الذين إذا جاء سيدهم يجدهم ساهرين .. وإن أتى فى الهزيع الثانى أو أتى فى الهزيع الثالث ووجدهم هكذا

فطوبى لأولئك العبيد » (لو ١٢ : ٣٧ و ٣٨). كانوا فى تلك الأيام يقسمون الليل الى أربعة هزع . وعمر الانسان يشبه بالليل و يراد بالهزيع الأول سن الصبوة و بالثانى سن الشبوبية و بالثالث سن الرجولية و بالرابع سن الشيخوخة فيريد المخلص أن نكون مستعدين ومستيقظين فى كل هزيع أى فى كل سن و وقت من حياتنا لئلا يأتى بغته فيجدنا نياما (مر ١٣ : ٣٦).

إن الله لأجل خيرنا أخفى عنا معرفة ساعة موتنا وذلك لنستعد لمجيئه كل حين : وحيث أن الموت ممكن إن يجئ فى كل مكان وفى كل زمان فالمطلوب منا أن ننتظره هكذا . قال الحكيم « لأن الانسان أيضاً لا يعرف وقته » (جا ٩ : ١٢) قال داود عن ابنه الذى مرض وصلى لأجله « لأنى قلت من يعلم . ربما يرحمنى الرب ويحيا الولد » (٢ صم ١٢ : ٢٢) فنحن لا نعلم إذاً متى نموت ، ولكننا نعلم جيداً اننا لابد أن نموت .

ومع إن الجميع يعلمون جيداً أنهم لابد يموتون إلا إن ابليس ما برح يغرى الكثيرين موهماً اياهم إن الموت بعيد عنهم حتى يزيل ذكره من أفكارهم بالكلية وهكذا ترى الشيوخ الذين طعنوا فى السن ، والمرضى الذين انهكت الأوجاع قواهم يخدعون انفسهم بطول العمر وامتداد الزمن ، ولكن أيها الأغبياء . كم وكم عدد أولئك الذين شاهدناهم وجالسناهم وصاحبناهم وعلى يقين منا ماتوا غفلة بدون أن يلفظوا لنا كلمة وداع . أدرك الموت بعضهم فجأة بينما كانوا جالسين . و بعضهم بينما كانوا سائرين وآخرين بينما كانوا فى فراشهم نائمين . ومما لا ريب فيه أن أحداً منهم لم يكن يخطر بباله أنه سيموت أو يضمحل بغتة على الطريقة التى مات بها .

بل وكم عدد أولئك الذين كانوا يحسبون حساب السنين المستقبلة ولم يدعهم الموت يلفظون الألفاظ الأخيرة . أمثال ذلك الغنى الغبى الذى بينما كان يحسب المستقبل قيل له « ياغبى فى هذه الليلة تطلب نفسك منك ».

فالموت أمر محقق ، والزمان الذى ينقضى أجلك فيه غير معروف ، فعليك إذاً أن تكون دائماً ساهراً . وجدير بك أن تتدبر أحوالك وتجعل كل يوم كأنه اليوم الأخير لك فى هذه الحياة . كثيرون يبنون بيوتاً ولا يسكنونها وآخرون يذخرون ذخيرة السنة

المقبلة ولا يدركونها . وغيرهم يصرفون أفكارهم الى الزمان الذى لا يضمنون الوصول اليه و يتغافلون عن التأهب للموت الذى يعرفون ان لابد منه « وإنما نهاية كل شئ قد اقتربت . فتعقلوا واصحوا للصلوات . اصحوا واسهروا لأن ابليس خصمكم كأسد زائر يجول ملتمساً من يبتلعه هو » (١ بط ٤ : ٧ ، ٥ : ٨).

فإذا كنت تحرص على الأشياء التى لا تضمنها فكيف لا تحرص على ذاتك مع علمك الأكيد بموتك ؟ لماذا تهتم بالظل الزائل ولا تبالى بالحقيقة الثابتة ؟ إن أيام حياتك غير معروف عددها ، ولكن زوالها واضمحلالها أمر لا ريب فيه ، فإذا لا تهتم بما لا تعلم حقيقته بل كن مستعداً لساعة الموت التى تتأكدها وهيئ لك زاداً للطريق « كل ما تجده يدك لتفعله فافعله بقوتك لأنه ليس من عمل ولا اختراع ولا معرفة ولا حكمة فى الهاوية التى أنت ذاهب اليها » (جا ٩ : ١٠).

قال سليمان الحكيم « الكل على ما للكل . حادثه واحدة للصديق وللشرير ، للصالح وللطاهر وللنجس . للذابح وللذى لا يذبح . كالصالح الخاطئ . الحالف الذى يخاف الحلف . هذا أشر كل ما عمل تحت الشمس إن حادثة واحدة للجميع وأيضاً قلب بنى البشر ملآن من الشر والحماقة فى قلبهم وهم أحياء و بعد ذلك يذهبون الى الأموات . لأنه من يستثنى . لكل الأحياء يوجد رجاء فإن الكلب الحى خير من الأسد الميت . لأن الأحياء يعلمون أنهم سيموتون . أما الموتى فلا يعلمون شيئاً وليس لهم أجر بعد لأن ذكرهم نسى . ومحبتهم و بغضهم وحسدهم هلكت منذ زمان ولا نصيب لهم بعد الى الأبد فى كل عمل تحت الشمس » (جا ٩ : ٢ ــ ٦) ومع ذلك نجد الكثيرين ينشغلون بالملاهى مع علمهم بأن الزمن قصير . ومع أن التوعدات رهيبة فهم معرضون عنها و يأملون إن يعيشوا مئات السنين . فإن كنت ياغبى لأجل نوال خير زمنى تهجر النوم وتهمل تناول الطعام مخافة إن يضيع عليك الوقت فما بالك لا تطرح عنك كل اهتمام أرضى وتصرف هذه الحياة القصيرة فى ربح الحياة الدائمة .

فاجتهد وأعمل ولا تكن متواكلاً متغافلاً إذ لست تعلم زمان نهايتك فلا تنخدع وتصرف هذا الزمان فى آمالك الباطلة ورجائك الكاذب بقولك « اليوم »

أو « غداً » فربما يدركك ما أدرك العذارى الجاهلات اللواتى كان لهن زمان أضعنه فى الأمل الكاذب وطلبنه أخيراً بدموع ولم يجدنه (مت ٢٥) فلا تستند على ما يأتى من الزمان ولا تلتمس عمراً طويلاً وإنما أطلب أن تكون عيشتك مرضية لله تعالى فلا تهتم بالسنين الكثيرة بل بالسنين الصالحة . ذكر الكتاب عن شاول الملك أنه « ملك سنتين » (١ صم ١٣ : ١) مع أنه ملك عشرين سنة . ذلك لأن الوحى أسقط المدة التى قضاها شاول فى شروره وارتكاب الخطايا والآثام كأنها ليست من عمره . إن كل ما تضيعه من العمر فى شرورك وأهوائك لا يحسب لك ، بل عليك .

فإسرع من الآن وإعمل الصالحات ولا تؤجل عملاً منها فإن جهنم مزدحمة بكثيرين ممن أخروا توبتهم . أولئك الخطاة الذين باغتهم الموت فى وقت تمتعهم باللذات الموهومة فهوى بهم الى قرار الجحيم حيث النار التى لا تطفأ والدود الذى لا يموت .

فى مثل هذا اليوم من العام الغابر كان معنا أناس ، نفتش عنهم الآن فلا نجدهم ، لقد تركونا وسكنوا القبور المظلمة ، ليتهم يقومون الآن و يأتون الينا ليعرفونا قيمة هذا الزمن الذى نصرفه فى الاهتمام بالأباطيل كم يتندون الآن على كل دقيقة لم يصرفوها فى عمل ما يرضى الله ، ليت أحدهم يقوم فينا خطيباً ليشرح لنا غباوتنا فى التهاون و يرينا أنه لو أتيح له الرجوع الى العالم مرة أخرى لما ترك دقيقة واحدة دون أن ينفقها فى عمل يتمجد به اسم الله .

فما أجهل الذى يؤجل عملَ اليوم الى الغد . إن أهل نينوى يعطون درساً بليغاً للمتغافلين ، فانهم حينما سمعوا الانذار بهلاك مدينتهم بعد أربعين يوماً لم يقولوا لنصبر حتى آخر يوم وحينئذ نتوب بل اسرعوا بالتوبة . فمن يترك نفسه خاطئاً على أمل التوبة بعد حين أشبه بمن يحاول أن يرقص على فم هوة عميقة ، أو بمن يريد أن يجرب فعل السم فيشرب منه قليلاً ، أو بمن يدوس على الشوك ليعرف مقدار ألمه كثيرون يخاطرون باللعب والانهماك فى اللذات وهم على باب القبر وعلى فم الهاوية .

إن الآخرة معلقة بدقيقة واحدة و يظن الأغبياء أن هذه الدقيقة هى دقيقة الموت فقط فيصرفون دقائق حياتهم فى خدمة العالم منتظرين دقيقة الموت ليتوبوا فيها . ولعمرى انهم حقاً جهلاء إذ يظنون إن خلاصهم الأبدى يتم بسهولة بدون احتراس بينما الرسول بطرس يقول « لذلك بالأكثر اجتهدوا أيها الأخوة أن تجعلوا دعوتكم واختياركم ثابتين » (٢ بط ١ : ١٠) و يقول الرسول بولس « تمموا خلاصكم بخوف ورعدة » (فى ٢ : ١٢) وإذا قارنا بين حال أولئك الذين عاشوا يقاومون عواطفهم الجسدية وجاهدوا جهاداً عنيفاً ضد العالم ، وحالنا نحن الذين نعيش عيشة التنزه والتبرج فهل نعتبر أنفسنا مسيحيين والصوت الالهى يقول « إن كان البار بالجهد يخلص فالفاجر والخاطئ أين يظهران » (١ بط ٤ : ٨).

إن الله لا يحب إن يرانا فى حالة الاهمال ولذلك لا يفتأ يبين لنا عظم خطر هذه الحالة وكيف ان سيوف الموت مسلولة فوق رقابنا وسهامه الملتهبة الحادة مسددة الى صدورنا . فعليك إذاً أن تحاسب نفسك على تصرفاتك فى ايام حياتك قبل ان يحاسبك عليها الديان . هل هيأت نفسك واعددت ذاتك ؟ أمامك هذا الوقت فهو كاف لأن تصلح فيه أمورك لا تهتم بالغد لأن الغد ليل بهيم لا تعلم ما هو مخبأ فيه . إذا كان لك دين على أحد أفلا تسرع لتقاضيه مخافة أن تموت فيضيع مالك ؟ فلماذا لا تحرص هذا الحرص على نفسك ؟ ولماذا لا تقول « يجب على أن أتوب الى الله فربما أموت حالاً إذ الموت والحياة فى يد الله » أليست نفسك ذات قيمة فى نظرك كالدراهم والدنانير؟ ألم تسمع قول السيد له المجد « لأنه ماذا ينتفع الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه » (مت ١٦ : ٢٦) فلو كان لديك كل غنى العالم ولكنك خسرت نفسك فأنت فقير و بائس . ولكن إذا ربحت نفسك وكنت مجرداً من كل غنى ومجد عالمى فأنت سعيد وغنى .

تدبر فى نفسك تفهم لماذا أخفى الله عنا معرفة يوم الموت ؟ ذلك لكى نكون على الدوام متذكرين انقضاء حياتنا وزوالها ولكى نتوقع الموت كل حين . وهذا التوقع يجعلنا إن نحفظ انفسنا من الزلل وإن ننظر الى العالم كشئ زائل ، وهوذا الكتاب ينبهنا لماذا تتغافلون . قائلاً هل انكشفت لكم أبواب الموت أوعاينتم أبواب ظل الهاوية ؟ (أى ٣٨ : ١٧).

كتب شيشرون عن ديونيسيوس انه لما سمع أحد رجاله المدعو ذيموكليس يغبط أصحاب الأمجاد والأموال أراد أن يوضح له كم يعاني هؤلاء من الشقاء والتعب فأمر اعوانه أن يهيئوا كرسياً من ذهب يحيط به الخدم بلباس بهى ثم أوعز الى ذيموكليس أن يجلس على الكرسي وأمر العبيد أن يكونوا طوع أمره ثم نصب أمامه مائدة ملكية فاخرة وأخذ ذيموكليس يأكل و يشرب و يطرب ويحسد نفسه لأنه استحق أن يتمتع ولوساعة بما يتمتع به أصحاب التيجان . وحينئذ رفع وجهه الى فوق فرأى سيفاً قاطعاً ماضياً معلقاً بخيط دقيق فوق رأسه . ففى الحال تغير وجهه وجمد الدم فى عروقه وأخذته الرعدة ولم تكن المناظر الجميلة المحيطة به كافيه لأن تنزع الخوف من قلبه ولم تبق له عينان تنظران شيئاً سوى السيف المعلق فوق رأسه ومن ثم طفق يستغيث الى الملك ليأذن له بالفرار والخلاص من ذلك الكرسى كرسى السعادة لأنه لا يريد أن يكون سعيداً . وهذا يشبه حالتنا نحن فسيف الموت معلق على الدوام فوق رؤوسنا . ونحن معرضون فى كل دقيقة لسقوطه علينا فيجب ان لا نجعل الشره يستولى علينا لنتلذذ بأطعمة الدنيا وننسى سيف الموت الحاد « بل عظوا أنفسكم كل يوم مادام الوقت يدعى اليوم لكى لا يقسى أحد منكم بغرور الخطية » (عب ٣ : ١٣).

كتب المستر فرنك كرين يقول « إن أحسن ما تجده فى هذه الحياة هو يومك الحاضر . انه كنز عجيب وجوهرة نادرة وكلاهما لك وحدك دون سواك . إن الزمن لا ينقسم الى ثلاثة أوقات . الماضى والحاضر والمستقبل . بل هو قسم واحد لا غير، هو « الآن » وانك تستطيع أن تفعل أى شئ إذا عمدت اليه فى يومك الحالى .

وذكر على سبيل المثال : قال النهار للانسان « تعال معى ودعنا نعمل الأعمال سوية » فأجاب الانسان « اية أعمال ؟ » أجابه النهار « الأعمال الجميلة » فصديقك مريض وزيارة منك تخفف عنه آلامه . وشقيقتك فقيرة وحزينة ويهمها أن تسأل عن حالتها وتأخذ معك بعض الهدايا لأولادها اليتامى . وأخوك تائه فى الغابة التى كنتما تلعبان فيها وأنتما صغيران وربما أمكنك أن ترشده الى الطريق وو.. » فقاطعه الانسان وقال له « هذه أعمال أريد أن أعملها مع غيرك فى المستقبل وأما أنت فتعال وأجلس هنا بجانبى فانى أريد أن تساعدنى على الحصول

على ٥٠٠٠ جنيه ، فجلس النهار بجانبه ومرت عليهما الساعات الى أن دنا وقت رحيل النهار ، فهب قائماً وقال للانسان « استودعك الله » فرد عليه الانسان قائلاً « مع السلامة . لماذا تنظر الى هذه النظرة الغريبة ؟ سأقوم بكل ما أمرتنى به مع أحد اخوتك » فقال النهار « لم يبق لى إخوة » وتركه ومضى . ولدى خروجه من الباب التقى بالليل داخلاً على الانسان .

إن من أراد الدخول فى النهار الى مدينة محاصرة و بيده تذكرة مرور يفتح له . أما إذا تأخر الى الليل فإنه يمنع من الدخول ولو كرر قرع الباب . هكذا من قرع باب مدينة أورشليم فى مساء عمره فلا يفتح له . قال المرتل « يعودون عند المساء يهرون مثل الكلب .. أما أنت يارب فتضحك بهم » (مز ٥٩ : ٦ و ٨).

قيل أن أحد المصورين كان ماهراً جداً فى الرسم إلا أنه عندما كان يريد رسم انسان كان يبتدئ برسمه من القدم وكان يتفق أحياناً أن القماش لا يكفى فتبقى الصورة بدون رأس أو برأس غير كامل . هكذا نرى كثيرين يبتدئون خدمتهم من القدم أى بعمل الأمور الزمنية تاركين الرأس أى أعمال التوبة الى آخر حياتهم . قال الرسول بولس « فانظروا كيف تسلكون بالتدقيق لا كجهلاء بل كحكماء مفتدين الوقت لأن الأيام شريرة » (اف ٥ : ١٥ و ١٦).

الفصل التاسع عشر
فى وجوب اغتنام الفرصة

« هذا وانكم عارفون الوقت انها الآن ساعة لنستيقظ من النوم . قد تناهى الليل وتقارب النهار فلنخلع أعمال الظلمة ونلبس أسلحة النور » (رو ١٣ : ١١ و ١٢)

كان أحد الوعاظ يتأمل فى قوله « هوذا الآن وقت مقبول هوذا الآن يوم خلاص » (٢ كو ٦ : ٢) استعداداً لعظة يلقيها فى الكنيسة فنام ورأى فى حلم أنه حمل الى جهنم وشاهد الشياطين مجتمعين يتآمرون على طريقة يقودون الناس بها الى جهنم فقال شيطان : أرى أن نجول ونوسوس فى صدور الناس بأن الكتاب المقدس حديث خرافة وأن دعوى الوحى من أباطيل الأوهام . فقال شيطان آخر « وما فائدة ذلك والناس يؤمنون بوجود الخالق ؟ فلنبذل الجهد فى أن نقنعهم بأن لا وجود لاله ولا مخلص ولا نعيم ولا جحيم فيفعلون ما يشاءون . فقال آخر : ان ذلك لا ينفع لأن الله طبع هذه الأمور على قلوبهم وكتبها على صفحات ضمائرهم . فقام من بينهم شيطان مارد وقال : كل ذلك لا ينفع والأوفق عندى أن نطوف كل الأرض ونترك الناس يعتقدون بوجود الخالق والمخلص ونقول لهم انه سيكون جزاء وعقاب ولكن لا داعى الى الاسراع الى التوبة ثم نجتهد فى تأخير توبتهم من يوم لآخر ، وكلما عزموا على التوبة نحرضهم على التسويف فيها ونطمعهم فى رحمة الله وهكذا حتى يموتوا فى خطاياهم . فسر ابليس وكل جنوده بهذه الحيلة الخبيثة وتفرقوا فى كل مكان يخدعون الناس بها .

وفى الحقيقة ان هذا الخداع قد أضل كثيرين فأجلوا توبتهم من يوم الى آخر حتى جاء الموت واختطف نفوسهم الى الجحيم . ولنلاحظ أن أكثر سكان الجحيم

ليسوا من الكافرين بل ممن انخدعوا بهذه الغواية . لقد قال أحد الحكماء « ان الهالكين برحمة الله أكثر من الهالكين بعدله » فاحذر أيها القارئ العزيز من هذا الشر العظيم واعلم أنك لا تعرف ما يأتي به الغد . ربما يأتي وتكون قد فارقت الحياة فاسمع اذن صوت الرب « اليوم ان سمعتم صوته فلا تقسوا قلوبكم » (عب ٤ : ٧).

قال أحدهم تحت عنوان « الغد لا يأتي أبداً ــ هوذا الآن يوم خلاص » (٢ كو٦ : ٢) قد قيل ان طريق جهنم معبدة بالنيات الحسنة . الناس يقصدون أن يخلصوا ولكن ليس الآن بل يترقبون وقتاً أكثر مناسبة . يظنون أن الغد يأتي حالاً ولكنهم ينسون أن غداً لا يأتي أبداً . ان الغد اما أن لا يشرق واما أن لا يغرب على أحد . أما اليوم فهو كل ما لنا . هو الوقت المقبول . من يستطيع أن يخبر ماذا يكون في الغد وأين نكون نحن حينئذ . ربما تكون أيها المتغافل رافعاً عينيك في العذاب وصارخا طالباً نقطة ماء لتبرد بها لسانك المعذب من اللهيب فلا يعطيك أحد .

ان فرعون ملك مصر لما قال له موسى متى أصلي من أجلك لترفع عنك الضفادع قال له غداً » مع أن الضفادع كانت تعذبه (خر٨ : ٩) وهذا شأن الكثيرين من الذين أحاطت بهم الشياطين محاولة سلب نفوسهم فاذا سألتهم متى تعزمون أن تنجوا بحياتكم فانهم يقولون لك « غداً » ولكن هيهات أن يحصلوا على هذا الغد .

ان والدة نيرون إذ أرادت أن تردعه عن بذخه المفرط جاءته يوماً وهو يهب رجلاً ثلثمائة ألف قرش و بسطت ذلك المبلغ على الأرض قطعاً متفرقة لكي يبصر بعينيه مقدار العطية المتجاوزة الحد . ليت الذين يقولون « غداً » يعرفون كم غد مر عليهم وهم عنه غافلون .

قال أحدهم : « ما أعظم قيمة الزمن ؟ كيف لا ونحن إذا تصرفنا به حسناً حصلنا على الله نفسه » وقال القديس أوغسطينوس « إن الأبدية عينها لوصرفت كلها في التوبة لما كانت طويلة بالنسبة لما يمتلكه الانسان من الخير بها » قيل إذ انسانا صرف حياته في نسيان الله تعالى وارتكاب المآثم فاعتراه داء عضال ذات

ليلة ، فصرخ حينئذ قائلاً « اللهم امنحنى بعض دقائق من الزمان ، أطل يارب حياتى الى غد » فلم يحصل على ذلك الزمان اليسير ليرتب أمر نفسه ويحاسب ضميره بعد أن كان قد أضاع أياماً كثيرة وفرصاً عديدة بغير أن يسعى فيها للخلاص .

فمن ثم يجب أن نحترس جيداً ولا نخدع أنفسنا إن لنا عمراً باقياً نتوب فيه ، فكم من كثيرين أجلوا توبتهم ارتكاناً على أنهم يتوبون فى المستقبل ولكنهم ماتوا فجأة . ومن المؤكد أنه ولا واحد منهم كان يفتكر إن الموت سيدركه بغتة . لا يغرنك الشيطان ويحرضك على فعل الشر وهو يقول لك « افعل هذه الخطية الآن ثم اندم عليها غداً » بل يجب عليك أن تجاوبه قائلاً « من يعلم أن هذا اليوم ليس هو آخر أيام حياتى ، وان لحقنى الموت أثناء ارتكابى هذا الشر فأى و يل وأى تعاسة يحلان بى ؟» وفضلاً عن ذلك فإن الكتاب يقول « اطلبوا الرب ما دام يوجد . ادعوه وهو قريب » (اش ٥٥ : ٦).

قال سليمان الحكيم « لأن الانسان أيضاً لا يعرف وقته . كالأسماك التى تؤخذ بشبكة مهلكة وكالعصافير التى تؤخذ بالشرك كذلك تقتنص بنو البشر فى وقت شر إذ يقع عليهم بغتة » (جا ٩ : ١٢) فهذا الزمان الذى نحن فيه هو أثمن شئ لدينا ويجب أن نقدره حق قدره فهو كنز عظيم إذا ضاع منا فليس من الممكن أن نستعيضه . وسيكون هذا الزمان موضوع نوحنا وندبنا فى جهنم حيث نقول « أواه من يعطينا ساعة واحدة من الزمن لكى نتوب فيها ونرجع الى الله » هذا الزمان الذى نستخف به الآن عتيد ان يكون شيئاً مشتهى . ولكن لا يناله أحد . فلا ندع فرصة تمر علينا قبل أن نصلح فيها خطأنا ونستغفر الله على ما أثمنا به ونتوب توبة صادقة نقية صادرة من كل القلب « مفتدين الوقت لان الايام شريرة » (اف ٥ : ١٦).

لننهض من رقدة تعامينا ولنفتح أبصارنا لنرى كيف قضينا السنين الغابرة من حياتنا ونندم على ما فات ونعقد النية ونوجه العزم الى اصلاح الخلل وتدارك أمور النفس قبل فوات الفرصة ولا نعيش الزمان الباقى فى الجسد لشهوات الناس بل

لارادة الله (١ بط ٤ : ٢).

ان الزمن الذى نحن فيه ثمين ولم يعط لنا إلا لنصرفه فى تقديس نفوسنا وجعلها صالحة بين القديسين فى مقام الابرار والصديقين . انه زمن مجهول المقدار لا نعرف هل نحن فى وسطه أو فى منتهاه ؟ فمن الممكن أيها الانسان أنك لا تكون فى الغد بين الأحياء ، ولا بين اخوتك و بنيك وأصدقائك ، ولا فوق الأرض التى ملكت . ولا فى البيت الذى بنيت . ولا أمام المال الذى جمعت بل بين ألوف من الديدان و بقايا من العظام النخرة فى حفرة مظلمة ضيقة . وربما يكون جسدك فى هذه الحفرة ونفسك فى حفرة أعمق منها . ترابها الجمر المضطرم وحيطانها اللهيب المحتدم . وها الرسول بطرس ينبهنا قائلاً « سيروا زمان غربتكم بخوف » (١ بط ١ : ١٧).

البدار البدار أيها المسيحى العزيز الى انتهاز الوقت وصرفه فى تقوى الله وكسب نعمته ورضاه . سيروا أيها المسيحيون فى النور مادام لكم نور الزمان فسوف يأتيكم ليل الأبدية الذى لا تستطيعون فيه أن تسيروا خطوة واحدة بل تقفون فيه عند الحد الذى بلغتموه فى نهار الزمان . سيروا مادام بيدكم مصباح الحياة الى أن تبلغوا أبواب الفردوس حتى إذا هبت ريح المنون واطفأت مصباح حياتكم تدخلون الجنة بسلام آمنين « لأن زمان الحياة الذى مضى يكفينا لنكون قد عملنا ارادة الأمم » (١ بط ٤ : ٣).

أعتبر أيها الانسان ان ندامتك ستكون أبدية ما لم تنتهز فرصة هذه الحياة لتكتسب ملكوت السماء . ليت شعرى ماذا يكون مقدار حزنك لما ترى انه كان يمكنك بقليل من الاجتهاد فى زمن الحياة أن تربح هذا الملك السماوى الذى خسرته لأجل لذة وقتية . ما كان أشد غيظ عيسو وما كان أمر أسفه لما استفاق ورأى أن أخاه الصغير قد اكتسب بكوريته التى باعه اياها بأكلة عدس . فقد كان يتنهد و يبكى و ينتحب ، وهكذا سيكون مصيرك أنت يا من بعت ملكوت السموات لأجل خيرات وقتية زائلة .

قل لى يا من تؤجل توبتك متكلاً على الرحمة الالهية من أين تعلم أن هناك سيعطى لك زمان لتتوب فيه ؟ كيف تؤجل وقت التوبة مع كوننا نراك تسرع فى جمع الأموال وارتكاب الشرور ؟ كيف تسرع الى قضاء الامور العالمية بهذا المقدار وإذا طلب منك عمل صالح فلا نسمع منك إلا لفظة « غداً » مع أن المرتل يقول « أسرعت ولم أتوان لحفظ وصاياك » (مز ١١٩ : ٦٠).

ان علة هلاك معظم الناس هو أنهم يتوانون عن التوبة والعمل الصالح عقب سماعهم كلمة الله ، والرب يقول « تأتى ساعة وهى الآن » (يو ٤ : ٢٣) وذكر عن القديس انطونيوس أنه دخل الكنيسة يوماً فسمع فصل الانجيل يقال فيه « يعوزك شئ واحد . اذهب بع كل مالك واعط الفقراء فيكون لك كنز فى السماء وتعال اتبعنى حاملاً الصليب » (مر ١٠ : ٢١) فأطاع فى الحال ووزع ماله على المحتاجين وقضى حياته فى البرية لا يملك سوى قوت يومه .

ان الكتاب قد حدد وقت الرجوع الى الله بقوله « فالله الآن يأمر جميع الناس فى كل مكان أن يتوبوا متغاضياً عن أزمنة الجهل » (اع ١٧ : ٣٠) وذلك لأن الرجوع الى الله حالاً هو حسن ومضمون لخلاص النفس ، والله نفسه يطلب رجوعنا بقوله « ارجعوا عند توبيخى . هأنذا أفيض لكم روحى . أعلمكم كلماتى » (ام ١ : ٢٣) وقال لزكا « أسرع وانزل لأنه ينبغى أن أمكث اليوم فى بيتك » (لو ١٩ : ٥) وقد حصل أن كثيرين رجعوا حالاً عندما تأثروا من سماع الكلمة فنالوا الخلاص كيوشيا الملك الصالح والسامرية وزكا والخصى وكرنيليوس والسجان ولكن للأسف الشديد نرى كثيرين يؤجلون الوقت خادعين ذواتهم .

كثيراً ما يعزم انسان على التوبة ولكنه يؤجل حتى ينتهى من بعض المسائل التى تعيقه . وأخر الى أن يتفرغ من عمل يباشره . الحال إن أعمال الدنيا ومشاغلها لا انقطاع لها ، ومسائل الحياة لا تنتهى قط . والتوبة لا دخل لها ويجب أن لا تتوقف على مثل هذه الأمور . فمن ينتظر أن يتوب حتى ينتهى من أمور الحياة أشبه بانسان يكون قاصداً أن يعبر نهراً وإذ يجد السفينة صغيرة وأمواج النهر تلعب بها يخشى ويخاف من العبور و ينوى فى نفسه إن ينتظر حتى ينقطع مجرى النهر و يعبره بأقدامه ، ولكنه

باطلاً ينتظر لأن النهر لا يبس ، وهو تبعاً لذلك لن يصل الى الشاطئ الثانى فتنقضى حياته دون أن يبلغ غايته . وهكذا مسائل الحياة لا تنتهى وأعمال الدنيا لا تفرغ حتى خروج الروح . ولوفرضنا أن مجارى النهر تنقطع فإن شوق الانسان الى العالم لا ينقطع ومحبته لهذه الحياة لا تجف . فكم سمعنا عن أناس كانوا وهم فى حالة المرض الشديد بل وفى وقت الاحتضار مشغولين بأمور الحياة و يسألون عنها باهتمام !

كم هى المدة التى يضعها الكتاب أمامنا لنتوب فيها ؟ « انكم عارفون الوقت أنها الآن ساعة لنستيقظ من النوم » (رو١٣ : ١١) كما أنه يوجد تهديد للناس بأن الموت يأتيهم بغته (رؤ٣ : ٣). قال أستاذ لتلاميذه « يجب أن تتوبوا قبل الموت بيوم » فأجابوه « ومن يعلمنا بيوم الموت ؟ » فقال لهم « إذاً توبوا من الآن ».

فى مستقبل العمر ونضارة الشباب يقول الانسان لنفسه لا أتقيد من الآن بالدين وأضيق الخناق على نفسى فحينما تأتينى الشيخوخة حينئذ أتوب . ولكن هل الحياة مضمونة للشبان كم من الشبان ماتوا فى فجر حياتهم ؟ اذهبوا الى القبور واسألوها عمن ضمتهم بين جوانحها فتجيبكم « انى أضم الناس من كل طبقة ومن كل سن فلا فرق عندى بين شيوخ وشبان وأطفال ورجال ونساء ، الكل عندى على حد سواء »

أيها الانسان : لا يغرنك كون سراج حياتك وهاجاً مستدلاً بذلك على أن فيه زيتاً كثيراً فلا ينطفئ إلا بعد زمن طويل . لأن مقدار الزيت الذى فيه لا يعلمه إلا الله وحده وفضلاً عن ذلك فإن سراج الحياة يظل مضيئاً بكثير أو بقليل من الزيت حتى ينطفئ انطفاء لا نور بعده .

قال أحد الحكماء : إن مثل الدنيا كالسفر فى الطريق أوله المهد وآخره اللحد وفيما بينهما منازل متعددة وكل سنة كمنزلة . وكل شهر كفرسخ . وكل يوم كميل . وكل نفس كخطوة . والناس يسيرون فيه متسابقين فالبعض يقطعون كل الطريق ، بينما يكون باقياً لغيرهم منها فرسخ أو أكثر أو أقل ».

ان المسابقة لانتهاز الفرصة حالاً لهى من أهم الأمور الدينية . إن كثيرين يتسابقون فى الاعمال الدنيوية التى تهمهم قبل أن يدركهم الموت ولكنهم لوماتوا قبل أن يتمموا أعمالهم هذه فلا حرج عليهم إنما يجب أن يسرعوا فى اتمام التوبة لأنهم إذا ماتوا بدون توبة قضى عليهم بسجن الهاوية أما التائبون توبة حقيقية فلا يهلك منهم أحد .

إذا كان روح الله قد أثر فيك وأنت تسمع صوته تعالى بوجوب التوبة فانهض اليها بعزم القلب فى نفس هذه اللحظة لتنال نعمة الخلاص بالمسيح قبلما تذهب الفرصة منك .

أقيم قديماً بالمدن اليونانية تمثال كتب عليه شعر بصورة محادثة بينه و بين أحد المارة تشرح المغزى من اقامة هذا التمثال .

واليك المحادثة :ـــ

« ما هو اسمك أيها التمثال »؟

« يدعوننى الفرصة »

« ومن صنعك ؟»

« ليسيبوس »

« ولماذا أنت واقف على أطراف أصابعك ؟»

« لأرى الناس اننى لا أبقى إلا دقيقة واحدة ».

« وما هى الأجنحة التى على قدميك ؟».

« لأرى الناس كيف أمر بسرعة »

« ولكن لماذا هذا الشعر الطويل على جبهتك ؟».

« لكى يقبض على الناس حينما يروننى ».

« إذا ما سبب صلع رأسك من الخلف ؟»

« لأرى الناس اننى إذا مررت مرة فلا يمكن اعادة القبض على »

« فإذا حسبما لنا فرصة فلنعمل الخير للجميع » (غلا ٦ : ١٠)

وبما أنه ليس للناس مدة ثابتة يضمنون فيها البقاء فى هذه الحياة فيجب عليهم أن يبادروا الى التوبة بدون تأخير. لا تؤجل توبتك لئلا يأتى وقت يقفل فيه باب التوبة وتكون كالذين عزموا على السفر فى البحر ولكنهم يهملون أخذ طعامهم معهم ولا يفطنون الى ذلك إلا بعد أن يعضهم الجوع بأنيابه إذ يكونون قد ابتعدوا عن بلادهم ولا يمكنهم الرجوع اليها فالانسان إذ ينصرف من هذه الدنيا لا يوجد له هناك مجال يشترى فيه زيتاً ، هذا فضلاً عن إن الاسواق جميعها تكون قد أقفلت .

إن الانسان لا يعلم إن كان يعيش الى الغد أم لا ومع ذلك يهمل التوبة مؤملاً أن يتوب فى المستقبل . إن من يرث مالاً وافراً لا جناح عليه إذا انفق منه شيئاً . إما الذى ليس له سوى قوت يومه فلا ينبغى له أن يبذر ما هو محتاج اليه . فهذه الحياة ليس لك فيها نصيب ولا يوم واحد . فلماذا تتوقع العام المقبل لتتوب ؟ وكيف تعد نفسك ياعز يزى بسعة الأيام وطول الأعوام وأنت فقير من الزمان افتقاراً كلياً ولا تملك منه شيئاً حتى ولا ساعة واحدة ؟ فلا يخدعنك هذا الزمان ولا تعش مغروراً فانك فقير ومسكين . ربما فى هذا اليوم تحرم من هذه الحياة وتندم بشدة لأنك اضعتها هدراً . لا تعد نفسك بطول العمر فهذا الأمل قد أهلك الكثيرين .

إن الله يريد أن ترجع اليه فى هذه اللحظة لأنها كافية لتوبتك ، فلا تنتظر الغد بل اهتم باليوم لأنه يقول « فى وقت مقبول سمعتك وفى يوم خلاص أعنتك » (٢ كو٦ : ٢).

الفصل العشرون
فى قيامة الأموات

« إن كان الأموات لا يقومون فلنأكل ونشرب لأننا غداً نموت ». (١ كو ١٥ : ٣٢)

عقيدة قيامة الأموات أس العقائد المسيحية وعليها تتأسس هذه الديانة لانه إذا بطل رجاء القيامة بطل رجاء الخلاص ورجاء السعادة الأبدية ، والحق أنه إن كنا نموت موت البهائم فخير لنا أن نحيا حياتها ونتمتع بكل مشتهيات الدنيا . ومثل هذا القول خلاصة أقوال الفلاسفة الابيكوريين . ولكن اعتقاد القيامة الذى يحسبه أعظم الفلاسفة من اقطع ضروب الجهل هو ركن رجاء المؤمنين وسرورهم ، وما كان موضع الهزء والسخرية فى أريوس باغوس (أع ١٧ : ١٩) هو موضوع ترانيم النصر للمسيحى فى ساعة الموت وعند دخوله السماء .

قال أحد الملحدين « الغاية الوحيدة من الوجود على وجه الأرض هى التلذذ والتنعم ، هنا السعادة الحقيقية . وما وراء الستار وما بعد الحياة كذب وخداع لا وجود له » فقالت أم فقدت وحيدها « سيدى : كان لى ولد وحيد كان عزى وفخرى وموضوع أفراحى وآمالى فقدته ، فإذا كان حقيقة كما تزعم إن السعادة على وجه الأرض فقط ولا وجود لها بعد الحياة فكيف يمكننى أن أفرح بعد وفاته وأتنعم بالحياة إذا لم أكن على يقين من أنى سأراه يوماً فى جنة الخلود وأمتع العين برؤياه .

لا يزال كثيرون يصرحون بأن الموت نهاية الحياة وأن من يموت يعود الى عناصره الأولى فيختلط بعضها بالهواء و بعضها بالماء و بعضها بالتراب و يصير بعض هذه الأجزاء نباتاً و بعضها حيواناً ، و يستبعدون ان يقوم الجسد بعد ذلك و يرجع كما كان . وهذا جهل عظيم بقدرة الله الذى يقول عن نفسه « هل يستحيل على الرب

شئ » (تك ١٨ : ١٤).

وحقيقة الخلود والقيامة وان تكن روحية فإن لنا فى ظواهر المادة وحالاتها ما يبرهن لنا هذه الحقيقة و يقربها من الادراك والتصديق ، فإذا كان الانسان فى استطاعته أن يصنع أوراقاً لامعة شفافة من خرق بالية . وأن يصنع من الرمل زجاجاً و بلوراً . وإذا كنا نرى الأشجار تفقد خضرتها ثم تعود اليها ، والفصول الاربعة يعود كل منها بعد ذهابه . والبذرة بعد أن تلقى فى الأرض وتموت تنبت نباتاً جيداً حسناً . فهل بعد ذلك يعجز الله عن اقامة جسد الانسان حياً كما كان وهو هو الذى سبق وأوجد هذا الجسم من العدم .

قال السيد المسيح « الحق الحق أقول لكم إن لم تقع حبة الحنطة فى الأرض وتمت فهى تبقى وحدها . ولكن إن ماتت تأتى بثمر كثير » (يو ١٢ : ٢٤) فالبذرة إذاً فى موتها لم تتلاشى بل استعدت للتغيير من حال الى حال . هكذا أمر موت الانسان فانه ينتقل من هيئة الى هيئة وهو هو بعينه . إن شجة البلوطة الكاملة تختلف فى الهيئة والصفات عن البذرة التى نشأت منها ولكن حياتها هى نفس حياة البذرة . قال القديس أوغسطينوس « إذا كان ممكناً لله أن يزيد فى الحبة جرماً لم يكن فيها قبلاً أفلا يستطيع فى القيامة أن يعيد ما كان فى جسد الانسان ».

حينما ينتهى سفر السائح فى هذا العالم يموت ليعيش فى عالم أفضل . ليس الموت إلا انتقال . ليس الموت طى الجناحين بل اعدادهما لطيران أطول . والموت ليس الاصطدام بصخر مخفى بل هو دخول سريع الى فرصة ظاهرة للعيان .

يحكى أن ابنة صغيرة كانت تجول فى حديقة حول بيت أبيها فرأت عشاً فى شجرة قريباً من الأرض فنظرت وإذا فيه أربع بيضات منقوشة نقشاً جميلاً كما يكون بيض العصافير عادة فأسرعت وأخبرت أمها بما رأت ، واتفق أنها ذهبت فى اليوم التالى لزيارة بيت عمها و بقيت عندهم أسبوعين ثم عادت الى بيتها وأول شئ فعلته أنها دخلت الى الحديقة لترى العش فلم تجد فيه البيضات بل وجدت قشورها . فحزنت لذلك وذهبت تخبر أمها بالأمر والدموع مل عينيها . فقالت لها أمها لا تحزنى يا عز يزتى فإن أفضل شئ فى تلك البيضات قد خرج وطار الى فوق

والذى بقى منها إنما هو قشورها التى لا فائدة منها . وهذا شأن أجسادنا نموت فتخرج أرواحنا وتذهب الى خالقها وتبقى تلك الرمم الفانية . وقد أدرك المصريون الأقدمون هذه الحقيقة ومثلوها على هذه الصورة فاننا نجدهم فى نقوشهم وصورهم يمثلون الميت ملقى على سريره ونفسه خارجة من جنبه فى شكل طائر .

وقد دعيت القيامة قيامة الأجساد خوفاً من أن يظن أحد أن النفس تموت مع الجسد لان النفس خالدة لا يمكن ان يتسلط عليها فناء .

وقال الحكيم عن كيفية موت الانسان «فيرجع التراب (الجسد) الى الأرض كما كان وترجع الروح الى الله الذى أعطاها » (جا ١٢: ٧) أما أين تكون النفوس بعد الموت فقد ذكر الكتاب أن أرواح الأبرار تكون بعد الموت فى الفردوس مع المسيح لتتأخذ عربون السعادة والمجد (مت ١٧ : ٣ ، لو١٦ : ٢٢ ، ٢٣ : ٤٣ ، يو١١ : ٢٦ ، ١٤ : ٣ ، ١٤ : ٢ ، كو٥ : ١ — ٨ ، فى ١ : ٢٣ ، ١ تس ٥ : ١٠) ونفوس الاشرار تحفظ فى سجن الظلام الى حكم اليوم العظيم (لو١٦ : ٢٣ ، ١ بط ٣ : ١٩ ، ٢ بط ٢ : ٩ ، يه ٦ و ٨) أما مكافأة النفس التقية بالوجود فى السماء ومجازاة النفس التعيسة بالطرح فى جهنم ، فلا يكون إلا بعد أن تلبس النفوس أجسادها : لأنه عدل هو أن تكافأ النفس فى الجسد الذ أحسنت فيه وتجازى النفس فى الجسد الذى أساءت به . فالعيون التى منعت نفسها من التلذذ بالمناظر العالمية والألسنة التى أبت أن تتذوق الدنيا ، والآذان التى حرمت ذاتها التمتع بأصوات هذا الوجود ، هى التى ستفوز بكل سعادة العالم الآخر ، أما الأعين الشريرة والأفواه الكاذبة والأعضاء الفاسدة فلابد أيضاً أن تجازى بكل شقاء فى الحياة الآتية ولا يكون ذلك للنفس وحدها أوللجسد وحده بل للنفس إذا لبست جسدها ، اما قبل القيامة فكلاهما محفوظة لتلك الساعة .

ففى هذا العالم لا تقوى النفس على اتيان أى أمر بدون الجسد فهو الآلة التى تتمم كل شئ ، والنفس والجسد كلاهما فى ارتباط كلى لا يدرك . هكذا بعد انفصال النفس عن الجسد بالموت تعود اليه بالقيامة لتسأل عن جميع أفعالها وتجازى عليها . ليس من العدل أن تكافأ النفس دون الجسد لأنه هو الذى قاسى المشقات

وقام بخدمتها إذا كانت صالحة فقد تعب وجاهد فى احتمال الأتعاب والأسهار والأصوام فيجب إذاً أن يشارك النفس فى أمجادها . وإذا كانت النفس غير صالحة فالجسد هو الذى سقط فى الرذيلة وتمتع بالشهوات وتلذذ وشبع و ينبغى أن يشارك النفس فى عذابها . قال التسيد المسيح « لا تخافوا من الذين يقتلون الجسد ولكن النفس لا يقدرون أن يقتلوها . بل خافوا بالحرى من الذى يقدر أن يهلك النفس والجسد كليهما فى جهنم » (مت ١٠ : ٢٨).

فلابد إذاً من القيامة ليأخذ كل واحد نصيبه كما قال ابرهيم للغنى « اذكر أنك استوفيت خيراتك فى حياتك وكذلك لعازر البلايا والآن هو يتعزى وأنت تتعذب » (لو١٦ : ٢٥) إن ما نراه فى هذا العالم كثيراً ما يدهشنا ويحاول إن يفشلنا . نحزن عندما نرى الرذيلة قائمة والفضيلة مكسورة الجناح . نتألم عندما نرى الأفاضل محتقرين والأراذل ممجدين . فلابد إذا من قيامة يخرج بعدها الذين فعلوا الصالحات الى قيامة الحياة والذين فعلوا السيئات الى قيامة الدينونة (يو ٥ : ٢٨ و ٢٩) نعم لابد من قيامة فيها تتمجد الفضيلة وتندحر الرذيلة ، و يتمتع الأتقياء و يتعذب الأشرار .

أما الكيفية التى تقوم بها الأجساد فقد سئل عنها الرسول بولس « كيف يقام الأموات و بأى جسم يأتون ؟» فأجاب « ياغبى الذى تزرعه لا يحيا ان لم يمت ، والذى تزرعه لست تزرع الجسم الذى سوف يصير بل حبة مجردة ربما من حنطة أو أحد البواقى ، ولكن الله يعطيها جسماً كما أراد ... هكذا أيضاً قيامة الأموات ، يزرع فى فساد و يقام فى عدم فساد ... لان هذا الفاسد لابد إن يلبس عدم فساد وهذا المائت يلبس عدم موت » (١ كو ١٥ : ٣٥ ــ ٥٣).

فالقيامة إذا تغيير وليست استحالة . والجسد المقام يشابه الجسد الذى يموت من بعض الوجوه وإلا يكون العمل خليقة وليس قيامة . وإذا كنا ننكر مشابهة الأجساد الطبيعية للأجساد المقامة مشابهة خاصة فاننا ننكر القيامة نفسها ولكن يوجد فرق بين المشابهة الخاصة والمشابهة المطلقة الكلية لأن هذه يتحتم بموجبها أن كل ذرة دقيقة فى الجسد المائت ينبغى أن توجد فى الجسد المقام ويمكننا أن نوضح ذلك بملاحظة

الفرق بين جسد الانسان وقت الطفولية وجسده وقت الشيوبية وجسده وقت الشيخوخة فمع أنه يختلف عن بعضه فى هذه الأعمار إلا أنه هو الجسد بعينه لم يتغير بغيره ، فالجسد المقام إذاً يكون جسداً ولكن ليس فى صورته الطبيعية إذ أنه يمنح عدم الفساد والخلود والروحانية ليكون مناسباً للعالم الأبدى ، فلا يقوم الأعمى أعمى ولا الأعرج أعرجاً ولا الضعيف ضعيفاً بل يقوم الكل أصحاء كاملين .

ولكن ما أعظم الفرق الذى سيكون بين أجساد الابرار وأجساد الأشرار التى تقوم ، و يباله من اختلاف جسيم بينهما . قال دانيال النبى وكثيرون من الراقدين فى تراب الارض يستيقظون هؤلاء الى الحياة الأبدية وهؤلاء الى العار للازدراء الأبدى ، والفاهمون يضيئون كضياء الجلد والذين ردوا كثيرين الى البر كالكواكب الى أبد الدهور » (دا ١٢ : ٢ و ٣) فيقوم الأبرار بأجساد بهية لامعة لا تحس بأى تعب أو شقاء لن يجوعوا ولن يعطشوا ولا تقع عليهم الشمس ولا شئ من الحر (رؤ ٧ : ١٦) ولن تسود عليهم الشهوة لأنهم يكونون كملائكة الله (مت ٢٢ : ٣٠) ولا يكون جسدهم بعد لحماً ولا دماً (١ كو ١٥ : ٥٠) والفخر الاعظم والوعد الاكمل أنه سيكون كجسد المسيح « ولكن نعلم أنه إذا أظهر نكون مثله لأننا سنراه كما هو » (١ يو ٣ : ٢) وقال الرسول بولس : « الذى سيغير شكل جسد تواضعنا ليكون على صورة جسد مجده » (فى ٣ : ٢١).

فيالها من سعادة عظيمة تحيط بأولئك الذين صلبوا الجسد مع الأهواء والشهوات (غلاطية ٥ : ٢٤) وما أحسن قول بعضهم فى ذلك « يسير المؤمن فى هذه الحياة وغايته التمتع بالله ومشاركة الطبيعة الالهية بالصفات الحسنى وتجلياتها المحسوسة بين البشر الى أن يأتيه الموت . ولا يكون الموت لمن يؤمن بالخلود إلا حادثة بسيطة تفك روحه من أسرها الترابى لتعدها لحياة أعظم وأكمل وأمجد فيكون مثله فى ذلك مثل دودة تدفن نفسها بشرنقتها ، تموت بكيانها الظاهر لا لتفنى بل لتقوم فراشة جميلة لها أجنحة تطير بها عن الأرض وتحلق فى الفضاء حينما تريد فتكون بمظهرها الثانى أجمل وأقوى وأكمل ».

فجسد الأتقياء الذى أقبر واستعبد (١ كو ٩ : ٢٧) وجسد الشهداء الذى

تقطع وتمزق واحترق لابد أن يعود صحيحاً بل يأخذ أسمى حالات المجد فتضمد الجراحات وتتلألأ بالمجد في القيامة . روى بعضهم ، أنه كان من عادة الرومانيين أنه عندما يحضر القائد الظافر الى مدينته يذهب أولاً الى بيته خفية فيستريح فيه و يتمتع بأصحابه وأهله مدة أسبوع أو أسبوعين الى أن يأتي الوقت المعين الذى فيه يخرج من بيته و يدخل المدينة رسمياً ، وحينئذ يعترف به وتفتح له الأبواب ليدخل بالعز والمجد و يسير بموكب حافل في وسط المدينة الى الكابيتول (دار الحكومة) بين هتاف الفرح وصيحات السرور . هكذا أيضاً أولئك القديسون الذين جاهدوا وظفروا وانتقلوا سيقومون الى المجد و يعلن مجدهم في موكب الأبرار و ينالون ماء السعادة .

أما الخطاة فيقومون بأجساد مملوءة شناعة ومتشحة بالسواد فتنبعث منها الروائح الكريهة ، فيالها من تعاسة شديدة و ياله من حزن مفرط يحيقان بأولئك الهالكين المرذولين عند اتحاد نفوسهم بأجسادهم فتذكر النفس عندما ترى الجسد كل ما ارتكبت فيه من الشرور وكل ما استخدمته فيه من المعاصى فتقول له « أيها الجسد الملعون أنى لأجل رغبتى فى أن أنعمك هلكت » فيجاوبها قائلاً « أيتها النفس اللعينة الشقية . أنت التى كنت حاصلة على العقل والفطنة فلماذا تنازلت معى وساعدتينى على ارتكاب كل تلك الشرور التى سببت لى الهلاك الأبدى ».

أما كيف تكون القيامة فيقول الرسول بولس : « فى لحظة فى طرفة عين عند البوق الأخير . فانه سيبوق فيقام الأموات عديمى فساد ونحن نتغير » (١ كو ١٥ : ٥٢) وقال السيد المسيح « فيرسل ملائكته ببوق عظيم الصوت فيجمعون مختاريه من الأربع رياح من أقصاء السموات الى أقصائها » (مت ٢٤ : ٣١) فمتى صدر أمر الله الى ملائكته باحضار جميع بنى البشر حينئذ تنحدر قوته الى أعماق القبور فتنعش العظم الرميم . وكم من أجساد مندثرة ضمن طيات الأرض ولكن الله الذى يخبرنا عنه الكتاب أنه هو الذى يحيى الموتى و يدعو الأشياء غير الموجودة كأنها موجودة (رو ٤ : ١٧) يأمر جميع الناس قاطبة أن يقوموا : حينئذ يسلم البحر الأموات الذين فيه و يسلم الموت والهاوية الذين فيهما (رؤ ٢٠ : ١٣) وهكذا تأخذ البرية أن تلد ميلاداً جديداً وهذا العمل العجيب

لا يحتاج الى سنين متعددة لأن قدرة الله لا تقف عند زمان ولا مكان بل كما قال لرسول بولس : « فى لحظة » أجل . حينما يصدر الأمر الالهى بانتهاء العالم ينتهى فى الحال « من أجل ذلك فى يوم واحد ستأتى ضرباتها موت وحزن وجوع وتحترق بالنار لأن الرب الاله الذى يدينها قوى (رؤ١٨ : ٨) والأرض والسموات تبيد كثوب تبلى كرداء يطويها فتتغير (عب ١ : ١٠ — ١٢) وقال الرسول بطرس : « ولكن سيأتى كلص فى الليل يوم الرب الذى فيه تزول السموات بضجيج وتنحل العناصر محترقة وتحترق الأرض والمصنوعات التى فيها » (٢ بط ٣ : ١٠).

حينئذ تنقطع أصوات العصافير المغردة و ينقطع هتاف الطرب والسرور وتقف حركة الحياة فلا تعود تسمع صوت فأس الحطاب كما فى العصور الأولى ولا دوى الآلات صادراً من أماكن العمل و يكف التلميذ عن التأمل فى كتبه ، والمصور عن التفرس فى جلال الشمس وقت المغيب و ينقطع الخطيب قبل انتهاء خطابته و يصير فوق استطاعة الشاعر أن يحرك الأوتار الخالدة ، يخلع الملك ثوبه الارجوانى و يضع الفلاح معوله ولا يكون هناك حاجة بعد للعلماء ، وسيف الغضب المعلن والذى كان ممنوعاً عن العمل مدة فتح باب للتوبة يعود فيتمم عمله بقوة مهلكة على عالم فاجر . و يقفل باب التوبة فى وجه كل من لم يدخله قبل ذلك . نعم فكل ما نراه فى هذا العالم من الفساد والشر والظلم والنفاق سيزول عما قريب .

فهيا يا ملائكة الله انذروا الخطاة بيوم الدينونة العظيم . واظلمى أيتها السماء واحجبى عنهم أنوارك وأهطلى أيتها النار من العلاء واحرقى مقتنياتهم وانفتحى أيتها الأرض من أسفل وابتلعى جميع قصورهم . فهذه هى النهاية التى تضمحل فيها كل المدن والقرى والممالك والقصور والحصون . هذه هى النهاية المزمعة ان تلاشى كل غنى وكل مجد عالمى وجميع التنعمات الزمنية « قد جاء الوقت . بلغ اليوم فلا يفرحن الشارى ولا يحزنن البائع لأن الغضب على كل جمهورهم » (حز٧ : ١٢).

قال القديس يوحنا ذهبى الفم : « انى لما أتأمل مجئ الديان وكيف تصرخ الأبواق بصوت عظيم وكيف تفتح القبور وكيف تفرغ اللحود وكيف يقوم الأموات

من القبور كالمستفيقين من الرقاد . وكيف ترجع الانفس الى أجسادها . عندما أفكر بهذا يااخوتى اغبط وامدح المنتظرين المنتبهين واندب وانتحب على الغافلين المهملين ».

أجل فى ذلك اليوم يخرج كل انسان من الجوف الذى ضمه ، ولكن ما أعظم الاختلاف بين الحالتين . حالة الناس قبل القيامة وحالتهم بعدها . فترون ذلك الذى كان بالأمس يرجف العالم منه خوفاً ورهبة فى غاية الفزع والاضطراب . قد فارقه بأسه وكل مجده فيسأل أين سلطتى وجاهى ؟ اين عظمتى وابهتى ؟ فيجاوب « انت لم تخرج من لحدك لتعود الى مجدك الأول بل لتساق للمحاكمة ».

قال الرائى « ونظرت لما فتح الختم السادس وإذا زلزلة عظيمة حدثت والشمس صارت سوداء كمسح شعر والقمر صار كالدم ونجوم السماء سقطت على الأرض كما تطرح شجرة التين ثمرها إذا هزتها ريح عظيمة . والسماء انفلقت كدرج ملتف وكل جبل وجزيرة تزحزحا من موضعهما ، وملوك الأرض والعظماء والأغنياء والأمراء الأقوياء وكل عبد وكل حر أخفوا أنفسهم فى المغاير وفى صخور الجبال . وهم يقولون للجبال والصخور اسقطى علينا واخفينا عن وجه الجالس على العرش وعن غضب الخروف . لأنه قد جاء يوم غضبه العظيم ومن يستطيع الوقوف » — (رؤ٦ : ١٢ — ١٧).

قد كانوا فى الحياة الأولى مفتونين بالشهوات ومغرمين بالنجاح ومتلهين باللذات . أما الآن فقد ماتت فيهم تلك العواطف المهلكة ولم يبق لهم إلا الخضوع للقوة القادرة التى تسيطر عليهم حينئذ ليجاوبوا عما أتوه فى حياتهم على الأرض . ترى أين يفر الخاطئ من ذلك الهول ؟ قد يحاول أن يلتجئ الى القصور الشامخة والأبراج الحصينة ولكنها تكون حينئذ قد هدمت . لعمرى كيف يكون حال أولئك وهم يرون قصورهم التى تعبوا فى هندستها ونقشها تلتهمها النار التهاماً . وماذا يكون شأن التجار وهم يرون اللهيب يدخل مخازنهم و يأكل ما بها . أجل سيسمع حينئذ

بكاء وعويل لم يعرف منذ انشاء العالم . ستدوس المرأة ولدها الرضيع وهى لا تشعر ويهمل الاب ابنه وهو لا يدرى .

أجل هو يوم بوق وهتاف على المدن المحصنة وعلى الشرف الرفيعة . أما الأبرار فلن يدنو منهم شر ولا يقترب منهم خطر بل يحظفون جميعاً لملاقاة الرب فى الهواء .

الفصل الحادى والعشرون
فى يوم مجئ الرب العظيم الثانى

«لأن يوم الرب عظيم ومخوف جداً فمن يطيقه ؟» (يؤ ٢ : ١١)

لقد جاءت أيام عديدة على العالم اشتد هولها وعظم خطرها كيوم الطوفان و يوم احراق سدوم وعمورة و يوم قتل أطفال بيت لحم وكم من أيام حدثت فيها زلازل و براكين أهلكت ما لا يحصى من النفوس وهدمت البيوت الشامخة وأزالت عز مدن عامرة ، ولكن هذه الايام ظل وخيال ليوم الرب العظيم الذى يأتى فيه ثانية فى مجده (مت ٢٥ : ٣١).

لقد أتى المخلص أولا وديعاً متواضعاً فأتخذ العالم من اتضاعة سبباً لاحتقاره واذلاله ، أتى ليسكب على الناس فيض رحمته فاتخذ العالم من رحمته سبباً ليسئ الى هذا الاله الجزيل الصبر والجود . فمن الواجب إذاً فى مجيئه الثانى أن يأتى ليصلح هذين الجرمين اللذين أجرم بهما البشر ، فيأتى أولاً بعظمته وثانياً بعدله . فهذا الخروف الوديع الذى بصبر عجيب فى هذه الحياة احتمل من الخطاة اهانات وافتراءات عديدة يصير أسداً مفترساً ، مجرد النظر اليه يولى الخطاة رعباً و يلبسهم ثياباً من الخوف والرجز دون أن يكون لهم أقل أمل فى الرحمة . ان الخطاة لا يعرفونه الآن بل يظهر لهم انه اله لا يبصر الاثم أو لا يبغضه أو كأنه لا يشعر بما يهان به اسمه القدوس . إلا أنهم سيعلمون وقتئذ إن الله يبغض الخطيئة بغضاً عظيماً .

إن حزقيال النبى رأى فى رؤياه كروبين لكل منهما وجهان ، الوجه الواحد وجه انسان والوجه الثانى وجه اسد (حز ٤١ : ١٨ و ١٩) وهذا يمثل لنا اتم تمثيل سيدنا يسوع المسيح المتصف بوجهين : الاول وجه انسان أنيس حليم وديع وهو الذى

ينظر به الى الخطاة منه أن مات عنهم الى يوم القيامة ، والوجه الثانى وجه اسد وهو الذى يلتفت به اليهم يوم الدينونة .

قال المرتل « الرب قد ملك فلتبتهج الأرض ولتفرح الجزائر الكثيرة . السحاب والضباب حوله . العدل والحق قاعدة كرسيه . قدامه تذهب نار وتحرق أعداءه حوله . أضاءت بروقه المسكونة رأت الأرض وارتعدت . ذابت الجبال مثل الشمع قدام الرب سيد الأرض كلها . وأخبرت السموات بعدله ورأى جميع الشعوب مجده » (مز ٩٧ : ١ — ٦).

إن الملك إذا عزم أن يدخل مدينة طا تعتيدخلها بالمحبة ومعه عساكره وهم لابسون ثياب السرور وحلل الأفراح ، و يقبلون على تلك المدينة بالسلام والتحية والتكريم وكل محبة . أما إذا كانت المدينة عاصية فيوافى غاضباً عليها وعساكره مدججة **بالسلاح** لمحاربتها بشدة وقساوة . هكذا ربنا يسوع ملك المجد كان مجيئه الأول الى العالم بصلح وسلام . وملائكته اهدوا المسكونة التحية قائلين « وعلى الأرض السلام » (لو ٢ : ١٤) وأما مجيئه الثانى فانه سيكون بروح الشدة والغضب لأنه يأتى للانتقام والمجازاة وتعذيب الخطاة .

فحينئذاك يصح القول « أين مراحمك القديمة ؟ كنت أراك فى مجيئك الأول وديعاً متواضعاً كالحمل ، واليوم أراك قوياً مزمجراً كالأسد . كنت أراك تفتح ذراعيك ليقبل اليك الخاطئ واليوم أراك تطرده الى النار المؤبدة . كيف استحالت تلك المحبة الى بغضة ؟ أنها الخطيئة يا الهى التى جعلتك تغضب ويحق لك إن تغضب على مرتكبيها لأنك سبقت ومت لأجلهم ».

قبل أن تخرب أورشليم حسب نبوة المخلص على يد تيطس الرومانى ، سبق خرابها بعض حوادث دلت عليه فظهر نجم ذوذنب يشبه سيفاً مجرداً وظهر رجل جعل يطوف قبل فتح المدينة بأربع سنين الشوارع والأزقة كالمجنون وهو يصيح « صوت من أربع جهات العالم صوت على أورشليم . صوت على الهيكل . صوت على الحصن . صوت على جميع الناس » وهكذا يسبق مجئ المخلص ما يدل على رهبته

فتستحد الشمس والقمر والنجوم والأفلاك على مقاومة العالم واعلان غضب الديان الآتى على السحاب بقوة ومجد عظيم فتظلم الشمس والقمر وتحدث زلازل عظيمة وتنحل العناصر وتضطرب الجمادات . وهذه المخلوقات ولو أنها لم ترتكب خطيئة أو تباشر ذنباً غير أن الله لكى يظهر عظمة دينونته سيفنيها لأن الأشرار اتخذوها آلات لتنفيذ مآربهم فيهلك الأرض لأنها حملتهم و يفنى النور لانه أضاء لهم وهم مستغرقون فى الخطية « ولولوا لأن يوم الرب قريب قادم كخراب من القادر على كل شئ لذلك ترتخى كل الأيادى و يذوب كل قلب انسان » (اش ١٣ : ٦ و ٧).

فياله من فرق عظيم بين يوم قيامة ابن الله من القبر ، و بين اليوم الذى يجئ فيه ليدين العالم ففى اليوم الأول كان ينادى لكل انسان بالسلام وفى اليوم الثانى يرسل صوته بغضب فيزعج كل المسكونة .

ماذا يكون فى ذلك الوقت حال الانسان غير التائب الذى كان متغافلاً عن الأمور الروحية ؟ ألا ينزعج قلبه وترتعد فرائصه حينما يرى علامات قرب مجئ المسيح للدينونة ؟ وماذا يعمل حينئذ إذ يرى الأعمال العالمية قد بطلت وأن أثمن وأعز خيرات الدنيا قد أصبحت عديمة القيمة والفائدة ؟ وكيف يكون حاله حينما يرى الرب يسوع الذى ازدرى بأنجيله واستهزأ بوصاياه آتياً فى السحاب ليضع أعداءه عند موطئ قدميه ، ألا يقول للجبال أسقطى على وللآكام غطينى من وجه الجالس على العرش ومن غضب الخروف ! لأنه قد جاء يوم غضبه العظيم ومن يستطيع الوقوف ؟ (رؤ ٦ : ١٦ و ١٧).

فعلى هذا الشكل المريع يظهر الديان العادل ، والغضب يتقدمه وذلك دليل على مبلغ الصرامة التى سيدين بها العالم حتى أن مجرد رؤية يسوع قادماً فى غضبه يكون أشد من عذاب جهنم . قال ملاخى النبى : « فهوذا يأتى اليوم المتقد كالتنور وكل المستكبرين وكل فاعلى الشر يكونون قشاً ويحرقهم اليوم الآتى قال رب الجنود فلا يبقى لهم أصلاً ولا فرعاً » (ملا ٤ : ١).

أى خجل وأى خوف يشعر بهما انسان يقف أمام ملك اهانه أو قاض تعدى عليه ، وأية رعدة تعترى العبد حينما يرى سيده ناقماً عليه بغضب شديد ، وكم من

الرعب والاضطراب يداخل تلك النفس التى تكون قد احتقرت يسوع وازدرت به عندما تراه آتياً ليدينها ! قال زكر يا النبى : « فينظرون الى الذى طعنوه و ينوحون عليه كنائح على وحيد له و يكونون فى مرارة عليه كمن هو فى مرارة على بكره » (زك ١٢ : ١٠) ذكر إن الباشق يخيف أنواعاً من العصافير خوفاً شديداً حتى انها عندما تراه تحاول التخلص منه ولو تزج نفسها فى بئر عميق أو أتون متقد ، وهكذا يتمنى أن يفعل الهالكون فى يوم الدينونة و يفضلون أن يطرحوا فى أعمق اللجج لو كان ذلك ينجيهم من المثول أمام رب القوات وقد سل عليهم سيف الانتقام . قال الكتاب الالهى « وفى تلك الأيام سيطلب الناس الموت ولا يجدونه و يرغبون إن يموتوا فيهرب الموت منهم » (رؤ ٩ : ٦).

قال الرب عن كيفية مجيئه « وحينئذ يبصرون ابن الانسان آتيا فى سحابة بقوة ومجد كثير »(لو ٢١ : ٢٧) فياله من مشهد قاس على الخطاة حينما يرون أن الديان هو بنفسه الذى مات على الصليب لأجل خلاصهم . وأنه هو نفسه الذى طرحوا كلامه خلفهم . ما أعظم الخزى الذى يستولى على الخاطئ حينئذ وما أشد نخسات ضميره . فخلصنا سيأتى للدينونة بالجسد الذى مات به و بالجراحات التى أراها لتلاميذه عقب قيامته . فينظر اليه الأبرار بفرح لأنهم نالوا الخلاص بهذه الجراحات و ينظر اليه الأشرار بخوف عظيم لأنهم لم يستفيدوا من هذه الجراحات شيئاً .

حينما مثل أخوة يوسف أمامه فى مصر وقال لهم « أنا يوسف أخوكم الذى بعتموه الى مصر » يقول الكتاب « فلم يستطع اخوته أن يجيبوه لأنهم ارتاعوا منه (تك ٤٥ : ٣ و ٤). قال القديس أوغسطينوس « ان السيد المسيح قد اختفى فى مجيئه الأول تحت حجاب ناسوته ولكنه سيأتى فى يوم الدينونة بملء لاهوته . فإذا كان جل شأنه فى حالة تزديه ضعفنا جعل أعداءه يسقطون على الأرض بكلمة واحدة منه عندما قال لهم فى ليلة آلامه « أنا هو » (يو ١٨ : ٦) فماذا يحدث إذا لاح فى مقدمة الجيش السماوى بكل عزته وقدرته . انه يرفع صوته بصيحة أرهب من أصوات الرعود و يكرر كلامه السابق قائلاً « أنا هو » أنا هو الذى أهنتموه وكفرتم به وصلبتموه « أنا هو » هوذا اسم الرب يأتى من بعيد غضبه مشتعل

والحريق عظيم . شفتاه ممتلئتان سخطاً ولسانه كنار آكلة » (اش ٣٠ : ٢٧ ــ ٣٣).

ان الاسرائيليين لما شاهدوا البروق والرعود في جبل سينا داخلهم الخوف جداً وقالوا لموسى « تكلم أنت معنا فنسمع . ولا يتكلم معنا الله لئلا نموت » (خر ٢٠ : ١٩) فكيف يعمل الخاطئ عندما يرى علامات ذلك اليوم ولا سبيل أمامه للهرب ؟ إن آدم حينما سمع صوت الرب بعد المخالفة اختبأ بين الأشجار . أما الشرير فلن يجد له ملجأ بين الشجر لأنها حينئذ تحترق بأغصانها من هيبة الرب .

قال الكتاب « فارتجت الأرض وارتعشت أسس الجبال . ارتعدت وارتجت لأنه غضب . صعد دخان من أنفه ونار من فمه أكلت . جمر اشتعلت منه . طأطأ السموات ونزل وضباب تحت رجليه . ركب على كروب وطار وهف على أجنحة الرياح . جعل الظلمة ستره حوله مظلته ضباب المياة وظلام الغمام من الشعاع قدامه عبرت سحبه . برد وجمر نار . أرعد الرب من السموات والعلى أعطى صوته برداً وجمر نار . أرسل سهامه فشتتهم و بروقاً كثيرة فأزعجهم » (مز ١٨ : ٧ ــ ١٤).

فماذا يقول حينئذ أولئك الذين قدم لهم المسيح ذاته واقتداهم بآلامه المقدسة وموته ولم يخلصوا له بل أساءوا اليه بخطايا متعددة مزدرين بدمه المسفوك « فكم عقاباً أشر تظنون أنه يحسب مستحقاً من داس ابن الله وحسب دم العهد الذى قدس به دنساً وازدرى بروح النعمة فاننا نعرف الذى قال لى الانتقام أنا أجازى يقول الرب . وأيضاً الرب يدين شعبه . مخيف هو الوقوع فى يدى الله الحى » (عب ١٠ : ٢٩ ــ ٣١).

اننا نجد فى هذا الزمن كثيرين من البشر لا يخافون يسوع ولا يهابونه كما يهابون أقل الناس . أنهم يخشون أن يقترفوا اثماً ضد أحد فيدفعه الغيظ الى الانتقام منهم ، ولكنهم يرتكبون مخالفة الله والتجديف على اسمه بغير مبالاة « القائلين لله ابعد عنا وماذا يفعل القدير لهم » (اى ٢٢ : ١٧) « لذلك تقلدوا الكبر ياء . لبسوا كثوب ظلمهم . جحظت عيونهم من الشحم جاوزوا تصورات القلب . يستهزئون

و يتكلمون بالشر ظلماً من العلاء يتكلمون . جعلوا أفواههم فى السماء ، وألسنتهم تتمشى فى الأرض ... وقالوا كيف يعلم الله وهل عند العلى معرفة» (مز ٧٣ : ٦ — ١١).

فلأجل ذلك قد خصص الرب يسوع يوماً معيناً هو يوم الدينونة العامة الذى فيه يعلن ذاته ليعرف الجميع انه هو السيد العظيم المطلق التصرف ومن ثم لا يدعى هذا اليوم يوم رحمة أو يوم رأفة أو يوم غفران بل يقول عنه صفنيا النبى «قريب يوم الرب العظيم قريب وسريع جداً . صوت يوم الرب . يصرخ حينئذ الجبار مراً . ذلك اليوم يوم سخط ، يوم ضيق وشدة يوم خراب ودمار ، يوم ظلام وقتام ، يوم سحاب وضباب ... وأضايق الناس فيمشون كالعمى لأنهم أخطأوا الى الرب فيسفح دمهم كالتراب ولحمهم كالجلة . لا فضتهم ولا ذهبهم يستطيع انقاذهم فى يوم غضب الرب بل بنار غيرته تؤكل الأرض كلها . لأنه يصنع فناء باغتاً لكل سكان الأرض » (صف ١ : ١٤ — ١٨).

ونور المسيح فى ذلك اليوم سيكون للأبرار سروراً وبهجة ، وللأشرار حزناً عظيماً وكدراً جسيماً فيبكون بكاء مراً و ينتحبون انتحاباً شديداً لأنهم لم يعملوا لينتفعوا من موته العظيم ليتطهروا بدمه الثمين وعند مشاهدتهم جلال مجده السماوى وسمو بهاء عزته الربانية يطأطئون رؤوسهم ويخنون هاماتهم عند موطئ قدميه .

قال القديس يوحنا ذهبى الفم «فى ذلك اليوم يهمل الانسان كل الكنوز التى جمعها و يذهب الى هناك عرياناً ذليلاً عابساً خائفاً و يقف الجميع فى موقف الدينونة الرهيب حيث ترتجف الملائكة . حيث تنفتح أسفار أعمالنا . حيث الدود العديم الشفقة وحيث الزمهرير القارص ، حيث النوح الذى لا عزاء بعده . حيث الدموع المنهمرة كالطل حيث الظلام الحالك . فاذا عسانا نحتمل حين نقف حاملين أثقال خطايانا على أعناقنا فنرى فى تلك الساعة الألسن المتكلمة بالالحاد و بالأباطيل تلتهب فى السعير التهاباً متواصلاً . وأسنان الثامين تصر ندماً وحسرة . وأفواه المجدفين تسد بجمر النار المضطرمة . وأيدى محبى المال ترتعش كالقصبة المرضوضة . والأعين التى كانت تألف نظر الشر وتفرح بالاثم لا ترى إلا اللهيب

المشتعل والعذاب القاسى .

فأين عند ذلك الانسباء والأهل ، أين حينئذ الاب الشفوق ؟ أين حينئذ الأم المتحننة ؟ أين الاخوة الأحباء ؟ أين حينئذ سلطة ملوك الأرض ؟ أين الذين كانوا يسكرون العقاب ؟ كم من ندامة تستحوذ عليهم . كم يندبون و ينوحون ولا يرحمهم أحد ، كم يتنهدون ولا من يشفق عليهم . فيالله من حزن مفرط . هل لأجل لذة وقتية ومجد حقير زائل نحرم أنفسنا من ذلك المجد الحقيقى ونورثها العذاب الذى لا يطاق ؟.

الفصل الثانى والعشرون
فى الدينونة العامة

«إن كنت تراقب الآثام يارب ياسيد فمن يقف» (مز ١٣٠ : ٣)

إن كثيرين يعتبرون الدينونة العامة ضرباً من ضروب الخرافات ولذلك لا ترى فى أخلاقهم تحسناً ولا فى سلوكهم استقامة لأنه ما من أحد يعتقد «أن كل كلمة بطالة يتكلم بها الناس سوف يعطون عنها حساباً يوم الدين» (مت ١٢ : ٣٦) مع ذلك يمعن فى شره و يقيم فى اثمه. فهل فينا من يؤمن بالدينونة العامة ؟ كثيرون يقولون نعم ولكن ما هى الأعمال التى تتممونها لتكسبوا بها الفخر فى ذلك اليوم ؟ هل التوغل فى محبة العالم. والانهماك فى ملاذه. والسعى المتواصل فى طلب مجده ؟. إذا كنتم تريدون أن تعرفوا هل أنتم تؤمنون حقاً بالدينونة العامة أم لا فعليكم بفحص تصرفاتكم لتروا بأنفسكم أنكم إذا دعيتم لما يخص أجسادكم وأميالكم البدنية سارعتم وعدوتم. وإذا طلب منكم أن تعملوا أمراً يرضى الله انتحلتم الأعذار التى بها تعتذرون وضيق الصدر الذى يستولى عليكم. إن الذى يشعر بأنه مزمع أن يقف أمام قاض فى محكمة عالمية لا يظهر اهمالاً فى الاستعداد مثل أهمالكم أنتم يا من ستقفون أمام القاضى العادل فى محكمة الدينونة الرهيبة.

قال أحدهم «كيف تقولون أنكم تؤمنون بوجود ديان سيدينكم على أفعالكم وأنتم لا تعملون له حساباً ؟ فإن كنتم تؤمنون أن المسيح سوف يدينكم فحسناً تفعلون. ولكن لماذا لا تخافونه ولماذا تجدفون عليه فى حين سخطكم. وتحلفون باسمه زوراً. وتغيظونه وتحزنونه فى ملاهيكم. لماذا تفضلون بشرى على رضاه ؟ ولماذا تؤثرون تركه على ترك عشرة دنسة تميلون اليها ؟ ولماذا تصرفون الأموال الباهظة على الشر والفساد ولا تقدمون منها اليسير لديانكم ؟ أتجسرون على اتيان

هذا العمل مع واحد تعرفون انه سيدينكم ؟ كيف لا وأنتم حتى فى الكنائس تستهينون به فتضحكون وتمزحون بل تسجدون لأصنامكم الساكنة فى قلوبكم وهو قائم أمامكم ؟».

قال الرائى « ورأيت الأموات صغارا وكبارا واقفين أمام الله » (رؤ٢٠ : ١٢) فسيحضر اذا جميع البشر ليدانوا سواء رضوا أو لم يرضوا . وليس أحد من أعظم ملوك العالم يسمو بهذا المقدار حتى يترك . وليس أحد من أحقر فقراء العالم يكون دنيئا بهذا المقدار حتى يهمل . ففى هذا الحشد الذى سيجتمع للدينونة سيأتى الشيوخ والاحداث ، الأقوياء والضعفاء ، الأسرى ، والأمراء ، الأغنياء ، والفقراء ، العبيد والاحرار ، و بالجملة عموم الجنس البشرى .

فما أرهب هذا المشهد حيث الجميع بدون استثناء سيقفون أمام كرسى الديان ليعطى كل واحد حسباباً عما صنع خيراً كان أم شراً . وما أشد صعوبة تلك المحاكمة ، ولذلك يقول المرتل « لا تدخل فى المحاكمة مع عبدك » (مز١٤٣ : ٢).

إن القائد المنتصر يرجع الى المدينة فرحاً يعدد مفاخر انتصاره ، و بعكس ذلك القائد المنكسر فانه يرجع مطاطئ الرأس ذليلاً ، وربما حدا به الحزى الى الانتحار . هكذا يقف البار فى يوم الدينونة كقائد حارب وانتصر يفتخر بما تعب فى سبيل الصلاح وأما الخاطئ فبماذا يفتخر ؟ كان فى الحياة يفتخر بشروره وأما هنا فماذا يقول هل يتباهى بأنه جمع ثروة طائلة لأجلها كان يوقره الناس ؟ هل يفتخر بأنه سعى حتى نال أسمى الرتب وحظى بأجل المراكز ؟ هل يفتخر بأنه تمتع بكل الشهوات والملذات ؟ كل ذلك قد انتهى أوانه ولم يبق أمامه إلا إن يحتمل عقابه .

فما ظنك إذاً أيها الانسان ؟ الدينونة آتية ولا ر يب . مقبلة ولا شك . فعلى أى شئ تتكل ؟ هل على رحمة الله ؟ كيف لا وقد ملأك الله بها حتى فاضت . وهل تظن أن الله سيحاسبك على سيئاتك فقط ؟ كلا تأمل . إذا جلس الديان العادل للمحاكمة يضع أمام عينيك من الجهة الواحدة كل ما فعلت من الشر وكل ما أهملت من الخير ، ومن الجهة الأخرى يضع أمامك حسناته الكثيرة التى جاد عليك بها ورحمته الوافرة التى غمرتك . ير يك كل البلايا التى خلصك منها وكل

الخيرات التى تفضل عليك بها حتى تقابل بنفسك الاحسانات التى وهبها لك مع الخطايا التى كنت تقدمها له .

فيالها من خيبة وعار عظيمين ، و ياله من خزى لا يوصف لمن يرى مديوناً لذلك الديان العادل . فالى أين يهرب ؟ ينظر الى فوق فيرى الديان مستشيطاً من الغضب ، والى أسفل فيرى جهنم مفتوحة لابتلاعه « من يقف أمام سخطه ومن يقوم فى حمو غضبه . غيظه ينسكب كالنار والصخور تنهدم منه » (ناحوم ١ : ٦).

قال بعضهم « لا تروعنى الرعود العظيمة ولا أمطار النار المتكاثرة ولا الصواعق المهلكة ولا السواد المدلهم الذى تتسربل به الشمس بقدر ما يروعنى وقوفى بخجل عظيم أمام الله والناس وأنا أحمل خطاياى ».

إن عبيد داود الملك الذين حلق نصف لحاهم ومزقت ثيابهم لم يستطيعوا أن يظهروا أمام الناس (٢ صم ١٠ : ٥). فكم بالحرى الذين جردهم الشيطان من كل فضيلة وأبعدهم عن كل صلاح وهم يظهرون أمام الخليقة بهذا المظهر ، والشيطان يجذبهم أمام الله كأنهم أسراه وغنائمه . حقاً ما قاله دانيال النبى « وكثيرون من الراقدين فى تراب الأرض يستيقظون .... الى العار للازدراء الأبدى » (دا ١٢ : ٢).

وقد ذكر عن بيوس أحد أعيان رومية أنه لما جئ به الى محفل الشيوخ المشيرين لمحاكمته وعاين الخلق الذين أتوا لمشاهدة المحاكمة أخذ منه الخجل مأخذاً عظيماً عندما شرع القاضى يستجوبه ولم يقو على احتمال هذا الموقف فاستل مدية كان قد أخفاها تحت ثيابه وطعن بها نفسه فخر صريعاً ولكن هيهات أن يكون للاشرار فى يوم الدينونة قدرة على اماتة أنفسهم ليتخلصوا من ذلك العار الذى لا يوصف .

سيكون خجل الأشرار فى ذلك اليوم عظيماً وسيكون لهم من الحزن والضيق بقدر ما يكون للأبرار من الفرح والسرور . و يزداد خزيهم وعذابهم عندما يقارنون بين حالتهم وحالة الأبرار الآن ، الحالة التى كان عليها كل منهما فى الحياة ، فيتذكرون الغنى الباطل والمجد الكاذب والملاذ الدنيئة التى كانوا يتلذذون بها

والتى كانوا يفتخرون بها على اولاد الله و يدركون أن ما لحقهم الآن من العار العظيم إنما كان بسببها ، بينما يرون أن أحزان المؤمنين قد تحولت الى سلام خالد .

وهل يستطيع أى خاطئ أن يعتذر؟ هوذا المخلص قد أقام الأبرار ليدين بهم الأشرار. قال الرسول بولس : « ألستم تعلمون أن القديسين سيدينون العالم » (١ كو٦ : ٢) وكيف ذلك ؟ أيقدر أشقى الخطاة أن يقول فى يوم الدينونة الرهيب يارب أنك كنت تخلص أصاغر الخطاة فقط فلم أتجاسر على الاتيان اليك لأنى كنت من أشر الخطاة فلذلك مت باليأس ؟ هب أنه وجد من يقول ذلك أفلا يظهر له زكا العشار و يقول له لقد كنت أشقى الخطاة ومع ذلك قبلنى المسيح . ولنفرض أن لصاً اقترب من المسيح قائلاً يارب كانت خطيتى السرقة فظننت أنها من الخطايا التى لا تقبل توبة عنها ولذلك لم أتقدم اليك فى الحياة تائباً ملتمساً المغفرة ، ولكن عندما يحدق ببصره و ينظر اللص الذى خلص على الصليب جالساً بجانب السيد بلباس بهى فماذا يكون موقفه ؟ وإذا قال الزانى لقد كنت أعتبر خطيئتى أعظم من أن تغتفر ولذلك لم أتقدم اليك ملتمساً الخلاص ، فانه يرتد خائباً عندما يرى راحاب الزانية والمرأة الخاطئة التى قبل المسيح توبتها وغفر لها ذنوبها .

وليس ذلك فقط بل سيكون خزى الخطاة من المسيحيين عظيماً حينما يواجههم الله بكثيرين من الوثنيين الذين كانوا لا يعرفون الله مدة طويلة من حياتهم ولكنهم عندما سمعوا صوته أطاعوه وتابوا عن خطاياهم . ألم يقل المخلص أن « ملكة التيمن ستقوم فى الدين مع هذا الجيل وتدينه لأنها أتت من أقاصى الأرض لتسمع حكمة سليمان وهوذا أعظم من سليمان ههنا »، « رجال نينوى سيقومون فى الدين مع هذا الجيل و يدينونه لأنهم تابوا بمناداة يونان وهوذا أعظم من يونان ههنا » (مت ١٢ : ٤١ و ٤٢) ألا يقول المسيحى الخاطئ فى ذلك اليوم « تجعلنا مثلاً بين الشعوب . لا نغاض الرأس بين الأمم . اليوم كله خجلى أمامى وخزى وجهى قد غطانى » (مز ٤٤ : ١٤ و ١٥).

فوا أسفاه على الانسان الذى يفتش حينئذ فى سفر حياته فلا يجد فضيلة يستر بها عورته . ولذلك يقول الله لملاك كنيسة اللاودكيين « أشير عليك أن تشترى

منى ... ثياباً بيضاء لكي تلبس فلا يظهر خزى عريتك » (رؤ٣ : ١٨) و يقول الرسول بولس « وإن كنا لابسين لا نوجد عراة » (٢ كو٥ : ٣) وحق الله فى اقامة دعواه على الخطاة ظاهر لا يمكن انكاره فلو كنت فى أى مقام أو رتبة ولحقتك اهانة من أى انسان كنت تسعى للانتقام منه ؟ فكيف إذاً لا ينتقم الله لنفسه ممن أهانوه بشرورهم وهو قادر على الانتقام ، وكيف لا يدين البشر وهو خالقهم والمحسن اليهم ؟.

أما الديان فهو سيدنا ومخلصنا يسوع المسيح وبحق ينبغى أن يدين البشر لأنه هو الاله القادر على كل شئ الذى جاء لخلاصهم ومات لأجلهم فمن حقه أن يحاسبهم على هذه النعمة التى تفضل عليهم بها ليرى هل اعتبروها أم أنكروها و يتضح ذلك من قول المخلص نفسه « الآب لا يدين أحداً بل قد أعطى كل الدينونة للابن » (يو٥ : ٢٢) وقول بطرس عنه « بأن هذا هو المعين من الله ديانا للأحياء والأموات » (اع ١٠ : ٤٢) وقول بولس « لأنه أقام يوماً هو فيه مزمع أن يدين المسكونة بالعدل برجل قد عينه مقدماً للجميع ايماناً إذ أقامة من الأموات » (اع ١٧ : ٣١).

قال أحدهم « فحينئذ يأتى ابن الله يسوع المسيح حاملاً علامة الانتصار وملائكة السماء تخدم عزته الالهية فترفع القبائل أصواتها وتعترف صارخة بصوت واحد هللويا . هللويا . المجد لك يا ابن الله يسوع المسيح . وأما الذين أنكروه واحتقروا انجيله فيطرقون وجوههم وتذرف عيونهم دموعاً ، وتظهر ذنوبهم و يصرخون من مرارة قلوبهم . الخجل يغطى وجوههم و يقولون أيتها الجبال اسقطى علينا وغطينا من أمام وجه الجالس على الكرسى ، الذى لا يقبل لنا عذراً الأن لأنه قد أنذرنا قائلاً توبوا قبل يوم الدين وإلا فستموتون بخطاياكم . هذا هو يوم النقمة أما الزمان المقبول فقد مضى . يطلبون الموت فيبتعد عنهم و يطلبون الفناء ولا يجدونه . يتذكرون حينئذ العظات والانذارات التى كانت توجه اليهم فى الحياة ولم يكونوا ليعيروها اهتماماً ولكن باطلاً كل ذلك لان اليوم يوم الحصاد . يعرفون الذى أنكروه و يقرون أنه هو المسيح المخلص الذى كلمهم بانجيله الطاهر حيث قال لهم توبوا وارجعوا عن طرقكم الرديئة فتحيوا وتعالوا الى وأنا أريحكم . يقولون رفضنا

تعاليمه الصادقة واحتقرنا انجيله المقدس ورسله الذين بشرونا باسمه وحسبنا قولهم كذباً أو من الأحاديث الفارغة . ضللنا ولا هادى لنا ولا منقذ ولا مخلص . اسقطى اذن علينا أيتها الجبال وغطينا من أمام وجه الجالس على الكرسى الذى سفك دمه الطاهر لأجلنا وأخذنا خاصة له وقربنا اليه ونحن ابتعدنا بارادتنا ، و بآثامنا استوجبنا نقمته . أنكرناه قدام الناس فاستوجبنا ان يذكرنا قدام أبيه الذى فى السموات . فحينئذ تسطع هيبة العلى على الجالسين لد عزته وتقع الرهبة الأخيرة فى قلوب بنى البشر الذين احتقروه وخالفوا نواميسه الالهية ورفضوا كلمته المكتوبة و يلتفت اليهم برجزه وغضبه آمراً ملائكته إذ يقول لهم اجمعوا الزوان واحزموه حزماً حزماً واطرحوه فى بحيرة النار الى الأبد و يلتفت الى الأشرار و يقول لهم اذهبوا من أمام وجهى الى النار المؤبدة المعدة لابليس وجنوده . اذهبوا ياملاعين . قسيتم قلوبكم فلم ترجعوا الى لأشفيكم . أعطيتكم عيوناً لتبصروا فاغمضتموها وآذاناً لتسمعوا كلماتى فلم تسمعوا . فأنا الآن لا أسمع صراخكم واغمض عين رحمتى عنكم فتهلكون من أمام وجهى . كتبت لكم ناموسى فى قلوبكم فحيتموه بآثامكم . وأرسلت لكم مبشرين فاحتقرتموهم . صرت انساناً وكلمتكم بالمحبة كما يكلم الاب ابنه فصممتم آذانكم ولم تريدوا أن تسمعوا قولى فتحت لكم باب نعمتى فرجعتم الى الوراء ولم تدخلوا . رفضتمونى ورفضتم انجيلى وكلمتى كلمة الحق . داو يتكم فلم تريدوا أن تشفوا فأظهرت ذنوبكم الآن وأمرت العناصر أن تشتكى عليكم . أحببتم مبغضى بغضة بى . اتفقتم على صنع الشرلتضطهدونى وأحببتم ملذاتكم أكثر منى أنا الذى سفكت دمى لأجلكم . اصطباراً اصطبرت عليكم وألهمت المبشرين باسمى أن ينذروكم فأنذروكم ولم تسمعوا لهم ومتم بخطاياكم . فالآن قد صقلت سيفى وهيأت قوسى وملأت أناء رجزى وأبعدت رحمتى عنكم فمن يخلصكم من يدى أو من ينجيكم من نقمتى أو من يشفع فيكم لدى ؟ رفضتمونى أنا شفيعكم الوحيد و بعتمونى بملذات الحياة القصيرة التى لم أطل أيامكم فيها إلا لتتوبوا وتعودوا الى ، وما شفقتم على أنفسكم التى اشتريتها بدمى ولا رجعتم عن رجاساتكم . أجيبونى الآن واعطونى حساباً عن كل ما صنعتم . أجيبوا الآن ماذا فعلتم بنعمتى التى كانت تقرع أبواب قلوبكم ولم تريدوا أن تفتحوا لها . لقد قسيتم قلوبكم وأغلظتم أعناقكم وتمردتم على بأفعالكم

فلو كانت لكم حجة صحيحة لعذرتكم ولكن لا حجة لكم . الآن تدانون بأفعالكم وهي تحكم عليكم بالنار الأبدية التي قد أعدت لأبليس وجنوده « فاذهبوا عني يا ملاعين الى النار المؤبدة حيث البكاء وصرير الأسنان ». فيالها من ساعة مرعبة ، و ياله من يوم يسيل الجماد .

ولننظر الآن كيفية المحاسبة وماهية الدينونة وكيف يدين الله البشر. قال يوحنا الرسول في سفر الرؤيا ، ورأيت الأموات صغاراً وكباراً واقفين أمام اله وانفتحت أسفار وانفتح سفر آخر هو سفر الحياة ودين الأموات مما هو مكتوب في الأسفار بحسب أعمالهم » (رؤ ٢٠ : ١٢) وقال دانيال النبي « كنت أرى أنه وضعت عروش وجلس القديم الأيام . لباسه أبيض كالثلج وشعر رأسه كالصوف النقي وعرشه لهيب نار و بكراته نار متقدة . نهر نار جرى وخرج من قدامه . ألوف ألوف تخدمه وربوات ربوات وقوف قدامه . فجلس الدين وفتحت الأسفار » (دا ٧ : ٩ و ١٠).

فدينونة بني آدم ستكون حينئذ بموجب أسفار. قال القديس أوغسطينوس . « الويل لحياة بعض الناس إذا فحصتها ياالهي بحق » وكيف يقوون على الجواب حينما يتكلم عليهم بغضب و يرجفهم بغيظه (مز ٢ : ٥) وأول أسفار الدينونة هو « الكتاب المقدس » قال السيد المسيح « من رذلني ولم يقبل كلامي فله من يدينه . الكلام الذي تكلمت به هو يدينه في اليوم الأخير» (يو ١٢ : ٤٨) ففي ذلك اليوم يقف المسيح و يسأل كل واحد قائلاً : ماذا عملت بانجيلي هل أطعت التعاليم التي ذخرتها لك فيه هل لهجت بشرائعي ونواميسي هل اتخذتها دستوراً لحياتك وأعمالك . هل جعلتها عمادك وموضوع فرحك وسرورك في حياتك أم رفضتها ولم تكترث بها واعتبرتها هذياناً . هل أخضعت نفسك لها أو تمردت عليها طوعاً لارادتك وأفكارك . هل أسكنتها في قلبك كسيد لكي تتسلط عليك وتديرك حسب ارادتها ، أوجعلتها عرضة لتمويهاتك وتخريفاتك وتأويلاك الكاذبة حسب ميل قلبك الشرير الممتلئ بالغرور. هل اتخذتها سراجاً تستضئ به أم آثرت أن تعيش في الظلام . هل قبلت الكلمة معتبراً اياها خارجة من فمي ، قادرة أن تنقي قلبك وتمنحك الخلاص . هل حفظت طرقي ووصاياي وسلكت بموجبها أو أهملتها

وأطعت أوامر ابليس عدوك وعدوى ؟».

فإن اتخذ الانسان كتاب الله مصباحاً له وسار مهتدياً به يحصل على النجاة. أما إذا أهمل ذلك الخلاص الذى تكلم به الرب فلا يمكن أن ينجو. سيقف الكتاب المقدس فى ذلك اليوم و يشتكى على كل من تعداه وأهمله ولم يتمم ما جاء فيه.

وبما أن الديان العادل غيور على كلمته فسيقضى على أولئك الأشرار بقضاء كتابه الكريم. ذلك القضاء المريع القائل «لأنى دعوت فأبيتم ومددت يدى وليس من يبالى. بل رفضتم كل مشورتى. أبغضتم العلم ولم تختاروا مخافة الرب. لم ترضوا مشورتى. رذلتم كل توبيخى. فكلوا الآن من ثمر طريقكم واشبعوا من مؤمراتكم» (ام ١ : ٢٤ — ٣١).

و يوجد أيضا سفر أخر يدين به المسيح البشر وهو «سفر الضمير». ولهذا يقول الرسول بولس «لذلك أنا أيضا أدرب نفسى ليكون لى دائماً ضمير بلا عثرة من نحو الله والناس» (اع ٢٤ : ١٦) وقال أيضا «لأن فخرنا هو هذا شهادة ضميرنا» (٢ كو ١ : ١٢) فانه فى يوم الدينونة سيقف أمام ذلك الديان العادل أولئك الذين عاشوا بدون أن يعبأوا بربهم و بآخرتهم أو يهتموا بأرواحهم الخالدة وبما يلزم لها وسيقف بجانبهم ذلك الضمير الذى تعب كثيراً عندما كان يؤدى وظيفته بين أولئك الأشرار، وسيرفع الديان صوته قائلاً «قم أيها الضمير. أيها النائب الجليل واشتك على هؤلاء الواقفين أمام القضاء» فيقوم الضمير معدداً كل شرور الانسان وكيف كان يوبخه عليها، كما قال الرسول «شاهدا أيضاً ضميرهم وأفكارهم فيما بينها مشتكية أو محتجة» (رو ٢ : ١٥).

فان كان الانسان كافراً يقول له «كثيراً ما أظهرت لك وجود الخالق سبحانه فى الطبيعة وقوانينها التى صاغها وسنها بقوته فضربتنى وأخمدت قوتى» وإن كان يهودياً يقول له «كثيراً ما كلمتك بمجئ المسيح سيدك كما فى أسفار العهد القديم وقلت لك انه هو الملك الذى اتى الى العالم للخلاص فوضعت يدك على فى

وأسكتني » وإن كان مسيحياً بالاسم يقول له « أتذكر اني مراراً كنت أظهر لك واجباتك وأوبخك على أعمالك الشريرة وعدم عيشتك بالأمانة لمن مات لأجلك. ألا تذكر انى كثيراً ما كنت أؤنبك على تهاونك بتعاليم الكتاب المقدس وأوصيك بالصلاة وغيرها من الفضائل فكنت تتغاضى عن سماع صوتى وترفض العمل بمشورتى التى كنت أقدمها لك بكل محبة واخلاص ».

وإذا كان من محبى المال يقول له « كثيراً ما كنت أردعك عن السعى وراء المال وأفهمك أن المال يطغيك و ينسيك الهك. وأنك لا تأخذ منه شيئاً يوم تموت فكانت آذانك مسدودة بالذهب والفضة فلم تسمع كلامى » وإذا كان من محبى الشهوات يقول له « مراراً عديدة كنت أبكتك على خطاياك وأقول لك انها مكرهة للرب ، وأنك بذلك تسعى فى طريق جهنم فكنت تضربنى بضربات متنوعة ، مرة بقضيب حب الذات ، ومرة بعصا محبة العالم وأمجاده وأخرى بالخضوع لشهوات الجسد حتى أخمدت أنفاسى ولم أعد قادراً على الحركة ».

فيقول الديان العادل جواباً على ذلك « أيها الضمير انك لم تقصر فى اتمام واجباتك ولا ذنب عليك ولكنهم هم المذنبون فى عدم اصغائهم لك وفى عدم اتباعهم نصائحك. لذلك قم أيها الضمير وانتقم لنفسك منهم للضربات التى ضربوها لك فى حياتهم الأرضية. تسلط عليهم فى جهنم وكن لهم دوداً لا يموت ينخر فى أحشائهم و يعذبهم بأشنع أنواع العذاب. ثم يلتفت نحو المذنبين و يقول لهم « بما أنكم لم تطيعوا أوامرى ولم تحفظوا عهودى فليمكث عليكم غضبى ولتأكلكم النار الى أبد الابدين ».

والسفر الثالث هو « سفر التوكيل » فعندما يفتح هذا السفر يقول السيد المسيح لكل واحد « اعط حساب وكالتك » (لو١٦ : ٢) لقد كنت موكلاً على وزنات كثيرة متنوعة. كنت موكلاً على جسم فماذا عملت له ؟ هل حفظت صحته بكل ما فى إمكانك ؟ هل حفظته خالياً من الشوائب أو أسممته بتجرع المسكرات وعرضته بها للتضعضع وارتكاب الأمور التى لا ينتج عنها إلا الضعف وانتهاك القوى ؟

كيف تصرفت بعينيك ؟ هل استعملتها فى طريق الطهارة أم النجاسة . هل ظننت أن الغاية من خلقهما لم تكن إلا للتمتع بالمناظر المبهجة والمرائى الجميلة التى تعرض للسقوط فى الخطية ؟ أم أنك استعملتها فى ما هو لائق و بالأخص فى قراءة الكتب التى تهذبك دينياً وأدبياً وترشدك الى معرفة ارادة الله من نحوك ؟

ماذا عملت بلسانك . هل استعملته فى الشتم والتلفظ بالألفاظ القبيحة والقاء الفتن بين الناس والتلفظ بالأغانى المبتذلة والأنغام الشيطانية . أم أستعملته فى تسبيح ربك بالنغمات الروحية وفى التكلم مع الآخرين ببشارته ، والى غير ذلك من الأعمال الحسنة الممدوحة .

ماذا عملت بعقلك ؟ هل استخدمته فى التفكير فى عمل الشر وايجاد الضغائن وتأليف الكتب والمقالات الكفرية وغيرها من الامور الضارة للعالم . أم استعملته فى التفكير فى محبة الله وفى تأليف الكتب التى من شأنها تهذيب الآخرين وفى عمل الخير ونشر ألوية السلام بين الناس ؟

لقد وكلتك على روح ، فهل اهتممت بها جيداً ؟ هل اعتبرتها ذات قيمة فى نظرك وشعرت انك لا تستفيد إذا ربحت العالم كله وخسرتها ؟ أو أنك عشت كالبهائم التى لا تدرك .

أيضاً وكلتك على أموال ، كثيرة كانت أو قليلة ، فكيف تصرفت بها . هل صرفتها فى ملذاتك وشهواتك الدنيوية أم استعملتها فى عمل الخير ومساعدة الفقراء والمحتاجين وغير ذلك من الأعمال النافعة .

وأيضاً أعطيتك وقتاً . فكيف قضيته ؟ هل فى لعب القمار والجلوس بالمقاهى ومحلات الألعاب الرديئة وغير ذلك من الأمور الممقوتة . أم قضيته فى السعى وراء الأمور الضرورية لخلاص نفسك وفى عبادة ربك وعمل مشيئته وخدمة الآخرين !

« أعط حساب وكالتك » هل أحببت الله حباً خالصاً حقاً . هل كنت تقود الناس الى الخير أو الى الشر . كم قتلت بشكوكك ونميمتك وكم أفسدت . كم

اختلست من مال غيرك ؟

« أعط حساب وكالتك » أين وضعت نفسك . أين جعلت صورتك . أين القيت وزنتك ، أفى حمأة الزنى الرجسة . أفى نجاسة الفسق ودنس الفجور . أفى لحد النهم والسكر ! أفى قبر الطمع والشراهة .

« اعطوا حساب وكالتكم » أيها المحبون للفضة والبخلاء ، أيها الخطفة والمرابون . أيها الخائنون . أين وضعتم قلوبكم ؟ أفى رمس الاحتشاد والاستكثار ! أفى قبر الجور والظلم ! أفى لحد الخطف والنهب .

« اعطوا حساب وكالتكم » أيها الحاقدون . أين وضعتم ضمائركم وأفئدتكم ؟ أفى قبر الوشاية والسعاية ! أفى لحد الاساءة والضرر ! أفى قبر القتل والعداوة !

« اعطين حساب وكالتكن » أيتها النساء الجاهلات المتراخيات . اين وضعتن قلوبكن ؟ أفى أيدى ابليس المحتال . أفى أيدى السحرة والمنجمين ! أفى التزين والتجمل . أفى تحسين الوجوه بالأدهان واللطوخ و بقية الآلات الشيطانية !.

« اعطوا حساب وكالتكم » أيها الرعاة الذين سلمت اليكم النفوس لترعوها . أين وضعتم عقولكم وقلوبكم ! أفى اتباع نواميسى وشرائعى أم فى عادات العالم الجاريه . أفى التصرف بارادتى ومشيئتى أم فى هوى أميالكم البشرية الشريرة فكنتم عثرة للآخرين !

« اعطوا حساب وكالتكم » هل فيكم جميعاً من يحتج أنه أخطأ جهلاً ؟ أيها الخطاة : لو قلتم ذلك لقامت عليكم المنابر وجميع أجراس الكنائس والأسفار الالهية وخدام الكلمة وكذبوكم لأنهم طالما نصحوكم والتمسوا منكم أن ترجعوا عن غيكم ولكنكم رفضتم المعرفة ولذلك أنا أرفضكم (هو ٤ : ٦).

هل تحتج انك حملت على الخطأ مكرها ! هل تقول انك لأجل مولاك أو صاحبك شهدت زوراً أو سرقت سرقة أو سعيت فى سبيل الاثم ! هل تقول انك لأجل أن تعول عائلتك غالطت فى الميزان وغششت فى المكيال ! هل تعتذر أيها

الرجل بامرأتك ! هل تعتذرى أيتها المرأة بزوجك ؟ كلا . كلا . أنت بلا عذر أيها الانسان (رو ٢ : ١) لم أترك فى كتابى أى ارشاد إلا وقدمته لكم فلو فحصتموه لعرفتم قوانين هذه الدينونة . لقد سبق أبوكم آدم وستر نفسه بأوراق التين ولكن لم تخف عنى خطيئته فاعتذاراتكم لا تستر عيوبكم . أنا فاحص القلوب والكلى . عرفت أن الذى دفعكم الى الشر ليس التخلص من الفقر أو ضغط الآخرين عليكم بل هو ميلكم الفاسد ورغبتكم الشريرة .

قال أحدهم « حينئذ يقول المخلص للخاطئ لقد رفضتنى ورفضت تعليمى . لقد بذلت نفسى من أجلك واشتريتك بدمى فلم أبغضتنى مجاناً ؟ مهدت لك طريق الحق لئلا تعثر رجلك . فلماذا عرجت عن طريقى وسلكت فى سبلك التى أفضت بك الى وهدة الهلاك ؟ بشرتك بانجيلى بأفواه عبيدى و بكلمتى المكتوبة . فلم سددت أذنيك ؟ وبماذا تجيب عند ذلك . أن أجبت بالكذب فترى على من تكذب ؟ أتكذب على فاحص القلوب والكلى ؟ وإن أجبت بالصدق فان وقت التوبة يكون قد فات لأن اليوم هو يوم الدينونة ولا يقبل فيه عذر ولا رجاء . وما أعظم جهل الذى يرفض الآن بشارة الانجيل التى تقود الى الحياة الأبدية و يصنع بيديه آلة هلاكه الأبدى . و يسير على قدميه الى هوة الهلاك مختاراً و يغمض عينيه لئلا يرى النور . و يسد أذنيه لئلا يسمع الحق . وإن قال أحدهم اننى كنت أخالف شريعة الله وأعرف أننى قد فعلت إثما ولكن لا أعرف ماذا أصنع لأتبرر فأجيبه . أيها الأخ الحبيب : أما تعلمت منذ صباك الأسفار المقدسة وسمعت كلام الحق ؟ أما تذكر أنك حالما بلغت الصبوة أخذ والداك يلقنانك لتنطق باسم يسوع كأنهما يريدان أن يرضعاك اياه مع اللبن وكم من مرة رفعا أيديهما الى السماء متضرعين الى يسوع المسيح من أجلك . ولما صرت فى سن التمييز كم مرة سمعت كلام الله فى بيته وكم عظة بلغت أذنيك . فمن يقبل بعد ذلك عذرك ؟ من يعذر جهلك ؟ ومن يصدق أنك لم تعرف الطريق المؤدى الى الخلاص وأنت مسيحى تهذ ليلاً ونهاراً بتلاوة الانجيل المقدس إن النور الطبيعى عنه كاف لأن يدلك على طريق الخلاص ، والشريعة المطبوعة فى ضميرك تكفى لأن تحثك على السعى فى طريق الحياة فكم بالحرى إذا كانت الشريعة المكتوبة أمام عينيك الجسدية تحثك كل يوم وكل

ساعة ، فعذرك من هذا القبيل غير مقبول فانك عرفت جيداً طريق الحق إلا انك لم ترد أن تسلك فيه . وإن قال آخر قد عرفت بشارة الانجيل وتعلمت الأسفار المقدسة منذ صباى ولكن لم أر أحداً يسير بموجبها فلهذا تغاضيت عن أمر الخلاص قائلاً ما إذا إلا واحد من كثيرين و « فى يوم الله يعين الله » فأنا أجيبه قائلاً أيها الأخ الحبيب لقد خدعك الشيطان بهذا الفكر الردئ ليلهيك عن تدبير نفسك وتجهيز الاعمال الصالحة ليوم الدين وأنت تعلم جيداً أن لك نفساً واحدة لا غير وفى يوم الحشر ستكون ملزماً أن تقدم جواباً لله عنها وحدها لا عن غيرها فمالك إذاً وقريبك ! هل أقامك الله وكيلاً أو محاسباً على أنفس عبيده ؟ وهل يجازيك بذنب غيرك ؟ فأنت تقول انك تعرف البشارة المقدسة وقد درست الأسفار الالهية منذ صباك وإن الحق والحياة فيها . أما قال الله لا تدينوا لئلا تدانوا و بالكيل الذى تكيلون به يكال لكم !

فدبر نفسك ياأخى ولا تشغلن أفكارك بما لا يعنيك . فكل هذه الأفكار ما هى إلا وساوس ابليس ونتائج قساوة القلب فلا فائدة لك من هذا العذر مطلقاً بل بالعكس تزيد على اثمك بالنميمة التى تنم بها على قريبك الذى لست بملزم أن ترد عنه جواباً فى يوم الدين . لأن فى ذلك اليوم كل واحد يقدم جواباً عن نفسه فقط وكل مجرم يحاسب على ذنوبه الشخصية . فهذه الحجج التى تقدمها لتعتذر بها عن معصيتك ورفضك النور الالهى باطلة . وأنت تعرف أنك أثمت ولكن أميالك المعوجة وارادتك المتصلبة لا تدعك تعود الى سبل الهداية والحياة . فويل ثم ويل لمن يظن أنه باعتذاراته يقدر أن ينجى نفسه من رجز الله فى يوم النقمة . لأن ذلك اليوم هو يوم الحساب وليس يوم الاعتذار وأنا أكرر القول الويل لمن لا يسمع كلمة الله . الويل لمن يرفض بشارة الانجيل و ينشغل بملذات هذه الحياة الفانية التى تزول مع الزمن . ستندمون أيها الخطاة حيث لا يفيد الندم وتعضون البنان تحسراً . سيروا الآن فى طرقكم الملتوية وتناسوا يوم الآخرة ، ذلك اليوم الرهيب . . واغمضوا أعينكم عن النور . وأقيموا لأنفسكم حججاً ولكن ستندمون حين تقفون أمام الديان العادل لتعطوا جواباً عن كل ما فعلتم فى دور هذه الحياة عندما تفتح مصاحف ذنوبكم وتراها كل عين . سروا الآن وابتدعوا لأنفسكم سنناً وشرائع لتفلتوا من طاعه

المسيح الذى حرركم من نير عبودية الجحيم . ولكن ستعلمون فى يوم الدينونة انكم قد بنيتم على رمل وإن جميع أعمالكم ما هى إلا قش تقع عليه نار السعير الدائم فيحترق وأى احتراق .

فبماذا يجيب الانسان حينئذ ! لقد أخبرنا الكتاب أن كل الذين كشفت لهم عيوبهم وسئلوا عنها لم يستطيعوا أن يقدموا جواباً . لقد قال ناثان لداود بعد أن أوضح له خطيته : « أنت هو الرجل » فلم يجب بكلمة (٢ صم ١٢ : ٧) ولما وبخ ايليا أخاب الملك لاغتصابه كرم نابوت لم يلق جواباً (١ مل٢١ : ١٩) ولما وبخ الذى حضر الى العرس وليس عليه ثيابه بالقول « يا صاحب كيف دخلت الى هنا وليس عليك لباس العرس » يقول الكتاب « فسكت » (مت ٢٢ : ١٢) هكذا يكون فى يوم الدينونة . ليس للخاطئ حينئذ إلا أن يسكت .

وبعد نهاية المحاسبة يتقدم المشتكون والشهود فيقف الشاهد الأول وهو « الشيطان » ويشهد على الخطاة ثم يكشف لك واحد منهم جميع ما صنع من الآثام والشرور معيناً له الوقت الذى ارتكبها فيه بالتدقيق وبعد ذلك يصيح قائلاً « إن هذا الانسان صار ملكاً لى لأنه ارتضى فى الأرض أن أملك عليه وعمل بوصاياى وأطاع مشورتى فينبغى أن يكون حيث أكون أنا فى المكان المعد لى (مت ٢٥ : ٤١).

ثم يتقدم الشاهد الثانى وهو « الخطايا » ويقف أمام ضمير كل انسان فيرى ما ارتكبه منها مخطوطاً بحروف من نار ويرى كل أنواع قساوته وتشامخه وفخفخته وغروره وكل أنواع رجاساته ودعارته وكل نواياه وخفاياه وكأن هذه الخطايا تقول له « بما أنك أحببتنا فى الأرض وملت الينا فلذلك تعلقنا بك الى النهاية وأتينا برفقتك الى هذا المحشد ولا نفارقك الى أبد الابدين ».

ثم يتقدم الشاهد الثالث وهو « كفارة المسيح والفداء الذى افتدى به البشر ». قال القديس يوحنا ذهبى الفم « إن جراحات المسيح تشهد على ذنبك أيها الخاطئ ، ومسامير يديه ورجليه تشتكى عليك ، وصليبه يهتف ضدك ».

قال أحد الأفاضل « ليس غيظ أشد من غيظ الصديق من صديق له خانه أو غيظ الأب من ابن له اهانه ، أو ألم العريس من عروسه إذا خالفت مشيئته لأنه كلما كانت روابط المحبة أمتن وأشد كان الغيظ إذا ما صدرت أمور تتنافى مع هذه المحبة أعظم وأنكى » فما أمر التوبيخ الذى يوبخنا به مخلصنا الالهى إذ يرينا صليبه المقدس الذى قد هدرنا نحن كل ثمنه ، و يظهر لنا جراحاته و يذكرنا بدمه الذى سفك من أجلنا . ما أشد الغيظ والغضب اللذين ينظر بهما الى الخطاة الذين من أجل خلاصهم قد تحمل أشد صنوف الآلام مدة حياته على الأرض ليعد لهم الميراث السماوى المخلد . انه تقدس اسمه سيدينهم لأنهم كفروا به ، ويهينهم كما أهانوه ، و ينساهم كما نسوه . فمن يقف أمام غضبه ؟

وحينئذ يتقدم ملائكة الله ليفصلوا الاشرار من الأبرار ، فيقف الأبرار عن يمين الديان أما الهالكون الأشرار فيحشرون جميعاً على اليسار نظير الجداء المعدة للذبح كما يقول أيوب « انه ليوم البوار يمسك الشرير ليوم السخط يقادون » (أى ٢١ : ٣٠) وهم ينتظرون الحكم الرهيب الذى يقضى عليهم بالهلاك الأبدى .

اننا هنا نجد الاشرار يحتقرون الأبرار و يزدرون بهم فيعيش الخطاة فى سعة وسرور ورحب ، و يعيش المؤمنون فى ضيق وكرب ، ولكن أيها الصديقون لا تحزنوا ، ولا تكتئبوا أيها الابرار فسوف يأتى وقت فيه تقام دعواتكم حيث ينتقم الله من الظالمين وحيث يتحول حزنكم الى فرح (يو١٦ : ٢٠) أما أنتم يامحبى العالم فهناك بلا ريب تغيرون أفكاركم وتندبون جهلكم . قال الكتاب واعداً البار « إنما بعينيك تنظر وترى مجازاة الأشرار » (مز ٩١ : ٨) وقال أيضاً « ولكم أيها المتقون اسمى تشرق شمس البر والشفاء فى أجنحتها ... وتدوسون الأشرار لأنهم يكونون رماداً تحت بطون أقدامكم » (ملا ٤ : ٢ و ٣).

فحينئذ يتبدل الحال و يتغير فمن كان عالياً ينحط ، ومن كان منخفضاً يرتفع . ووقتئذ يقوم هابيل زاجراً أخاه التعيس قايين ، و يلتفت يوحنا المعمدان الى هيرودس مبكتاً ومعنفاً وهكذا يقوم المظلومون على الظالمين والمحتقرون على العظماء . نعم يقوم موسى على فرعون . ونابوت على أخاب . وايليا على ايزابل .

وداود على شاول . هناك يتقدم هيرودس ليجازى على ما صنع وتلتهب أعضاء نيرون بنار غضب القدير . أما بولس فيطلب لكى يأخذ الاكليل الذى أعده الله للذين يحبونه . وبطرس يتقدم ليستلم الميراث الذى لا يفنى ولا يتدنس ولا يضمحل المحفوظ لأجله فى السماوات « طوباكم أيها المساكين لأن لكم ملكوت الله . طوباكم أيها الجياع الآن لأنكم تشبعون . طوباكم أيها الباكون الآن لأنكم ستضحكون ... ولكن ويل لكم أيها الأغنياء لأنكم قد نلتم عزاءكم .. ويل لكم أيها الشباعى لأنكم ستجوعون . ويل لكم أيها الضاحكون الآن لأنكم ستحزنون وتبكون » (لو٦ : ٢٠ و٢١ و٢٤ و٢٥).

عند ذلك لا يجد الأشرار مفراً من العقاب ولا مهرباً من العذاب لأنه « مخيف هو الوقوع فى يدى الله الحى » (عب ١٠ : ٣١) فلا يستطيع الخاطئ أن ينظر شيئاً لأن الديان نفسه هو العارف والشاهد (أر٢٩ : ٢٢) ولا يكون له أى وجه فى نقض الحكم والتماس اعادة النظر فيه لأن الله يحكم بغير محاباة حسب عمل كل واحد » (١بط ١ : ١٧) وبالاجمال يقفل دونه كل باب وينتزع منه كل رجاء ويحل به اليأس المفرط . أما الأبرار الصديقون فانهم يكونون على حال من السرور والانشراح أجل من أن توصف « بهذا تكملت المحبة فينا أن يكون لنا ثقة فى يوم الدين » (١يو٤ : ١٧) ثم يلتفت يسوع اليهم جميعاً بوجه يعلوه السرور ويخاطبهم بكلمات رقيقة حلوة قائلاً لهم « تعالوا يامباركى أبى رثوا الملكوت المعد لكم منذ تأسيس العالم » (مت ٢٥ : ٣٤) وهكذا فى وسط الأصوات المبهجة والتراتيل اللذيذة يصعدون بجلال فوق الكواكب ويستوون على عروش المجد الى أبد الدهور .

فهيا أيها الأبرار هيئوا ذواتكم للسعادة الدائمة ، انهضوا لها فقد آن الأوان لتكللوا بعد انتهاء الجهاد . ابصروا المسيح الذى تاقت نفوسكم اليه . هيا فعاينوا مملكته التى أعدها لكم . هيا فأبصروا الرب الذى أحبكم وأحببتموه وافرحوا معه فرحاً لا يوصف وليس ينزع أحد فرحكم . هلموا فتمتعوا بالخيرات التى لم ترها عين ولم تسمع بها أذن ولم تخطر على بال انسان .

حينئذ يقول البار بأعلى صوته « ما أجمل هذا الملك العجيب الذى شراه لنا

المسيح بدمه الثمين ؟ يالها من محبة عظيمة أن يكون هذا ثمرة الايمان وآخرة عمل الروح ! هل ساقتنى رياح النعمة فأوصلتنى الى هذا المرفأ الأمين ؟ أهذا المجد الفائق كان يقتادنى المسيح ؟ يالها من طريق مباركة وآخرة سعيدة ، هذا هو المجد الذى تكلم عنه الكتاب وكرز عنه الخدام ، الآن أرى أن الانجيل هو بشارة مفرحة لجميع الشعب . أيأتى بى نوحى والآمى وتعبى وانينى وهزء العالم بى الى آخر هذه أمجادها ! ويحك أيتها الطبيعة يا من قاومت هذه البركات ، ويحك أيتها النفس غير المستحقة لهذا المجد كم كنت تأبين السير نحوه ؟ ويحك أيها القلب الخداع كم كنت تريد أن تسلمنى الى اللهيب الأبدى وأن تحرمنى من هذا المجد ! ويحك أيها الجسد الساقط كم كنت تطمع فى الملذات لتحرمنى هذه السعادة العظمى ! أما كنت تحضنى على ركوب متن الشر لأبتعد عن الاستقامة ؟ أما كنت تجرنى الى الشك والريب ؟ و يا نفسى إلا تمتقعين خجلاً من طمعك فى الابتعاد عن الحق الذى لولاه ما جئت الى هنا ؟ ألا تخجلين إذ كنت تتملصين من محبة القدير ؟ ألا تخجلين إذ كنت تفكرين بأمور رديئة عن الله ؟ ألا تخجلين من عزمك سابقاً على الهروب من العناية الالهية التى لولاها ما وصلت نهاية هذه الطريق . والآن إذ أنت مقتنعة أن الطريق التى كنت تسمينها « صعبة » والكأس التى كنت تقولين أنها « مرة » إنما كانتا ضرورتين لك وان الله قصد بهما خيرك ، فقد كان يصلب أشواقك و يكسر قلبك ويجبره ، كل هذا لخلاصك فالفضل لنوالك هذا الاكليل ليس راجع اليك ،ولكنه راجع الى يهوه والحمل الى الأبد » .

ثم يلتفت الديان نحو الأشرار بوجه يتقد غضبً و يناديهم بصوت الانتقام « اذهبوا عنى ياملاعين الى النار الأبدية المعدة لأبليس وملائكته » (مت ٢٥ : ٤١) وهذا الحكم يتضمن عقابين : الاول « اذهبوا عنى عقاب الخسران والثانى « الى النار الأبدية » وعقاب الحواس . فهو يقول لهم اذهبوا عنى أنا الهكم الذى منى خرجتم والى مصيركم ، اذهبوا عنى أنا الذى تجسدت وتألمت لأجلكم ولم تقدروا ذلك ، اذهبوا عنى أنا الذى طلبتكم بالحاح لترجعوا الى فلم تسمعوا الى نصحى .

اذهبوا عنى وعن ملائكتى وعن قديسى وعن سمائى . اذهبوا عنى لا لتعودوا الى الارض لتنعموا ثانية ، بل الى النار الأبدية لتعذبوا الى الأبد « فيكون عوض

الطيب عفونة، وعوض المنطقة حبل، وعوض الجدائل قرعة وعوض الديباج زنار مسح وعوض الجمال كي» (اش ٣ : ٢٤) «أحببتم اللعنة فأتتكم ولم تسروا بالبركة فتباعدت عنكم فلبستم اللعنة مثل ثوب فدخلت كمياه في أحشائكم وكزيت في عظامكم. لتكن لكم كثوب تتعطفون به وكمنطقة تتمنطقون بها دائما هذه أجرة مبغضي من عند الرب وأجرة المتكلمين شرا على نفسي» (مز ١٠٩ : ١٧ — ٢٠) «اذهبوا عني يا ملاعين» ملاعين من قبل أبي الذي أحسن اليكم، ملاعين من قبلي أنا الذي فديتكم، ملاعين من الروح القدس الذي رفضتم دعوته. ثم يأمر ملائكته قائلاً خذوهم من أيديهم وأرجلهم واطرحوهم في الظلمة الخارجية هناك يكون البكاء وصرير الأسنان، فيتقدم الملائكة لتنفيذ أمر سيدهم فيحملون الخطاة الى النار الأبدية و يسوقونهم أمام أعين الصديقين فتنشق الأرض وتفتح جهنم جوفها فتبتلعهم و يغوصون في لجحها الى الأبد، و يتم بذلك قول داود النبي «مثل تنور نار في زمان حضورك. الرب بسخطه يبتلعهم وتأكلهم النار» (مز ٢١ : ٩).

قال علماء الطبيعيات وعلى الأخص بلوطرخس الحكيم «إن الصاعقة حينما تقع تسحق الأشياء الصلبة القاسية وتطحنها وأما الأشياء اللينة الرخوة فلا تضرها ولا تؤذيها» وسيكون هذا الأمر بعينه في الدينونة الرهيبة، فإن الديان العادل يزعج الخطاة غير التائبين المتكبرين القساة. أما المتواضعون والتائبون فيرق لهم و يرحمهم. فحينئذ يتعذب الأشرار إذ يذكرون تنعمهم. و يقولون لأنفسهم مع الغني الذي رأى لعازر المسكين ممجداً بينما هو معذب «لقد خدعتينا أيتها النفس الرديئة، حببتي لنا اللذة لتقودينا الى الهلاك الأبدي فياو يلنا و يالشقاوتنا».

قال متى: أيتها النفس الشقية تلبثين في قساوتك وفي عصيان الهك وهذه الدينونة المريعة تنتظرك، علينا اذن أن نستعد لاخماد غضب الديان بأيماننا الصحيح المثمر اعمالاً صالحة. مابالنا نبكي على موتانا بكاء حاراً ولا ننظر الى نفوسنا المنفصلة عن الله ولا نندبها ونرثيها. فلنسكب دموعاً غزيرة على خطايانا لنستطيع أن نطفئ بها اللهيب المشتعل المعد لكل نفس تموت بخطيئتها.

الفصل الثالث والعشرون
فى افتضاح المنافقين

« هانذا عليك يقول رب الجنود فاكشف أذيالك الى فوق وجهك وأرى الأمم عورتك والممالك

خزيك » (ناحوم ٣ : ٥)

إن كثيرين من المؤمنين يؤمنون إيماناً لفظياً لا غير. فهم يتكلمون عن الايمان و ينادون بالايمان و يعظون بالايمان ولكنهم بلا ايمان فى أنفسهم من الداخل . وقال عن أمثال هؤلاء بولس الرسول « لأن مثل هؤلاء رسل كذبة فعلة ماكرون مغيرون شكلهم الى شبه رسل المسيح . ولا عجب لأن الشيطان نفسه يغير شكله الى شبه ملاك نور فليس عظيماً إن كان خدامه أيضا يغيرون شكلهم كخدام للبر الذين نهايتهم تكون حسب أعمالهم » (٢كو ١١ : ١٣ ــ ١٥) .

وقد أوضح السيد المسيح انكشاف أمر وريا المسيحى الخائن فى اليوم الأخير كما يظهر ذلك من قصة العبد الكسلان المذكور فى انجيل لوقا ص ١٩ ذلك العبد الذى عوضا عن أن يتاجر بالوزنة التى أعطيت له لفها بمنديل وطمرها . ولما جاء يوم الحساب جعل يعتذر عن تهاونه وخيانته بحجج باطلة فارغة لا تجديه نفعاً . ولذلك حكم عليه سيده حكماً صارماً عنيفاً . ولا يخفى إن هذا العبد هو كناية عن جميع الاشرار المنافقين . والحكم الصارم الذى صدر ضده عبارة عن عاقبتهم المخيفة ومصيرهم الشنيع فى يوم الدينونة كما قال الكتاب « ويميت المنافق بنفخه شفتيه » (اش ١١ : ٤).

فلا ينبغى أن يبهرج من بالنا مصير الأشرار المخيف ونهايتهم المؤلمة حيث لا يفيدهم الرياء والادعاء بالتقوى ولا المظاهر الكاذبة التى يصهرها نار غضب

القدير، نعم إن كثيرين من المسيحيين بالاسم فى هذه الحياة لهم صورة التقوى ولكنهم ينكرون قوتها (٢ تى ٣ : ٥) وكثيراً ما يتكلفون اظهار الصلاح والفضيلة و يتظاهرون أمام الجميع كأنهم أتقياء صالحون السيرة قديسون وقد تنطلى هذه الحيل والخداعات الباطلة على البشر الذين لا يعرفون من الانسان إلا ظواهره ، ولكن مهما اغتر البشر فى أمثال هؤلاء ومهما شهدوا لهم بالصلاح والتقوى فانه فى اليوم الأخير سيفضحهم كاشف الخفايا والأسرار كلها العارف بما تكنه القلوب وما تطويه الصدور. لأنه ليس كما ينظر الانسان لأن الانسان ينظر الى العينين وأما الرب فانه ينظر الى القلب (١ صم ١٦ : ٧) فالله سيظهر حقيقة الانسان المنافق لجميع البشر فى ذلك اليوم فيسطر خطاياه أمامه بحروف من نار حتى يراها جميع الناس فيندهشون و يقولون « أهذا الذى كنا نظنه ملاك نور ؟ » ولذلك يعلمنا الكتاب أن الرعدة تأخذ المنافقين (اش ٣٣ : ١٤).

إن كثيرين تراهم يمزجون أنفسهم بأولاد الله حيث لا يمكنك تمييزهم منهم وهم أشبه بالزوان الذى ينبت مع الحنطة (مت ١٣ : ٣٦) وكما أن الزوان لا يفرز عن الحنطة إلا فى يوم الحصاد هكذا هؤلاء المراؤون يبقون مختلطين بالمؤمنين حتى يوم الحساب حيث تصبح القلوب معلقة فوق الرؤوس والأعمال ظاهرة مكتوبة بحروف من نار يقرأها جميع البشر. لأن فى هذا اليوم يدين الله سرائر الناس (رو ٢ : ١٦) وقد شبه الرسول يهوذا هؤلاء بغيوم بلا ماء و بأشجار خريفية بلا ثمر (يه ١٢).

إن الهيئة المنظورة فى هذا العالم هى كشبكة الصياد التى تجمع السمك من كل نوع (مت ١٣ : ٤٧) هكذا هى تجمع البار مع الشرير وقد نجد كثيرين من الأشرار نظنهم من أولاد الله وقد نحكم كثيراً على بعض أولاد الله بأنهم ليسوا بمؤمنين ، ذلك لأننا نرى أولئك المنافقين المدعين بالدين والصلاح لا يتركون عملاً صالحاً إلا أتوه ولا أمراً مبروراً إلا مارسوه ، فيصلون مع المصلين و يصومون مع الصائمين ويحسنون مع المحسنين ولكن إذا استجلينا كنههم وجدناهم أبالسة وشياطين كالذين قال لهم السيد « أنتم الذين تبررون أنفسكم قدام الناس ولكن الله يعرف قلوبكم أن المستعلى عند الناس هو رجس قدام الله » (لو ١٦ : ١٥) ولهذا يقول الرسول بولس

« إذا لا تحكموا فى شئ قبل الوقت حتى يأتى الرب الذى سينير خفايا الظلام و يظهر آراء القلوب وحينئذ يكون المدح لكل واحد من الله » (١ كو ٤ : ٥).

كم من شفتين باسمتين تنطو يان على قلب دنس ونفس فاجرة ! كم من ظاهر مشرق بنور البر والطهارة يخفى داخله نية خبيثة !

كم من لطف منظور وحياء ظاهر يغطى شرارة فتن ودسائس !

آه لو أعطى لنا كشف ما يجرى « داخل المخادع » لوقفنا على حوادث مر يعة كافية لأن تصعقنا لا سيما من الذين نظنهم كملائكة الله الذين يتخذون الدين ستاراً والتقوى حجاباً يخفون بهما ما يرتكبون من المعاصى والفجور.

« ليس كل من يقول لى يارب يارب يدخل ملكوت السموات » (مت ٧ : ٢١) قال قسيس شيخ وهو قر يب من الموت « اننى أتوقع إن سأرى فى السماء من لم أظنهم يدخلونها وأن لا أرى بعضاً ممن حسبتهم من أخص أهلها » اننا أيضا سنتعجب فى السماء عندما نرى الحقيقة هكذا فليس كل من يقول يارب يدخل الى هناك ، و يدخلها كثيرون من الذين لم يتظاهروا بمظاهر التقوى ولكنهم سقوا كأس ماء بارد لتلاميذ المسيح وعاشوا عيشة أهل الايمان منتظر ين رحمة الله .

أجل . كما أن الأشجار المثمرة يبرز من باطنها الثمر مع الورق فى أوان الا ثمار هكذا فى ذلك اليوم المرهوب تبرز كافة الأشياء التى عملها الناس صالحة كانت أم خبيثة ، ويحمل كل واحد أمام مجلس قضاء الحاكم الرهيب عمله كثمر وكلامه كورق « فليس مكتوم لن يستعلن ولا خفى لن يعرف . لذلك كل ما قلتموه فى الظلمة يسمع فى النور وما كلمتم به الأذن فى المخادع ينادى به على السطوح » (لو ١٢ : ٢ و ٣) ستظهر حينئذ الخطايا التى أخفيت والآثام التى سترت والأفكار التى يظنها الناس قد مرت فى ساحة المخيلة ورضى بها القلب ملتذاً ثم عبرت .

كم من كثير ين يرتمون فى مضاجعهم و يفتحون باب فكرهم لأمور رديئة تطرقه وهم مطمئنون لأنه ليس من سبيل لأحد أن يكشف ما يفكرون فيه ولكنهم يتعجبون عندما يرون هناك أنها لم تكن خافية على اله السماء والأرض ويخزون عندما

يرونها تستراءى أمامهم كأنهم فكروا بها أمس فقط كم من خطايا ارتكبها الانسان ونسيها وأهملها ولم يعد يفكر فيها سوف يراها مكشوفة أمامه كأنه لم يمض زمن على ارتكابه اياها فيتم قول الكتاب « منه ترتعد الشعوب . كل الوجوه تجمع حمرة » (يؤ٢ : ٦).

كم من الشرور مكتومة . كم من الرذائل مخفية . كم من الأثمة لا يعرفهم أحد . كم من انسان يلبس ثوب الرياء و يغطي به فساده و يظل محتفظاً بهذا الثوب الذى يحرص عليه لامعاً براقاً الى أن يمثل أمام العدل الالهى . وحينئذ تتقدم تلك اليد القادرة وتشق هذا الثوب ليظهر ما اختفى تحته من دنس وفجور ورداءة .

فهناك يشير الديان الى رجال كثيرين ممن كانوا يظهرون بمظهر التقوى و يقول إن من هؤلاء من كان زانياً ومن كان سارقاً ومن كان كاذباً قبيحاً و يشير الى كثيراً من اللواتى ظهرن بملابس الحشمة والوقار و يصرح بأن منهن من كانت شريرة ومن كانت خبيثة حسودة . وهكذا ينكشف ما كان مخفياً و يظهر ما كان مطوياً ولا يستطيع أحد أن يصف مقدار الخجل الذى يستحوذ حينئذ على المرائين .

قيل إن فتاة سقطت فى اثم الدنس مع شرير ولما حملت منه ارتاعت عند تأملها فى ما سيصيبها من الخجل امام أهلها وامام الناس عندما يأيتها المخاض فأرسلت واستدعت الفتى الذى أثمت معه وطلبت منه إن يقتلها فأحضر لها كأساً مسمومة فشربتها وماتت تخلصاً من العار .

فإذا كان خوف الانسان من أن تشهر خطاياه فى بيته أو مدينته عظيماً بهذا المقدار . وخشيته من أن يشير اليه الناس و يقولون عنه كلما رأوه بأن هذا هو الأثيم لا يستطاع وصفها ، ورعبه من أن ينفض الناس من حوله بهذا المقدار لاشتهار شره جسيماً جداً . فماذا يكون شأنه حينما ينكشف أمره لا أمام أهله وأهل مدينته فحسب بل أمام الخليقة بأسرها . لا عجب إن صح فيه قول أرميا النبى « قد سمعت الأمم بخزيك وقد ملأ الأرض عويلك » (ار٤٦ : ١٢).

قد يمكن هنا أن نستخدم وسائط من الحيل والخداع لنخفى بها عيوبنا عن

الناس ولكن هل نستطيع أن نخفيها عن الله ؟ هوذا القديس باسيليوس يقول « إن الخجل الذى يرافق الهالكين دائماً و يستمر معهم هو أرعب جداً من النار التى يصلونها » وقال الكتاب « يلبس مبغضوك خزياً » (أى ٨ : ٢٢) وقال أيضاً « ليلبس خصمائى خجلاً وليتعطفوا بخزيهم كالرداء » (مز ١٠٩ : ٢٩) وقال أيضاً « فيحملون خزيهم وكل خيانتهم التى خانونى اياها » (حز ٣٩ : ٢٦) .

إن البشر يظنون هنا أن الله متغافل عن شرورهم لأنه يؤخر عقابهم إلا أنهم سيعلمون فى يوم الحساب أنه كان يطلع عليهم و يعدد ذنوبهم وهوذا أرميا النبى يقول « القلب اخدع من كل شئ وهو نجيس من يعرفه أنا الرب فاحص القلب مختبر الكلى لأعطى كل واحد حسب طرقه حسب ثمر أعماله » (ار ١٧ : ٩ و ١٠) يعيش الخاطئ الآن فى ظلام وكأنه لا يرى خطاياه ولكن الله فى اليوم الأخير سيلاشى هذا الظلام و يظهر النور فى وسط قلب الخاطئ ليرى تفاقم شر الخطية الذى كان يستخف به ويحسبه كلا شئ ولهذا يقول المخلص « ها أنا آتى كلص . طوبى لمن يسهر ويحفظ ثيابه لئلا يمشى عرياناً فيروا عورته » (رؤ ١٦ : ١٥) .

أجل أن هذا الرياء وذاك النفاق سينكشفان و ينفضح أمرهما وأولئك المتظاهرون بالفضيلة ستظهر حقيقة حالهم . ولا أدل على هذا أكثر مما كتب فى احدى سير الآباء . ذلك أن راهباً من الأتقياء الصالحين أخذ ذات ليلة يتأمل فى حقيقة الدينونة ويمعن النظر العقلى فى قول رسول الأمم الى أهل غلاطية « ولكن ليمتحن كل واحد عمله وحينئذ يكون له الفخر من جهة نفسه فقط لا من جهة غيره . لأن كل واحد سيحمل حمل نفسه » (غلا ٦ : ٤ و ٥) وفى قوله لأهل رومية « الذى سيجازى كل واحد حسب أعماله » (رو ٢ : ٦) وفى قول داود النبى « لأنك أنت تجازى الانسان كعمله » (مز ٦٢ : ١٢) وفى قول سليمان « أفلا يفهم وازن القلوب وحافظ نفسك ألا يعلم فيرد على الانسان مثل عمله » (أم ٢٤ : ١٢) وفى قول ارميا النبى « أنا الرب فاحص القلب مختبر الكلى لأعطى كل واحد حسب طرقه حسب ثمر أعماله » (ار ١٧ : ١٠) وقول المسيح « فإن ابن الانسان سوف يأتى فى مجد أبيه مع ملائكته وحينئذ يجازى كل واحد حسب عمله » (مت ١٦ : ٢٧) فاستغرق الراهب متأملاً فى هذه الأقوال الرهيبة نحو

ساعتين متواليتين ثم انتقلت أفكاره الى ما يوافق ذلك من الأقوال الالهية مثل قول الأمثال «لأن طرق الانسان أمام عيني الرب وهو يزن كل سبله» (أم ٥ : ٢١) وفي قوله «كل طرق الانسان نقية في عيني نفسه والرب وازن الأرواح» (ام ١٦ : ٢) وقول الجامعة «لأن الله يحضر كل عمل الى الدينونة على كل خفي إن كان خيراً أو شراً (جا ١٢ : ١٤) فازداد قلقه وأرقه وأخذ يقول في نفسه ما أصعب ذلك اليوم وما أشد هوله ! كيف يحمل الانسان حمل نفسه ولا يساعده في ذلك الحمل أحد. فطوبى لمن استطاع أن يخفف هذا الحمل بالتوبة النقية والأعمال المرضية والاتكال على بريسوع، وليس على بره الذاتي لأن بر الانسان مهما كان فهو أنجس من خرقة الحائض. وقد سبح في هذه الأفكار كما يسبح الانسان في بحر زاخر لا أول له ولا آخر فغلب عليه النعاس ونام نوماً عميقاً وإذ شغلت هذه الأفكار ذهنه سببت له حلماً عجيباً وهو انه تصور نفسه منتقلاً بالروح الى حيث يدان كل انسان بعد موته في يوم الدينونة الرهيب، فرأى المسيح جالساً على منبر العدل وعند كرسيه ملاك يمسك بيده ميزاناً، ورأى الأرواح تمر أمامه وكل منها يحمل كيسين أحدهما مكتوب عليه (كيس الأعمال الصالحة) والثاني مكتوب عليه (كيس الأعمال الشريرة) ثم رأى الملاك يأخذ الكيسين و يضعهما في كفتي الميزان فإذا رجحت كفة الأعمال الصالحة يصدر الديان حكمه بادخال النفس الى فردوس النعيم حيث الهناء المقيم والسعادة الأبدية، وإذا رجحت بالعكس كفة الأعمال الشريرة فأنه يصدر في الحال حكمه بطرح تلك النفس في النار المؤبدة المعدة لأبليس وجنوده.

وبينما هو مندهش من هذا المنظر رأي سيدة جميلة تظهر على هيئتها النبالة والحشمة و يتجلى عليها الشرف والوقار، وتأمل في الكيسين اللذين تحملهما فرأى كيس الأعمال الصالحة أعظم من كيس الأعمال الشريرة وأكبر منه كثيراً جداً فانشرح صدره وتهلل وجهه بالفرح وقال حقاً إن هذه السيدة ستنال السعادة الدائمة ولكن بالشدة استغرابه و بالفرط دهشته فانه لما وضع الملاك الكيسين في كفتي الميزان رجح الكيس الاصغر في الميزان وارتفع الكيس الآخر الكبير الحجم الى فوق كأنه لم يكن. وفي الحال أصدر القاضي حكمه العادل بشجب تلك الامرأة التعيسة

وطرحها في الظلمة البرانية حيث البكاء وصرير الاسنان . قال الراهب صاحب الحلم : فلما ازدادت حيرتي تجاسرت وتقدمت نحو الملاك وسألته كيف أن ذلك الكيس الحقير الصغير يرجح في الميزان على الكيس الكبير؟ فقال لي تقدم أيها الانسان وانظر الى ما بداخل كل من الكيسين فتفهم السبب . قال ذلك وفتح اولاً الكيس الكبير فوجدته مفعماً بأكياس صغيرة مكتوباً عليها العناوين الآتية (صلوات . تأملات . اعترافات . مناولات . صدقات . زيارة مرضى . عيادة مسجونين . كساء عراة . اطعام جياع . تربية أيتام . اعالة أرامل . سماع عظات . حضور قداسات) وما شاكل ذلك من أعمال الخير . فازددت اندهاشاً وحيرة ولم أفهم كيف إن أعمالاً عديدة كهذه كلها صالحة وتقوية لا تكون راجحة في كفة الميزان الالهي واضطربت أفكاري وتغيرلوني وكدت أشك في عدالة الله . فقال لي الملاك لا تستعجب ولا يعترينك أقل ارتياب في عدالة الرب الرؤوف الرحيم ، ثم فتح الكيس الآخر فأراني صرة صغيرة مكتوباً عليها (نفاق ورياء) وقال اعلم أن جميع أعمال هذه السيدة لم تكن صادرة عن محبة في يسوع المسيح لأنها ما كانت تعمل عملاً خيرياً إلا بقصد الافتخار والتباهي واستجلاب المدح من الآخرين . أو لأجل الربح الذاتي فاستوفت بذلك أجرتها في حياتها لأنها لم تسمع لقول الفادي في وجوب عمل الصدقة في الخفاء .

فتذكرت حينئذ ما قيل في كلمة الوحي عن النفاق والرياء من أنه من صفات الأشرار إذ قيل « قد حرثتم النفاق حصدتم الاثم أكلتم ثمر الكذب » (هو ١٠ : ١٣) وقيل « وأعاقب المسكونة على شرها والمنافقين على اثمهم » (اش ١٣ : ١١) وقد حذرنا المسيح منه إذ قال « تحرزوا لأنفسكم من خمير الفريسيين الذي هو الرياء » (لو ١٢ : ١) وقال لنا بلسان رسله إن المحبة يجب أن تكون بلا رياء (رو ١٢ : ٩) وكذلك الايمان (١ تي ١ : ٥) والمحبة الأخوية (١ بط ١ : ٢٢) وأن على المسيحي الحقيقي إن يطرح كل مكر ورياء (١ بط ٢ : ١) وإن المرائين يقطع نصيبهم من الملكوت .

تذكرت ذلك فعلمت أن السيدة المذكورة قد استحقت المجازاة عدلاً بطرحها في البحيرة المتقدة بالنار . ولما استيقظت من نومي كتبت أحلامي عساها تنفع كل من

يقرأها و يسمعها . فياليتنا نتجنب فعل ذلك الفريسي الذى وقف يصلي و يقول انني لست مثل باقي الناس الخاطفين الظالمين ولا مثل هذا العشار. وليتنا نقتدى بالعشار الذى لما دخل الهيكل لم يشأ أن يرفع عينيه نحو السماء بل قرع على صدره قائلاً اللهم إرحمني أنا الخاطئ ، ونقول مع عزرا « اللهم أني أخجل وأخزى من أن أرفع يا الهي وجهي نحوك لأن ذنوبنا قد كثرت فوق رؤوسنا واثامنا تعاظمت الى السماء » (عز ٩ : ٦).

كثيرون يجعلون عبادتهم مجرد فلسفة كلامية وفصاحة منطقية فيلقون المواعظ المؤثرة ويخطبون الخطب الرنانة ولكنهم لا يصدرون ذلك كله إلا من الشفتين وأما القلب فمشغول بأمور أخرى ولذلك يقول الكتاب « لئلا أجردها عريانة وأوقفها كيوم ولادتها » (هو ٢ : ٣).

كم من الكهنة وخدام الكلمة والوعاظ الذين يلبسون الملابس السوداء المحتشمة ويمسكون بأياديهم الصلبان الذهبية و يضعون على صدورهم القرابين والأناجيل ينكشف حالهم في يوم الدين وتكون لهم هذه الادعاءات والمظاهر المصطنعة ناراً حامية تصلى أجسادهم وتحرق صدورهم . قال السيد المسيح عن أمثال هؤلاء إن كل أعمالهم يعملونها لكى ينظرهم الناس فيعرضون عصائبهم و يعظمون أهداب ثيابهم .. ولعلة يطيلون صلواتهم » (مت ٢٣ : ٥ و ١٤) وقد شبههم بالقبور المبيضة (عدد ١٧) أولئك الذين اتخذوا الدين سلعة يتاجرون بها على عقول الناس ، الذين لم ينخرطوا في سلك الخدمة الدينية إلا لما ضاقت في وجههم سبل الخدمة العالمية وصاروا للغير قدوة رديئة ومثالاً سيئاً و بذلك يضاعفون عقابهم و يذخرون لأنفسهم غضباً ليوم الغضب ويحل بهم الهلاك الذى توعد به الرب الرعاة غير الأمناء الذين بأفواهم يباركون و بقلوبهم يلعنون (مز ٦٢ : ٤) الذين يقولون « الرب لا يرانا . الرب قد ترك الأرض » (حز ٨ : ١٢) هؤلاء الذين يشير اليهم السيد بقوله : اجتهدوا أن تدخلوا من الباب الضيق . فاني أقول لكم إن كثيرين سيطلبون أن يدخلوا ولا يقدرون بعدما يكون رب البيت قد قام وأغلق الباب وابتدأتم تقفون خارجاً وتقرعون الباب قائلين يارب يارب افتح لنا يجيب و يقول لكم لا أعرفكم من أين أنتم . حينئذ تبتدئون تقولون أكلنا قدامك وشربنا وعلمت في شوارعنا . فيقول لكم

لا أعرفكم من أين أنتم تباعدوا عني يا جميع فاعلي الظلم (لو١٣ : ٢٤ ــ ٢٧) وقوله « كثيرون سيقولون لي في ذلك اليوم يارب أليس باسمك تنبأنا و بأسمك أخرجنا شياطين و باسمك صنعنا قوات كثيرة فحينئذ اصرح لهم اني لم أعرفكم قط . اذهبوا عني يافاعلي الاثم » (مت ٧ : ٢٢ و ٢٣).

وقد علمنا الأنجيل المقدس اننا إذا صلينا أو صمنا أو تصدقنا فيجب إن لا نكون كالمرائين الذين يعملون هذه الأمور في الشوارع لكي يظهروا للناس بل يجب علينا أن لا نعرف شمالنا ما تفعل يمينا ونباشر الفضائل في الخفاء وأبونا الذي يرى في الخفاء يجازينا علانية (مت ٦ : ١ ــ ٨) لأن الحكم في يوم الدينونة سيكون على ما تكشفه القلوب لا على ما تخرجه الأفواه فباطلاً نتكلم إذا كنا لا نعمل . لقد كان بنو اسرائيل يعبدون الله هذه العبادة ولكنه رفضها وسد أذنيه عن سماع صلواتهم وقال «لأن هذا الشعب قد اقترب الى بفمه وأكرمني بشفتيه وأما قلبه فأبعده عني » (أش ٢٩ : ١٣) وقال أيضا لحزقيال « و يأتون اليك كما يأتي الشعب ويجلسون أمامك كشعبي و يسمعون كلامك ولا يعملون به لأنهم بأفواههم يظهرون أشواقاً وقلبهم ذاهب وراء كسبهم » (حز ٣٣ : ٣١).

إن الرب يكره الرياء لأن المرائي ينسب الى الله الجهل كأنه انسان يرضه الأكرام بالشفتين ولا يعرف ما في القلب . والكتاب يعبر لنا عن الله إن له عينين كلهيب نار (دا ١٠ : ٦ ورؤ ١٩ : ١٢) و يقول عنه أيضاً « وليست خليقة غير ظاهرة قدامه بل كل شئ عريان ومكشوف لعيني ذلك الذي معه أمرنا » (عب ٤ : ١٣).

فليعلم كل واحد إن اعترافه الظاهر بالدين بفمه لا يضمن له الخلاص ولا يكفل له النجاة إنما القلب المتخشع المتواضع هو مسكن الله وهيكله الحي . وهو سيؤثره على عمود السحاب والنار والمسكن وقدس الأقداس . فهوذا مسكن الله مع الناس وهو سيسكن معهم وهم يكونون له شعباً والله نفسه يكون معهم الهاً لهم (رؤ ٢١ : ٣) وقال المرتل «لأنه هو يعرف خفيات القلب » (مز ٤٤ : ٢١).

الفصل الرابع والعشرون
فى صعوبة الانفصال الأبدى

« فيمضى هؤلاء الى عذاب أبدى والأبرار الى حياة أبدية » (مت ٢٥ : ٤٦)

قد عبرت الكتب المقدسة عن التمييز بين الأبرار والأشرار فى اليوم الأخير بعبارات مختلفة :ـ

أولاً : بتمييز المعادن المختلفة . والى ذلك أشار الرسول بولس بقوله « ولكن إن كان أحد يبنى على هذا الأساس ذهباً فضة حجارة كريمة خشباً عشباً قشاً فعمل كل واحد سيصير ظاهراً لأن اليوم سيبينه لأنه بنار يستعلن وستمتحن النار عمل كل واحد ما هو » (١ كو٣ : ١٢ و١٣).

ثانياً : بتمييز التبن من الحنطة كقول يوحنا المعمدان « الذى رفشه فى يده وسينقى بيدره ويجمع قمحه الى المخزن وأما التبن فيحرقه بنار لا تطفأ » (مت ٣ : ١٢).

ثالثاً : بتمييز الراعى الخراف من الجداء بقوله « فيميز بعضهم من بعض كما يميز الراعى الخراف من الجداء فيقيم الخراف عن يمينه والجداء عن اليسار » (مت ٢٥ : ٣٢ و٣٣) .

رابعاً : بتمييز الزوان من الحنطة حيث يقول « دعوهما ينميان كلاهما معاً الى الحصاد وفى وقت الحصاد أقول للحصادين اجمعوا أولاً الزوان واحزموه ليحرق . وأما الحنطة فاجمعوها الى مخزنى » (مت ١٣ : ٣٠).

خامساً : بتمييز السمك الجيد من الرديء بعد اجتماعها فى شبكة واحدة بقوله « وجمعوا الجياد الى أوعية . وأما الأردياء فطروحها خارجاً . هكذا يكون فى انقضاء العالم . يخرج الملائكة و يفرزون الأشرار من بين الأبرار » (مت ١٣ : ٤٨ و ٤٩).

إن الأشرار شديدو الرغبة فى الالتصاق بالأبرار ليخفوا بصاحبتهم ما هم عليه من اثم ونفاق وقد يحاولون أن يخفوا شرورهم عن الناس لكى لا ينفضوا من حولهم . فكم اذن يكون الافتراق صعباً عليهم حينما يأتى ملائكة الله ويخرجونهم من بين الأبرار فيقولون للخاطئ « أية خلطة للبر والاثم . وأية شركة للنور مع الظلمة . وأى اتفاق للمسيح مع بليعال . وأى نصيب للمؤمن مع غير المؤمن . وأية موافقة لهيكل الله مع الأوثان » و يقولون للأبرار « فانكم أنتم هيكل الله الحى كما قال الله أنى سأسكن فيهم وأسير بينهم وأكون لهم الهاً وهم يكونون لى شعباً . لذلك أخرجوا من وسطهم واعتزلوا يقول الرب ولا تمسوا نجساً فأقبلكم » (٢ كو٦ : ١٤ ــ ١٧) يقولون للسارق لا تستحق أن تبقى مع الذى كان يأكل خبزه بعرق جبينه . و يقولون لمحب المال المرابى الظالم لا ينبغى أن يقف مثلك بجانب من كان يجود بسخاء على المحتاجين . و يقول للدنس لا تقف بجانب العفيف . وهكذا يتم الانفصال المريع بين الفريقين . حينئذ يوخذ الواحد و يترك الآخر (مت ٢٤ : ٤٠) يؤخذ الابن و يترك الأب ، تؤخذ الأم وتترك الابنة ، يؤخذ الأخ و يترك الأخ الآخر ، يوضع الابرار عن اليمين والأشرار عن اليسار ، يرتفع الأبرار الى فوق و يسقط الأشرار الى أسفل . يسمع الأبرار قوله « تعالوا » و يسمع الأشرار قوله « اذهبوا » وكلاهما ينفصل عن الآخر الى الأبد . .

وإذا كان الانسان الذى يطرد من جمعية أو من هيئة يعتريه غم شديد ، فأى عذاب يحل بمن يشاهد نفسه مرفوضاً من بين القديسين ومساقاً للوقوف فى صف الشمال مع الهالكين ؟ قل لى أيها القارئ العزيز على أى شئ عزمت وفى أى مكان من الاثنين تريد أن تقف ؟ أفى جهة اليمين أم فى جهة اليسار ؟ وأى الصوتين تحب أن تسمع . أتحب أن تكون حبيباً أم عدواً ؟ ما أروع الحالة التى ينتهى اليها الأشرار عندما يبعدون عن القديسين وهم يقولون لهم « يا لشقاوتنا

المؤبدة و يا للندامة التى لا تنتهى . طوباكم أيها الأبرار . يا لسعادتكم . يا لغبطتكم ثم تنادى الام ولدها والاب ابنه والأخ أخاه والصديق صديقه قائلين لم يعد يمكننا أن نراكم الى الأبد ».

حينئذ يبتدئون بوداع المؤمنين فيقول الهالك لأخيه الصالح الوداع ياأخى أنى ما عدت أراك . والأم الشريرة تقول لابنتها البارة هذه هى المرة الأخيرة التى فيها أراك يا ابنتى . فما أمر هذا الوداع إذ لم يعد لى أمل فى أن أراك فيما بعد والابنة الشقية تقول لأمها التقية وداعاً لك يا أمى . هنيئاً لك أنت قد حصلت على الراحة وأما ابنتك ففى عذاب دائم فالى أراك لا تذرفين دمعة واحدة على ابنتك متى تعلم قلبك هذه القساوة على وقد كنت فيما مضى تتألمين لأقل ألم يصيبنى !!

أيها الوالدون . هوذا جثث أولادكم فى توابيتها ، وستغيب عما قريب فى القبر . أنظروها تملوا منها قبل أن توارى فى الثرى ولكن لا تعتبروا أن هذه هى آخر نظرة تلقونها على فلذات أكبادكم فأمامكم مجال آخر ترونها فيه فى اليوم الأخير فاما تجتمعون بها اجتماعاً أبدياً أوتفارقونها الى ما لا نهاية . فالوداع المر لا يكون هنا بل هناك والفراق الأبدى لا يتم فى هذا العالم بل فى العالم الآخر . كم من كثيرين فارقوا الحياة عقب موت محبيهم لشدة تحسرهم وحزنهم فماذا نتصور إذا حزن الهالكين حينما يرغمون على مفارقة من يحبونهم الى الأبد ، حينما تنقطع العلاقات وتبطل المحبة بين الأب وأولاده والأم وأبنائها والأخ واخوته . لقد بكى يعقوب على يوسف مع أنه مؤمن يعتقد أنه سيلاقيه . فماذا نتصور عويل الخطاة فى يوم الفراق الذى ليس بعده لقاء .

انظر تر جمهوراً غفيراً مجتمعاً حول شخص مسافر ، وهم بين باك ومنتحب لأن هذا الانسان سيفارقهم شهراً أو سنة أو أكثر ، أنظر الى مشهد ميت تراه مؤثراً لأن الميت سيفارقهم مدة وجودهم على الأرض وسيلاقونه بعد موته . الفراق كلمة مرة ثقيلة على الطبيعة البشرية . أنظر لمن يقف على قبر ابنه كئيباً وهو يذكر كلماته الحلوة ومحياه الجميل بحزن عميق . أنظر لمن يبكى زوجته الراحلة معدداً فضائلها وحسناتها . أنظر لمن يبكى أبويه بحنو زائد ذاكراً عطفهما عليه ومحبتها له . ولكن هذا

الانفصال الذى يولد كل تلك الحسرات هين بالنسبة للانفصال الأبدى .

ماذا يعمل الشرير حينما يرى أهله وأقاربه فى صف اليمين وهو فى صف الشمال . ماذا يكون حاله عندما يرى ابنه الذى كان يحبه فى هيئة الأبرار وهو مضطرم بالشوق اليه ليسلم عليه و يقبل وجنتيه ولكن ليس من يسمح له . وكيف يكون حزنه إذ يحمل الى جهنم وابنه الى السماء وهو يلتفت الى الوراء شاخصاً اليه الى أن تفصل بينهما هوة عظيمة و يفارقه الى الأبد . واحسرتاه أيها الذين تبكون بحرقة على موتاكم .. إن البكاء الحقيقى لا يصح عليهم إلا إذا تم الفراق بينكم ، لا فى هذا العالم بل فى العالم الأبدى .

حينما يرى الأشرار فى اليوم الأخير مجد الصديقين وعظمتهم و يشاهدون تصرف الملائكة معهم و يرون الاحتفاء الذى يوجه اليهم والضياء الذى يسر بلهم ثم يذكرون أن هؤلاء الصديقين كانوا أناساً مثلهم وكانوا لابسين أجسادهم وساكنين فى العالم معهم . منهم من عاش ببؤس عظيم ولكنهم بالتوبة والايمان خلصوا واستحقوا هذه الغبطة الدائمة . فأى حسد محرق يمزق قلوبهم و يعذب احشاءهم .

ما أشد الغيظ الذى تضطرم به قلوب الأشرار حينما يرون أنفسهم فى عذاب و يرون الأبرار فى نعيم . أجل سيغطون عيونهم حتى لا يرون الأتقياء فى السماء . وسيكون ألمهم مراً وغيظهم شديداً عندما يذكرون أنهم كانوا بشراً مثلهم وكان فى أمكانهم أن يسعوا لينالوا السعادة نظيرهم ولكنهم انهمكوا فى لذة وقتية وخسروا المجد السرمدى . قال الكتاب « هناك يكون البكاء وصرير الاسنان » (مت ١٣ : ٥٠) كم تألم أخوة يوسف لما رأوا أباهم يفضل عليهم يوسف ويحبه أكثر منهم حتى انهم عزموا على قتله (تك ٣٧).

فيكون حسد الأشرار للأبرار حينئذ بالغاً حده . أية حسرة ملكت قلب الغنى عندما رفع عينيه فى الهاوية وهو فى العذاب ورأى ابراهيم من بعيد ولعازر فى حضنه ! لا ريب أنه استعرض فى مخيلته حالته وحالة لعازر قبل الموت وحالتها بعده ، وكيف تغير الحال وارتفع الفقير الحقير وسقط الغنى العظيم ، قد كان يتمنى أن يضاعف عقابه فى جهنم ألف مرة ولا يرى لعازر ذلك الحقير ممجداً ولا يجد نفسه

وهو العظيم محتقراً مهاناً (لو١٦ : ٢٣). قال أحدهم « قد كان الغنى يتعذب من شدة حسده للعازر عذاباً أشد من عذاب النار ».

نعم سيحزن ملوك العالم الذين اتكلوا على قوتهم ونسوا الههم لأنهم يرون عبيدهم فى السماء وهم فى الجحيم . سيتحسر عظماء الدنيا الذين قضوا حياتهم فى الملذات والشرور حينما يرون البائسين فى حضرة الله وهم فى قبضة ابليس . سينتحب الأغنياء الذين عاشوا لأنفسهم حينما يرون الذين كانوا يستعطونهم وقد أصبحوا فى ذرى المجد وهم فى وسط اللهيب . ومما يزيد عذاب الأشرار انهم يرون الأبرار ينظرون اليهم باحتقار و يقول الرب « وأنا أيضا أصفق كفى على كفى وأسكن غضبى . أنا الرب تكلمت » (حز٢١ : ١٧) إن الذى يخسر فى اللعب لا يزداد غماً إلا حينما يرى الغير يضحكون عليه ، ولا شئ يزيد الخطاة فى جهنم عذاباً أكثر من رؤيتهم الأبرار يشخصون اليهم و يضحكون عليهم فيضحك ايليا على آخاب ، و يوحنا المعمدان على هيرودس ، ولعازر على الغنى .

هذا من جهة انفصال الانسان عن أهله وعارفيه ولكن هناك ما هو أشد هولاً وأعظم صعوبة وهو انفصال الانسان عن الهه وخالقه وفاديه والمحسن اليه . قال القديس أوغسطينوس « اننا لا يمكن أن نقول إن النفس تكون حية حيث تكون منفصلة من النور الالهى ولا الجسد أيضاً يكون حياً وهو موضوع تحت العقاب الأبدى ».

لما قال الرسول بولس للمؤمنين فى ميليتس وأفسس « والآن ها أنا أعلم انكم لا ترون وجهى أيضا » انتحبوا انتحاباً شديداً كما يقول الكتاب وكانوا « متوجعين ولا سيما من الكلمة التى قالها لهم انهم لن يروا وجهه أيضا » (اع ٢٠ : ٢٥ و٣٨) فإذا كان فراق أحد الرسل قد اضرم فى قلوب المؤمنين نيران الحزن والغم بهذا المقدار فماذا تكون حالتك أنت حينما تنفصل ، لا أقول عن أهلك وأصحابك ، أو عن الأنبياء والرسل ، أو عن الملائكة والجنود السماوية ، أو عن السماء نفسها والنعيم ذاته بل عن أبيك السماوى . إن كل عذاب سمعت أنه سيكون فى جهنم مهما كان شديداً لا تقاس شدته بشدة انفصالك عن الهك . كيف تكون حسراتك وتأوهاتك

حينما تعلم أن محبة الهك لك قد فرغت وأنه وهو الاله الذى كان يجود عليك بالخير قد نزع من قلبه كل عطف عليك وامتلأ قلبه قساوة وشدة يزيدان هول الشقاء الذى يوقعه بك .

إعدم مشاهدة الله هو الذى عناه المخلص بقوله عن الخاطئ « لن يرى حياة بل يمكث عليه غضب الله » (يو٣ : ٣٦). وقال القديس يوحنا ذهبى الفم « إن عدم مشاهدة الله هى أشد من كل نيران جهنم » وقال أحد اللاهوتيين « إن الله يظهر للمفديين أشعة يسيرة من وجهه الالهى لكى يعرفوا أى خير عظيم جعلتهم الخطيئة يفقدون ».

إعلم أنه وإن كانت الطبيعة الآن تجود عليك بالنعم بالرغم من شرك فتعطيك الشمس نورها وحرارتها ، والأرض أثمارها وغلاتها ، والهواء نسيمه والمياه قوتها فذلك لأن الله مازال يشفق عليك ويمهلك راجياً إن ترجع عن اثمك تائباً ، ولكن هذه الحال لا تدوم ، تأمل فيما جرى وقت صلب المخلص كيف أن الله حينما سخط على الخليقة لتعديها عليه حجبت الشمس نورها ومنعت الأرض سكونها فسادت الظلمة على وجه الأرض واضطربت الأرض وماجت (مت ٢٧ : ٤٥ ــ ٥٤) فهذا عينه سيتم عليك حينما يتم الانفصال بينك وبين خالقك ، ينزع النور من قلبك والسلام من نفسك والراحة من ضميرك فتحس بعذاب لا يوصف ولا يبقى عندك أى أثر من الفرح والسرور. فإذا كانت الطبيعة تحسن اليك فلأنها تعرف إن الله لم ينفصل عنك ولكن حينما ينفصل عنك تتحول الطبيعة المحبة الى عدو لدود بل و يصبح ما كنت تسربه علة حزن لك . كتب العلامة أوريجانوس يقول « حينما كان مغلقاً على نوح داخل الفلك كانت الأرض عقيمة لا نبات فيها أو ثمر وذلك لأن الشمس لم تكن تطلع على الأرض فى ذلك الحين » فإذا كان احتجاب هذه الشمس الحية صار سبباً لا تلاف الأرض و بوارها فكم يصيبك أنت أيها الانسان الشقى حينما تفقد شمسك الحقيقى ونورك الأصلى الله خالقك . قيل أيضا عن شمشون الجبار إن الفلسطينيين لم يهتموا بحلق شعر رأسه بعدما نبت مع علمهم بأنه سر قوته لتأكدهم من أن الرب فارقه . فماذا تكون حال الجبلة التى تنفصل عن جابلها ؟ إلا يرخى عليها الظلام سدوله ! إلا يصبح الانسان حينئذ كعين غاضت

مياهها وككرمة جافة يابسة وكجسد فارقته الحياة ؟

لما سب شمعى داود الملك لم يحتمل ذلك ابيشاى بن صروية بل التفت الى الملك وقال « لماذا يسب هذا الكلب الميت سيدى الملك . دعنى أعبر فأقطع رأسه » (٢ صم ١٦ : ٩) هكذا أنت أيها الخاطئ يا من أهنت الهك ستثور ضدك مخلوقاته وتطلب الانتقام منك . سيسمع صوت الأرض يقول دعنى أفتح فمى لأبتلع هذا الخائن الخالقى . وتقول المياه اتركنى أخنق كل عديم الوفاء لمن أوجدنى . و يطلب الهواء أن يسحقك . وتطلب النار أن تحرقك ذلك لأنك أيها الخاطئ المسكين قد انفصلت عن الهك فانفصل عنك كل الخير.

إن الفخر الذى رفع إلله الانسان اليه باتصاله به لا يستطاع وصفه يقول الرسول بطرس « كما أن قدرته الالهية قد وهبت لنا كل ما هو للحياة والتقوى بمعرفة الذى دعانا بالمجد والفضيلة اللذين بهما قد وهب لنا المواعيد العظمى والثمينة لكى تصيروا بها شركاء الطبيعة الالهية » (٢ بط ١ : ٣ و ٤) فكم هو عظيم شرف الفضيلة الذى يوصل الانسان بل يجعله شريكاً له فى طبيعته الالهية و بالعكس كم هو شنيع عار الخطية التى تسقط الانسان من هذا السمو غير المتناهى فيصير مجهولاً عند الله بالكلية حتى أنه يقول له لست أعرفك (مت ٢٥ : ١٢) إن عيسو حينما علم أن بيعة البكورية قد سلب منه بركة أبيه اغتم غماً جسيماً ورفع صوته و بكى بمرارة (تك ٢٧ : ٣٤) فبأى حرقة يبكى الخاطىء حينما يعلم أن خطيته لا تفصله عن بكوريته ولا عن موهبة بنوة وضعية بل تفصله عن الهه وتبعده عنه بالكلية . أن الله وعد أن يكون هو والمؤمن واحداً بالمحبة ، فالله الموجود فى كل مكان حال فى المؤمن على نوع خاص كما قال المخلص « ليكون الجميع واحداً كما أنك أنت أيها الاب فىّ وأنا فيك ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا » (يو ١٧ : ٢١) ولكن الخاطئ لا يكون بينه و بين الله أدنى اتصال كما قال سليمان الحكيم « الرب بعيد عن الأشرار » (ام ١٥ : ٢٩).

كم كان الله يعتبر أن من أحسن حالات السعادة والطمأنينة للمؤمنين أن يصرح لهم أنه هو معهم ، فكان يقول لهم لا تخافوا أنا معكم . وبهذا القول شدد

اسحق (تك ٢٦ : ٢٤) و يعقوب (تك ٣١ : ٣) وموسى (خر ٣ : ١٣) و يشوع (يش ١ : ٩) وارميا (ار ١ : ٨) و باقى القديسين فى كل العصور ، و بالعكس إذا انفصل الله عن الانسان حلت به الويلات كما انفصل عن منسى الملك فعدم ملكه (٢ أى ٣٣ : ١١) وعن شاول فعدم حياته (١ صم ٣١ : ٦) وعن عالى الكاهن فعدم أولاده (١ صم ٤ : ١٨) فقل لى أيها الخاطئ كم من المزايا تفقد إذاً عندما ينفصل عنك الله انفصالاً أبدياً ؟

إن الذى يفقد خروفاً واحداً يحزن عليه و يبحث عنه والذى يفقد درهما واحداً لا ينفك طالباً اياه ، والحال أن الخاطئ لا يعدم شيئاً زهيداً هكذا بل سيحرم من السماء و يفقد الملكوت . يروى أن أحد الكتاب الأولين عن اليهود أنه بعد أن طردهم الرومانيون من أورشليم بعد صلب مخلصنا كانوا يجتمعون من بلدان مختلفة و يأتون الى أورشليم فى العام دفعة واحدة فى يوم معلوم لكى يبكوا على سبى أورشليم وخراب الهيكل إلا أن الحكام الرومانيين لم يكونوا يسمحون لهم بالدخول الى المدينة إلا بعد أن يرشوهم بأموال وافرة فكانوا يجتمعون كلهم معاً أمام باب أورشليم الرجال والنساء ، الشيوخ والشباب ، العذارى والأرامل ، وهم لابسون أثواب الحداد ويمشون حفاة مكشوفى الرؤوس مكمدى الوجوه مدمعى العيون و يدورون حول اطلال الهيكل الذى صار أثراً بعد عين و يسكبون عبراتهم على بقايا أساساته ، وكان قوم منهم يمرغون شعورهم على رماده المقدس ، وآخرون يقرعون صدورهم أمام الخزانة المنهدمة ، والجند من الجهة الأخرى يلحون عليهم ليبكوا طويلاً . فلماذا كان أولئك اليهود يظهرون مثل هذا الأسف والتحسر ؟ أليس من أجل مدينة صارت خراباً ! فمالى أراك جامداً لا تختلج فى عينيك دمعة واحدة وأنت تعرف أنك بإثمك لم تفقد الهيكل فقط بل اله الهيكل أيضاً . ليت الخطاة يتأملون فى ذلك ليعلموا مقدار الخسارة الباهظة التى تفقدها اياهم لذة الخطية الوقتية . عند ذلك يصرخون مع الرسول بولس « لكن ما كان لى ربحاً فهذا قد حسبته من أجل المسيح خسارة . بل انى أحسب كل شئ أيضاً خسارة من أجل فضل معرفة المسيح يسوع ربى الذى من أجله خسرت كل الأشياء وأنا أحسبها نفاية لكى اربح المسيح (فى ٣ : ٧ ، ٨)

الفصل الخامس والعشرون
فى النهاية المريعة

« وماذا تعملون فى آخرتها » (ار ٥:٣١) « فأنا أيضاً أختار مصائبهم ومخاوفهم أجلبها عليهم . من أجل انى دعوت فلم يكن مجيب . تكلمت فلم يسمعوا بل عملوا القبيح فى عينى واختاروا ما لم أسر به » (اش ٦٦ : ٤).

« أيضا من اليوم أنا هو ولا منقذ من يدى أفعل ومن يرد » (اش ٤٣ : ١٣).

إن النفس ستتحد بالجسد بعد الانفصال وتتعلق به والجسد ثقيل ومن شأن الأشياء الثقيلة أن تجذب الى أسفل . إذاً فالنفس تنحدر مع الجسد الى أسفل . واعلم أيضاً أن ذلك المكان الدائم هو جوف الأرض وهو قاع عميق مظلم الى الغاية . مكان لعنة مخوف جداً . حبس مريع مفعم بالعذاب المبرح والعقوبات الشديدة . منفى أبدى دائم لا خلاص منه أبداً وسلطان تلك الأرض وحاكمها المغتصب ابليس وسكانها الخطاة المدانون فلا تؤمل أيها الانسان أن تنظر شيئاً من الاشياء المفرحة ، انك لا تنظر الشمس مشرقة ولا القمر منيراً ولا النجوم ساطعة . قال المرتل « يمطر على الأشرار فخاخاً ناراً وكبريتاً وريح السموم نصيب كأسهم » (مز ١١ : ٦) وقال اشعياء النبى « لذلك وسعت الهاوية نفسها وفغرت فاها بلا حد فينزل بهاؤها وجمهورها وضجيجها والمبتهج فيها . و يذل الانسان ويحط الرجل وعيون المستعلين توضع » (اش ٥ : ١٤ و ١٥).

ها قد ارتفع حجاب الأبدية فتقدموا أيها الناس . ما لى أرى الكثيرين منكم واجمين خائفين ، ما لى أراكم ترتعبون إذ رأيتم عرش الله ، ما لى أراكم تودون لو يعود الباب الى مكانه ما لى أرى خوفكم شديداً . الأقدام التى كانت تسرع للشر ما لى أراها تتلوى . الأيدى التى كانت تخطف الاثم لماذا ترتخى . الأعين التى

كانت تحدق فى الاباطيل ما لها تعمى . الاذان التى كانت تطرب لسماع ردى القول لماذا تصم . اللسان الذى كان يتكلم بالفحش ما له يخرس . ما لى أرى المتكبرين يذلون والمتشامخين ينحطون . ما لى أرى أغنياء يفتقرون وملوكاً يسقطون . أين عزكم . أين مجدكم . أين فخركم ؟ تقدموا ما بالكم جزعون . ما عهدناكم تخافون . أين قوتكم أين جاهكم وسلطانكم .

وأسفاه إن الخطية تبدو علينا والخطية عدو الله فخوفنا من الله يمنعنا من التقدم . نود لو نعود الى العالم مرة أخرى لنعيد سلطتنا وجلالنا أو نصلح خطأنا وعيوبنا . أين أيامنا الأولى . أين الأوقات التى كنا فيها مسيطرين وأصحاب نفوذ وسلطان ؟ لقد انتهت ولم يبق لنا إلا إن نحاكم ونعاقب .

أيها الأشرار يا من لا تستطيعون التقدم سيحملكم ملائكة الله الى المحل المعد لكم . نعم سيحملكم ملائكة الله ولكى يزيدوكم عذاباً يمرون بكم أمام باب السماء فتحاولون الدخول فيمنعكم الملائكة قائلين « هذا الباب ضيق لا يمكنكم الدخول منه ، لانكم تحملون أحمالاً لا يمكنكم أن تدخلوا بها » فتقولون لقد جردنا الموت مما نملك فلم نحمل معنا شيئاً مما كان لنا فيقولون لكم ومن هذا قام نقصكم انكم ترون كل شئ إلا الخطية فالخطية لم تتركم . انها لم تزل بكم . اننا نراها ثقلاً عظيماً على أعناقكم . نرى عليكم شروراً عديدة وذنوباً كثيرة . تقلون لنطرح الخطايا حتى ندخل مع الأبرار . فيقولون لكم لقد فاتكم أوان طرحها فانها الآن لاصقة بكم . أترون ذلك الباب الواسع الذى تضطرم النار فى داخله ؟ انه مثواكم ومقركم . فيالتعاستكم !!

وأسفاه عليك أيها الخاطئ فإن آخر نظرة تودع بها الدنيا الباطلة تعقبها أول نظرة فى جهنم . تبطل آخر حركة لك فى الأرض لتبدأ أول حركة فى الجحيم . تصم اذنك عن سماع أخر كلمة فى العالم لتفتح لسماع زئير المعذبين فى النار الأبدى .

إن الطفل إذا تكلم أول كلمة تعرف أنه سيلفظ آخر كلمة ، وإذا نظر أول نظرة تعرف أنه سينظر آخر نظرة . أما الخاطئ فى جهنم فهو إذا فتح عينيه ليرى العذاب

فلا يغلقها ليستر بح نظره لحظة واحدة بل يفتحها الى الأبد .

فكيف تنجو أيها الخاطئ من يد العدل الالهى الرهيب وكيف تخلص نفسك من ذلك الحزن والنحيب ؟ هل تفكر فى الهروب ؟ اهرب إن كنت قادراً . كلا بل ينبغى إن تصرخ مع المرتل « أين أذهب من روحك ومن وجهك أين أهرب . إن صعدت الى السموات فإنت هناك . وإن فرشت فى الهاو ية فها أنت . إن أخذت جناحى الصبح وسكنت فى أقاصى البحر . فهناك أيضا تهدينى يدك وتمسكنى يمينك . فقلت إنما الظلمة تغشانى . فالليل يضئ حولى . الظلمة أيضا لا تظلم لديك والليل مثل النهار يضئ . كالظلمة هكذا النور » (مز ١٣٩ : ٧ ــ ١٢).

قال القديس يوحنا ذهبى الفم :ــ « أما أنا فانى أنوح دائماً واندب متواتراً من هول ذلك اليوم الذى فيه تجتمع جميع الأمم واللغات وتموج بحار العبرات وتظلم العيون الرائعة وتخرس الألسن الناطقة وتذل عظماء الجبابرة وتخضع رقاب الأكاسرة وتغل أعناق الظالمين و يكثر ضجيج الخاطئين حيث لا مال ينفع ولا محب يشفع ولا عذر يقبل ولا خلاص يؤمل بل سماع أصوات ملائكة يو بخون ور بوات أجناد يبكتون . وأعوان يتسابقون وخاطئون يعذبون وعصاة يصرخون و ينوحون ولا يرحمون حيث يسمعون الديان حينئذ قائلاً : أين هم أولئك المطيعون لشهوات نفوسهم المخالفون لأوامر ربهم . أين هم الذين كانوا يتنعمون و يبذخون وهم عن الآخرة معرضون ، أين هم قادة الجيش ومقدمو العساكر والجبابرة والقساة ، أين هم الذين كانوا يظلمون عبيد ربهم ومخافة الله ليست فى قلوبهم ، أين الذين كانوا يسرقون ويحلفون و يكذبون وهم مسرورون ، أين الذين كانوا يخرجون باكراً و يسعون فى أثر النجاسات و ينهبون متاع الأيتام وهم عن أحكام ربهم معرضون . أين عظمة الملوك وتجبر السلاطين وسطوة الجبابرة وتعظم المتكبر ين . أجبنى أيها الملك ما بالك هنا ذليلاً ومالك خاضعاً كئيباً وما بالك طريحاً قتيلاً ، أين الحلل والتيجان ، أين العشائر والأصحاب ، أين العبيد والحشم ، أين الدعوات والهمم ، أين الخائفون من رد الجواب ؟ كيف خذلتك الآن عساكر المملكة وخانتك رجال المعركة وكيف لم تحرس حياتك الجيوش ولا صانت جبروتك القلاع المشيدة وكيف غفلت عنك الحراس فى الليل ولم هجعت عيون حفظة النهار حتى خرجت من ملكك عار ياً

وجذبت من قصرك ذليلاً وأصبحت طعاماً للحشرات وأنيساً للفلوات وصائراً الى رذيلة هذا عظم مقدارها ؟ فيجيب ذلك العاجز و يقول ارحم ياسيد من اغتر بطول الأجل واعتز بامتداد الأمل واشتغل بالمآكل الفانية والتهى باللذات المتلاشية وتفاخر بالملابس البالية وتباهى بالجموع الخائبة حتى تركته عبرة للناظرين وتذكرة للغافلين . فيقول له الديان حينئذ أنت نلت خيراتك فى الحياة الدنيا وأخذت حظك من نعيمها فإذ قد سررت باللذات الزائلة زماناً قصيراً ستعذب ههنا عذاباً طويلاً ».

فماذا تقول أيها الخاطئ إذاً ؟ ها أنت تنادى ديانك قائلاً . لماذا تحكم على هذا الحكم القاسى . هل لأنى تركت العبادة ولم اهتم بالصلاة ؟ اتركنى لأعود الى العالم فأقضى ليالى وأيامى جاثياً أمامك ؟ هل لأنى غضبت على غيرى ، اسمح لى فأعود لأركع أمام كل من أسأت اليه غنياً كان أم فقيراً . هل لأنى ظلمت الغير ؟ دعنى أذهب وأعوض كل من سلبته شيئاً أربعة أضعاف . هل لأنى لذذت جسمى ونعمته ؟ ارجعنى فأذله وأقعه واعذبه عذاباً شديداً .

ولكن لا . لا . لقد فات الوقت الذى كان يمكنك فيه أن تصلح خطأك . إن زكا حينما دعاه السيد المسيح لم يقل له فيما بعد « اعطى نصف أموالى للمساكين وأن كنت قد وشيت بأحد أرد أربعة أضعاف » بل قال « ها أنا يارب » (لو ١٩ : ٨) وأما أنت فامتدت اليك الأيدى وهى ترتعش من الخوف منك فكنت تردها خائبة . وكم نصح لك كتاب الله وخدام الله لكى تقلع عن اثمك وتطرح خطيتك وكم قيل لك إن « أجرة الخطية هى موت » (رو ٦ : ٢٣) ولكنك لم تسمع ولم تبال بما قيل لك فتبعتك الخطية الى هنا ولن تفارقك الى الأبد .

أجل عندما يطرح الأشرار فى ذلك الأتون المرعب و يشعرون بعذاب النار ولدغ الدود يدركون أن كل العلاقات البشرية قد انقطعت . فلا يشفق الاب على ابنه ولا الأم على ابنها ولا الصديق على صديقه لأن كلا منهم يكون مشغولاً بعذابه مثقلاً بآلام نفسه كما قال اشعياء النبى : « بسخط رب الجنود تحرق الأرض و يكون الشعب كمأكل للنار . لا يشفق الانسان على اخيه » (اش ٩ : ١٩) وقال المسيح

« و يسلم الأخ أخاه الى الموت والأب ولده و يقوم الأولاد على والديهم و يقتلونهم » (مت ١٠ : ٢١) فلا يسمع إذ ذاك سوى صياح وعويل وتجديف عندما يفتح بئر العمق و يصعد دخانها الى السماء وتصرخ الأبالسة والأشرار بأصواتها المرعبة وترتجف الأرض وتفتح الجحيم فاها لتبتلعهم و ينقطع الرجاء وتبتعد الرحمة ويحكم العدل . في ذلك الحين يلتفت الابن الى أبيه و يقول « لم شفقت على ولم تؤدبني لم تركتني الى أهواء نفسي حتى وصلت الى هذا اليوم الرهيب » فيلتفت اليه أبوه و يقول « ليت أمك ما حبلت بك ليتك ما كنت ولدت ولا بشرتني بك القابلة . أحببتك عن نفسي ولم أرد اصلاحك خوفاً عليك من انكسار خاطرك ولم آت بك الى بيت الله لأني لم أرد أن أزعجك باستماع كلمة الله قائلاً في نفسي هذا الطريق ضيق وعسر عليك سلوكه وخير لك أن تسر وتفرح مع أصدقائك وأحبائك . ولكن واحسرتاه قد انقطع حبل الرجاء ولا نقدر أن نعود الى يوم الحياة لنفي عن مآثمنا . ها الجحيم فاتح فاه لابتلاعنا » وتقول الابنة لأمها « ليتك كنت عاقراً وليت عيني لم تبصر نور الحياة ولا قلبي تصور في احشائك التي منها خرجت لأفعل المنكر على وجه الأرض فمن يخلصني من يد هذا الديان العادل . ولا واحد . وها أنا أنحدر باثمي الى أعماق الجحيم ».

وهكذا ترى كل واحد يلقى التبعة على غيره و يفوه ضده بضجيج و يصب عليه لعنات ما أمرها ولكن أين اللائم والملوم وأين العدو والصديق . لم يبق شئ سوى أن كل انسان يحمل وزر نفسه ويجازى حسب عمله (رؤ ٢٢ : ١٢).

أجل ! سيكون بغض الأشرار بعضهم لبعض عظيماً لأنه بقدر كثرة عدد الهالكين يكون عذابهم قد نسمع كثيرين من الخطاة العاصين هنا يقولون عندما نكلمهم عن عذاب الجحيم « اننا إن مضينا الى جهنم لن نكون هناك وحدنا بل نجالس وزراء وملوكاً وعظماء ، ولكن يالشقاوة هؤلاء فإن كثرة الهالكين معهم هي التي تزيدهم عذاباً وألماً وذلك لكثرة رائحة أجسادهم النتنة وأصواتهم المزعجة فيكون ازدحامهم شديداً كالحيوانات التي تتزاحم على بعضها (مز ٤٩ : ٢٠) وكما قال ناحوم النبي « فانهم وهم مشتبكون مثل الشوك وسكرانون كمن خمرهم يؤكلون كالقش اليابس بالكمال » (نا ١ : ١٠).

ولكن بغض الأشرار لبعضهم يحتسب يسيراً أمام بغضهم للشياطين الذين كانوا علة سقوطهم فى الخطية . بل أن الشياطين الذين كانوا يمتلكونهم و يتوددون اليهم ليجروهم الى الاثم يكونون فى جهنم قساة عليهم فيز يدونهم عذاباً بأشكالهم المرعبة وأصواتهم المفزعة حقاً لقد خاب أملك أيها الخاطئ من كل ما رجوته فالعالم الذى أحببته قد فارقك . والجسد الذى لذذته تتعذب فيه نفسك والخطية التى اشتهيتها سلطها الله عليك لتعذب ضميرك . والشيطان الذى أطعته يقوم ضدك . ولا يكون بغض الأشرار للغير فقط بل يبغضون حينئذ أنفسهم ، ومن ذا الذى يستطيع أن يصف عظم شدة القتال الذى يحدث حينئذ بين نفس الانسان وجسده ومحاولة كل منهما فى القاء التبعة على الآخر وهذا التنازع نفسه يحدث فيما بين بقية الأعضاء فإن اليدين تشلبان الرجلين بأنهما كانتا تقتادانها الى طر يق الخطية ، والرجلان أيضاً تثلبان اليدين على طاعتهما لهما . وكذلك العينان تثلبان اللسان على دفعة اياهما الى مثل هذا العذاب بارتكابه خطية الوقيعة والدينونة والغيبة والتجديف والافتراء وغير ذلك من الخطايا التى تصدر عن اللسان الخبيث . واللسان يسلب العين لأنها كانت علة عذابه إذ هى التى نظرت الشر وتطلعت الى الخطية وعلقت القلب بها .

فماذا تر يد أن تبلغ البشر أيها الخاطئ المقيم فى جهنم وأية رسالة ترسلها لهم علها ترجع بهم من الغى الى الصواب ؟ إن الغنى طلب الى ابراهيم أن يرسل لعازر الى بيت أبيه لأن له خمسة أخوة ليشهد لهم لكيلا يأتوا هم أيضاً الى موضع العذاب وذلك بقوله « إذا مضى اليهم واحد من الأموات يتو بون » (لو١٦ : ٣٠) أرسل الينا أيها الخاطئ الذى سكنت جهنم رسالتك ماذا تر يد أن تقول لنا !

« اسمعوا أيها البشر وانتبهوا يا أهل العالم . أنتم تعيشون فى ضلال و وهم ، فكل ما تعتبرونه ذا قيمة عندكم تسقط قيمته هنا ، وكل من تعظمونه لكثرة ما ملكت يداه ينحط هنا و يذل . أرى حولى كثير ين ممن كانوا يسمون فى العالم ملوكاً وأمراء وشرفاء تدفعهم هنا النيران وتدوسهم الشياطين تحت أقدامها . أرى هنا أناساً ممن لم يكونوا يألفون غير المديح والتقر يظ لا يسمعون سوى اللعنات القاسية . أرى هنا غنياً كان فى الأرض يلبس الأرجوان والبز وهو يتنعم كل يوم مترفهاً .

ينقلب هنا عارياً . أرى فقيراً كان على باب الغنى ولم يكن سمح له بقليل من الفتات الساقط من مائدته . هوذا الغنى يطلب ممن كان فقيرا إن يبل طرف اصبعه بماء و يبرد لسانه لأنه معذب فى اللهيب (لو١٦ : ١٩ — ٢٤).

وقد وجدت بجانبى انساناً لا أستطيع أن أصف مقدار ذله فسألته عن نفسه من أنت ؟ فأجابنى أنا فرعون ملك مصر الذى أتانى موسى يطلب منى اخراج اسرائيل فدفعنى جهلى واغترارى بملكى أن أقول له « من هو الرب حتى أسمع لقوله فاطلق اسرائيل ؟ لا أعرف الرب واسرائيل لا أطلقه » (خر ٥ : ٢) أما الآن فقد عرفت من هو الله لأنه جازانى عن كبر يائى بالذل الذى تشاهدونه .

ورأيت انساناً آخر فسألته من أنت ؟ فأجابنى « أنا أحد ملوك بابل الذى كانت الناس ترتجف من ذكر اسمى وكنت ألزم الناس بعبادتى . ومن كان يتجاسر بكلمة واحدة كنت أقطع رأسه . وكانوا يخترعون لى كل يوم ملذات جديدة وكنت من ذوى الهوى فحملنى جهلى على ارتكاب المعاصى التى أدت بى الى الهلاك وبعد موتى شعرت إن الذين كانوا يعبدوننى أخذوا يتسامرون بسيرتى القبيحة فلم انتفع شيئاً مما تلذذت وتمجدت به سوى هذه النيران التى تراها تضطرم فى جسمى .

وشاهدت آخر منحنياً الى الأرض فسألته من أنت ؟ فاجأبنى « أنا الذى أحببت المال وجمعته وكثرته فهلكت بسببه وأحس كأنه تجمع الآن فوق ظهرى وثقل حمله على فلا أستطيع أن أرفع رأسى . وشاهدت كثيرين من هذا النوع فقد رأيت أناساً كانوا فى العالم من ذوى اللطف والظرف واناساً كانوا من أهل اللهو والطرب وهم يرقصون الآن هنا رقصة الطير المذبوح . فقولوا عنى لأبناء البشر أنتم مساكين لأنكم الآن فى راحة وعيون جسدكم لا تستطيع أن ترى أكثر من ذلك ، ولكن ليتكم تفتحون عيون قلوبكم لترى أن هذا العذاب الذى لا يطاق هو نتيجة لازمة للخطية .

فليتنا ننتبه الى هذا النداء ونسمع قول الرب « اعطوا الرب الهكم مجداً قبل أن يجعل ظلاماً ». قال أحدهم « و يل للأشرار ثم و يل لهم لأن دودهم لا يموت

ولا نارهم تطفأ وهم أحياء وأموات الى الأبد ضمائرهم جلادهم أفعالهم تعذبهم يضيق الكون بوجوههم وأرض الأحياء لا يقدرون أن يعودوا اليها فينحدرون الى الجحيم ليخفيهم من وجه العلى وعن هيبة الذى رفضوه ورفضوا تعليمه المقدس فيغلق حينئذ باب الجحيم ويختم بابه بختمه الأزلى فلا يصعدون منه الى الأبد فويل وويل لهم ماذا أفادتهم نعم هذه الحياة الفانية كالظل أو ماذا نفعتهم حكمتهم الانسانية الباطلة التى جرتهم وراءها الى هاوية العمق طغوا وتكبروا فقطفوا ثمر عجرفتهم العذاب الأليم . حسبوا أنفسهم حكماء وهم غارقون فى بحار الجهل ظنوا أن من العار عليهم أن يصدقوا أن يسوع المسيح هو ابن الله حقاً لأن حكمتهم القاصرة لم تقدر على معرفة الحق ، ولأن بصائرهم المظلمة لم تكن إلا تراباً ورماداً خاوية وخالية من الاتكال الصحيح على يسوع المسيح الصادق وحيد أبيه الأزلى ولم يعتبروا كلمة انجيله المقدس التى تحتوى على كل التعليم الصحيح وتؤدى الى الحياة الأبدية . ترى ماذا أفادتهم حكمتهم الانسانية ؟ هل ردت عنهم القضاء أوصدت عنهم وقوع العذاب انهم ظلموا أنفسهم وراحوا ضحية اثمهم يتذكرون وهم فى جهنم ما تلقوه فى العالم من الانذارات والتعاليم من أفواه المبشرين ولكن ذلك لا يزيدهم إلا ألماً شديداً وعذاباً مريراً فيقولون ليتنا سمعنا وحفظنا تلك العظة التى بشرنا بها ذلك المبشر الذى أفرغ جهده فى نصحنا وناداناقائلاً توبوا وإلا فجميعكم تهلكون ولكننا كنا نهزأ به باطناً ونحتقر أقواله الصحيحة . بأعيننا نظرنا الانجيل و بأيدينا لمسناه رددت أفواهنا كلماته وسمعت آذاننا أقوال الحق ولكننا عوجنا بارادتنا من سبل الاستقامة ، رفضنا التعليم والانجيل وأقوال الحكمة والعلم وكلمة الله يسوع المسيح فخسرنا المواعيد التى استحقها لنا بدمه ، فياله من جنون فظيع أدى بنا الى هذه العاقبة المؤلمة حيث يحيط بنا العذاب من كل ناحية . نقول للجبال اسقطى علينا فنهرب من امام الجالس على الكرسى ونخاف ونذوب كالشمع ، أنكرتنا الأرضى ورفضتنا السماء لأننا رفضنا خالقها وعرفتنا الجحيم وفتحت أحضانها وابتلعتنا لتفى العدل الالهى . فيا اخوتى الأحباء إن كانت هذه هى حالة الذين رفضوا يسوع المسيح وانجيله الطاهر أفليس مجنوناً ذلك الذى يعرض نفسه للوقوع فى الهاوية التى لا يصعد منها الى الأبد ؟ أليس عارياً من كل فطنة ذلك الذى يرى و يسمع الأقوال التى تخلصه من العذاب الأبدى لو أطاعها وعمل بها و يرفسها ويميل عنها

معوجاً و يرفضها و يرفض واضعها ويحتقر المبشرين بها ؟ أين حكمتك أيها الانسان ؟ أين فطنتك أيها التراب ؟ قاومت خالقك ورفضت أن تحمل نيره الطيب على عنقك التى قد حررها من رق العبودية . أتنتظر مخلصاً أعظم من ابن الله الوحيد الذى خلقك من العدم . فويل لك أيها التراب والدود الذى تمردت على خالقك ومخلصك .

أما نحن الأحياء أيها الاخوة فيجب علينا إذا سمعنا صوته اليوم إن لا نقسى قلوبنا لئلا يسخط علينا برجزه و يغلق امام وجوهنا أبواب رحمته بل لنبادر مسرعين مادام معنا النور ولنسجد للرب خاشعين مذرفين دموع التوبة لئلا نهلك ونخسر الجوهرة الثمينة التى اشتراها لنا بدمه الكريم وقدسها بالروح القدس وطهرها بنار محبته الالهية يكفى يا أحبائى ما سمعتم مراراً من كلمة الله إذا كانت ارادتكم صالحة ونيتكم سليمة وكنتم ترغبون خلاص نفوسكم . لأن من لا يرشد نفسه و يبتغى الصلاح من تلقاء ارادته يكل عن ارشاده الواعظون ويخنق الكلمة الالهية بأشواك أفكاره وحب ملذاته و يرى لنفسه طرقاً جديدة يسلك فيها و ينسى الناموس المكتوب و يتناسى الناموس المطبوع فى قلبه . ويهزأ بما يقوله المبشرون بالانجيل لأن الارادة لا تغتصب والانسان لا يخلص إلا بارادته واختياره ، فمن أراد الخلاص والحياة فليقبل الى المسيح المصلوب ملك الملوك ورب الأرباب ، وليحترس من أن يرفضه كاليهود الذين برفضهم اياه حملوا أنفسهم أثقل الخطايا ووضعوا على رؤوسهم أثقل الذنوب . وليتحاشى أن يرفض انجيله الطاهر المبشر به بالحق من أفواه خدامه لأن الرب عظيم .

فمن أراد خلاص نفسه والخلود فى الحياة الأبدية فليؤمن بابن الله يسوع المسيح لأن بدونه لا يمكن الخلاص لأنه هو وحده الشفيع والفادى الحقيقى والوسيط بين الله والناس ومن لا يؤمن به يدان وأما الذى يؤمن و يعتمد فيخلص . ومن كانت خطيئته كالجبال الشامخة أو أكثر من رمل البحر فليؤمن وليتب عن السير فى طريقه الرديئة المعوجه فيحيا و يرث الحياة الدائمة مجاناً لأنه هو وحده الفادى الحبيب وفاتح أبواب رحمته فى هذا الزمان المقبول ليشفى جراحات الخطايا و يريح جميع المتعبين

إذ يقول تعالوا الى وأنا أريحكم وإن كانت خطاياكم كالقرمز فانها تبيض كالثلج . ولكن و يل لكم إن سمعتم صوته وقسيتم قلوبكم ورفضتموه كما فعل اليهود أو احتقرتم انجيله الطاهر وكلمته الصادقة لأن له النقمة وهو يجازى فى يوم الدين .

فمن أراد إذاً أن يخلص من النار التى لا تطفأ والدود الذى لا يموت فليأت بايمان حى وتوبة صادقة الى المخلص المصلوب ، الفاتح يدى رحمته ليبطل ندى المغفرة على خطايا الذين أساءوا اليه وليقل :

ارحمنى يامخلصى ارحمنى ، ارحمنى يابن الله يسوع المسيح المتحنن على جنسنا ، ولا توبخنى بغضبك ولا تؤدبنى برجزك لكيما تحيا نفسى وتمجدك .

الفصل السادس والعشرون
فى انه لا رحمة بعد الحكم

« تطلع من السموات وأنظر من مسكن قدسك ومجدك . أين غيرتك وجبروتك . زفير أحشائك ومراحمك نحوى امتنعت » (اش ٦٣ : ١٥)

كثيرون يطمعون فى رحمة الله و يظنون أنه فى تلك الساعة الرهيبة يسمع لهم نداء أو يقبل لهم توسل ، ولكن هؤلاء فى ضلال مبين لأن حكم الله عادل ومتى نطق به فلا قول ولا كلام يفيد ، فلا يغتر أحد برحمة الله ، فقد علمنا الكتاب المقدس أن الله فى وقت المجازاة لا يشفق ولا يرحم . من الذى أغرق العالم بالطوفان ؟ من الذى دمر مدينتى سدوم وعمورة والمدن التى حولها بالنار ؟ من الذى أغرق فرعون وجنوده ومركباته ؟ من الذى اهلك اليهود بالحيات . من الذى أحرق محلة ابيرام من الذى أمر الأرض أن تفتح فاها وتبتلع قورح وقومه . هوذا تعالى يقول « لا تشفق عينى ولا أعفو وإن صرخوا فى أذنى بصوت عال لا أسمعهم » (حز ٨ : ١٨).

أجل انى أعلم أيها الخاطئ اين تعلق آمالك . انها متعلقة بلجة تحنن الله تعالى . وأنه من هذا الوجه ينبغى بالأكثر أن تخاف وتخشى لأنك تجازى بالأخص لأجل عظيم خيانتك وقلة شكرك وعدم وفائك الذى أظهرته من نحو وفرة غنى المواهب والنعم التى نلتها من لجة تحننه تعالى . فالذى تطمع فيها من صفات الله ينبغى لأجله أن يزداد خوفك لأنك إذا تصورت انه حكيم ، فالحكمة تطلب معاقبة الخائن . وإذا تصورت أنه قادر ، فالقدرة تستوجب تعذيب المنافق ، وإذا قلت انه عادل ، فالعدل يستلزم أن يعاقب المجرم .

فلا يمكن أن يجد الخطاة هناك أدنى رحمة ولا شفقة ولا مغفرة ولا يحل بهم سوى الغضب الشديد والانتقام المريع وسماع الحكم الأخير « خذوهم من أيديهم وأرجلهم واطرحوهم فى النار الأبدية » وسرعان ما يتقدم ملائكة جبابرة عتاة ويحملون الهالكين الى المكان المعد لأبليس وجنوده . فيالها من رعدة جسيمة تمتلك الخطاة فى تلك الساعة . ساعة يختفى عندها الصوت ويمتنع اللسان عن الكلام والعين عن النظر والأذن عن السمع . ساعة لا يستطيع فيها هابيل بتقواه أن يخلص قايين ، ولا صموئيل أن يشفع فى شاول . ولا داود أن ينقذ ابشالوم . بل حينئذ يطلب الغنى من لعازر رحمة فلا تكون له ، و يلتمس هيرودس من يوحنا المعمدان شفقة فلا يجدها ، يتوسل حنان وقيافا الى قليل من الرأفة فلا يسأل أحد عنهما لأن كل غادر أثيم لا يرحم (مز ٥٩ : ٥).

و بعد أن يطرح الأشرار فى جوف ذلك اللهيب يحاولون الخروج من باب الجحيم فيجدونه قد أغلق وكتب عليه بأحرف من نار « لا يخرج أحد ولا يدخل أحد » فيرجعون بالخيبة وأجسادهم تتقلب فى أمواج اللهيب المشتعلة ولا راحة لها . إن علت بهم تيارات النيران الى فوق فالاضطرام يلهب كما هو وإن غاصت بهم فى لجج الأعماق يحرق كما هو . وإن دفعتهم الأمواج المشتعلة الى هنا أو هناك فحرارة النيران كما هي . وعندما يرون أن لا سبيل الى نجاتهم يصرخون بمرارة و يبكون بدموع حارة و يقعون فى أشد الندامة و يتفوهون بأحزن العبارات قائلين :ـــ

أين الموت ! أين الهلاك ! لماذا يهر بان منا ؟ النار تحرقنا ولا نموت . والدود يلدغنا ولا يبيدنا . يا ليت أجسادنا كانت وقوداً فتأكلها النار وتنتهى . يا ليت أرواحنا كانت مواداً قابلة للالتهاب فتشتعل باللهيب وتنقضى . و يلاه من يشفق علينا ! من ينجينا من الموت ومن يرحمنا فيهبنا الاعدام . يا للشقاوة المؤبدة ! يا للعذاب الحار ! أين رحمتك يا الله ؟

ما هذا التغير الذى طرأ عليك يا الهنا . أين ذلك القلب العطوف . أين ذلك الاله الذى كان يرق على الخطاة مهما أثموا . أين الاله الذى كان يبذل كل خير حتى لأشر الناس . أين ذلك الاله الذى كان يقول « ذوقوا وانظروا ما أطيب

الرب » (مز ٣٤ : ٨).

فيجيبهم الديان العادل والمنتقم الجبار قائلاً :ـــ

وأسفاه عليكم . ألم تكن الرحمة فى أيديكم والنعمة قريبة منكم والخلاص مقدم لكم . لقد دعوتكم الى ذلك بيدى التى ثقبت بالمسامير حباً فيكم فازدريتم برحمتى واستخففتم بالنعمة واحتقرتم الخلاص وكم من مرة قرعت أبواب قلوبكم كسائل فأوصدتموها فى وجهى . أطلت أناتى عليكم فتقسيتم ، أظهرت غنى لطفى فعصيتم ، قدمت لكم فيض نعمتى فتمردتم ، ولأنى عالم بأن قساوتكم ستجركم الى هذا العذاب الأليم تحننت عليكم وزرفت عيناى الدموع لأجلكم ورق قلبى لكم فاستهزأتم بمحبتى واستهنتم بآلامى حتى تحولت رحمتى قساوة ورقتى جفاوة وحنانى جبروتاً فتعذبوا الآن بلهيب تهاونكم و بنار قساوتكم . اننى لم أتغير أيها الاشرار ولكنكم أنتم الذين قد غيرتمونى بمساوئكم وخيانتكم . اننى كنت لكم محباً ومحبتى كانت تتغلب على عدلى ، أما هنا فعدلى يتغلب على محبتى . ولأنكم احتقرتم هذا الاله الجواد الذى أحبكم ومال اليكم فهو كذلك الآن يحتقركم و يوجه محبته الى غيركم .

أنظروا الى أولئك الأبرار والقديسين فعليهم وحدهم أفيض حبى وأسكب رحمتى وحنانى ».

فيجيب الأشرار . ولكن أتتركنا يالله هكذا فى وسط هذه النار ! إن العذاب شديد لا يطاق . ألسنا نحن صورتك وعمل يديك ! وكيف لا ترق لدموعنا وزفراتنا ولا تنظر لحالنا وترثى لشقاوتنا . أنظر ياإله الرحمة بعين الرأفة الى أجسادنا كيف تتقلب فى نار لا تحتملها حتى الحجارة الصلدة . تعطف علينا أيها السيد . امنحنا يسيراً من حنوك وقليلاً من مراحمك ، أندوم هنا فى هذا الشقاء ؟ مظلومون يارب . أنت معروف بالرأفة أتدفعنا الى الأبد فى نار متقدة ملتهبة ودود لداغ لا يموت وظلمة خارجية قاتمة ؟ «أين مراحمك الأول » يارب (مز ٨٩ : ٤٩) ارحم ياأرحم الراحمين .

فجيبهم الديان العادل قائلاً :

أجل لقد خلقتكم على صورتى ومثالى . ولكنكم أهنتم صنع يدى وأفسدتموه حيث لا أرى فيكم الآن السمة التى كنتم متسمين بها حين خرجتم من بين يدى . محوتم الصورة التى كانت تميزكم عن سائر المخلوقات . جعلتكم أبناء فصيرتم أنفسكم عبيداً للخطية . ولذلك فانى لا أنظر لكربكم ولضيقتكم لا أهتم فكما قسيتم قلبكم على كذلك تقسى قلبى عليكم فعبثاً تبكون وتتنهدون .

« ياقوم انى ما ظلمتكم قط بل أنتم الذين ظلمتم أنفسكم . لقد رحمكم أبى وأشفق عليكم ولم يشفق على أنا ابنه الحبيب ولما أتيت لخلاصكم لم تشفقوا على بل رفعتمونى على صليب العار وفى ضيقتى لم ترقوا لحالى بل زدتم قساوة . ولبثت أتحمل عذاب أيديكم وعذاب سيف العدل الالهى الذى كان يمزق أحشائى حتى تقطع قلبى فى داخلى وذابت أمعائى من حرارة العذاب الأليم كما يذوب الشمع أمام النار . كل ذلك احتملته لأجل فدائكم وحباً فى خلاصكم من عذاب الجحيم .

فمن أجلكم أنتم ياناكرى الجميل قاسيت كل ذلك فما الذى فعلتموه لمكافأتى ! بل أى شئ لم تفعلوه من الخطايا والشرور لتهينونى به ، ألم تزدروا باسمى ؟ ألم تستهزئوا بكلامى ؟ ألم تدنسوا دمى الكريم الذى سفك لأجلكم ؟ هل طلبت منكم أمراً صعباً ؟ هل سألت منكم أشياء عظيمة مكافأة لى على عملى هذا ؟ لا . إنما طلبت منكم أن تمجدوا اسمى فقط .

وطلبت منكم فى أثناء فاقتى ثوباً بالياً أتزر به ، وسألت منكم عند جوعى رغيفاً واحداً أسد به رمقى فبددتم خيراتكم فى الملاعب والملاهى والمعاشرات الرديئة ولم ترضوا أن تعطونى ما طلبته منكم وهو زهيد . فهل كنت أستحق منكم هذه المكافأة ؟ أهكذا كان ينبغى أن تكافئوا محبتى بأن تحبوا كل شئ أكثر منى ؟ من أجلكم تجسدت . من أجلكم مشيت على الأرض ظاهراً . من أجلكم جلدت . من أجلكم بصق على وجهى . من أجلكم صلبت مرفوعاً على خشبة العار . من

أجلكم سقيت خلاً . وهبت لكم الملك الذى لى . أعطيتكم الفردوس . دعوتكم وأحضرتكم لى . قربتكم الى الله الآب وأرسلت لكم الروح القدس « ماذا يصنع أيضا لكرمى وأنا لم أصنعه له » (اش ٥ : ٤) فقولوا لى ماذا احتملتم من أجلى وماذا قدمتم اكراماً لى ؟

« لم أطلب منكم تلقاء ذلك أشياء صعبة لا تطيقون القيام بها بل توبة خالصة بايمان صحيح فلم تميلوا الى ولم تتوبوا ولم تشفقوا على أنفسكم بل احتقرتم كلامى واستهزأتم بمواعيدى وتوعداتى . قلت لكم « إن لم تتوبوا فجميعكم كذلك تهلكون » (لو ١٣ : ٣ و ٥) وأعلنت لكم رهبة الدينونة وشدة العقاب فهززتم رؤوسكم وقلتم « يوم الله يعين الله ». صرحت لكم بوجود نار أبدية معدة للخطاة فضحكتم وتجاهلتم وقلتم إنما هو كلام . أين تكون تلك البحيرة النارية أفى الأرض أم فى السماء ؟ فما أجهلكم هل تأكدتم الآن أنه توجد نار أبدية ؟ هل تحققتم العذاب فعلاً ؟ إذاً فاخضعوا للقضاء واحتملوا هذا الشقاء الذى جلبتموه على أنفسكم بالقساوة والتهاون : هل أنتم مظلومون ، كلا بل أنتم للقصاص بعدل مستحقون .

فإذ يعلم الخطاة أنهم مستوجبون العقاب ، ولا حق لهم فى المناقشة والجواب ، يقولون : نعم يارب انك لم تظلمنا بل نحن الذين ظلمنا أنفسنا . نعترف أننا قضينا حياتنا غير عارفين احسانك كم قسونا وتصلبت قلوبنا حتى اننا لم نكن نرضى أن نقبل باسمك فقيراً واحداً فى منزلنا ولا نتصدق عليه ، بل صرفنا حياتنا فى اغاظتك واهانتك . وعلى ذلك فنحن مستعدون الآن أن نقف أمامك ونبكى بحرقة على ذنوبنا ونندم على خطايانا ونغسلها بدموع غزيرة . أفلا نستحق تلقاء ذلك رأفة ولو جزئية ، وحنواً لو كان يسيراً للغاية ؟ ألا يكتفى العدل بما احتملناه من لهيب النار وبما قاسيناه من اضطرامها ويخرجنا من هذا العذاب . أشفق علينا يارب كل الشفقة .

فيقول الرب لهم « آه أيها الناس . انكم تريدون أن تقدموا ثمراً فى غير أوانه وتطرحونه فى غير وقته . كم طلبت منكم أن تصنعوا أثماراً تليق بالتوبة (مت ٣ : ٨) فأبيتم . وكم أمهلتكم سنة بعد أخرى علكم تثمرون قبل إن اقطعكم

(لو١٣ : ٩) فكنتم لى كشجرة يابسة بينما كنتم للخطية شجرة حية . تظهرون البخل من نحوى والسخاء من نحو الشيطان ؟ صلواتكم الآن لا أقبلها . وتضرعاتكم لا أسمعها . ودموعكم لا ألتفت اليها .

« وكيف أخرجكم من مكان عذابكم ؟ هل ينبغى أن أجمع لفيفاً مشوهاً بكل أدناس الخطايا ونجاساتها وأدخلهم الى مكان قدسى الطاهر ليسكنوا مع الأنقياء الاطهار التائبين و يقيموا بين الملائكة والقديسين . ألم تعلموا أنه لا يدخل ملكوت السموات شئ دنس ولا ما يصنع رجساً أو كذباً (رؤ ٢١ :٢٧) فكيف أرحكم وأنتم عالمون بقداسة المكان وقد تقرر أنه بدون قداسة لن يرى أحد الرب (عب ١٢ : ١٤).

فيقولون « نعم أيها السيد نقر اننا لا نستحق الرحمة واننا لسنا أهلاً لها وخطايانا تشهد علينا ، إنما نتوسل اليك فى أمر واحد وهو أن تسحقنا وتردنا الى العدم إن كنت لا تشأ أن تخلصنا . انزع أرواحنا من أجسادنا ومزقها اربا وكذلك افعل بأجسادنا حتى تتلاشى وتنتهى دفعة واحدة ولا تتركنا فى هذا العذاب . نتوسل اليك يارب أن تستجيب . نسألك أيها السيد الرحمة . ألست أنت الصديق الامين ؟ ».

فيجيبهم الاله « أيها القوم انى خلقتكم لمجدى لمجد رحمتى ولمجد عدلى . فبما انكم احتقرتم أن تمجدوا رحمتى فلابد لكم من أن تمجدوا عدلى الى الأبد . انى أعلم شدة عذابكم ولو أجبتكم الى طلبكم لكان ذلك منتهى الرحمة منى عليكم . ولكن هيهات ثم هيهات أن يجاب طلبكم ، أنا الرب لا أغير وعدى ولا أنسخ توعدى وكما انى لا أتغير فقضائى لا يتغير . ألم أبذل نفسى كى أخلصكم من هذه النيران . ألم أدعوكم للتوبة مظهراً لكم أهوال الهلاك وعذاب جهنم فكيف يلتمس الآن لكم عذر ؟ لولم أكن قد جئت وكلمتكم لم تكن لكم خطية وأما الآن فليس لكم عذر فى خطيتكم (يو١٥ : ٢٢) أما أخبرتكم إن الدينونة لا تتوانى والهلاك لا ينعس (٢ بط ٢ : ٣) كل ذلك وأنتم فى غيكم تعمهون غير مبالين ولا مكترثين . لو كان عدل الله ينسخ أو حكمه يتغير لجرى ذلك بالأحرى معى أنا ابنه الوحيد موضوع مسرة

فؤاده ولذة قلبه حينما تطوعت لأتحمل عقاب خطاياكم . انه حجب وجهه عني عندما وضعت موضعكم ومع أن طلباتي لديه كانت مقبولة إلا أنه حينما دنت ساعة الدينونة لم يلتفت الى مع أن صراخي كان يذيب الجماد وأنا أدعو على الصليب مستغيثاً قائلاً « إلهي إلهي لماذا تركتني » فلم يسمع ندائي وتوسلي بل تركني أشرب الكأس حتى الثمالة . فإذا كنت أنا حبيبه القدوس المطيع له لم يرض عدله إلا أن ينفذ حكمه في فماذا تنتظرون أنتم يامن قضيتم حياتكم تتمردون عليه وتعصون أوامره ؟ أنتم الذين جرحتم فؤادي بآثامكم وأحزنتم روحي بتهاونكم .

فيقولون : ولكن إذا كنت أنت أيها السيد الكريم قد تفضلت بالموت عنا لفدائنا وسفكت دمك الكريم مطهراً ومخلصاً من الخطية ومنحتنا نعمتك بلا ثمن ، فلماذا هذه القساوة علينا الآن ونحن لم نعهدها فيك ؟».

فيجيبهم قائلاً « نعم . إن دمي يطهر ونعمتي تخلص ، وكثيرون تطهروا بالدم وخلصوا بالنعمة ولكن بالتوبة والايمان . أما أنتم فلم تهتموا بالتوبة ولم تبالوا بالايمان فخسرتم التطهير وحرمتم الخلاص . وهل كنت أطهركم وأنتم منغمسون في دنس الزنا والسكر والنجاسة التي لم تشاءوا تركها ؟ وهل كنت أخلصكم بينما أنتم متهافتون على المطامع وغرور الغنى وأباطيل العالم ولم ترغبوا الخلاص منها ؟

فيقولون : ولكن ألا يمكنك بما لك من سعة الرحمة وعظم الشفقة أن ترسل لنا الآن ولو قليلاً من الماء لتبرد ألسنتنا المعذبة في هذا اللهيب ؟.

فيجيبهم : لقد كان أمامكم وفي استطاعتكم أن تنالوا الخلاص من هذا العذاب وتتمتعوا بما يتمتع به أبرارى في ملكوت سمواتي ولكنكم أخترتم لأنفسكم الشر مع العذاب فستدومون فيه ، رفضتم الخير مع المجد الأبدي فحرمتم منه . جعلتموني أنا الحبيب خصمكم واتبعتم غواية ابليس وخداع الخطية وغرور العالم ومن الغريب أنه ليس أحد يتوب عن شره قائلاً « ماذا عملت ؟» (ار ٨ : ٦) استهنتم بلطفي وطمعتم في طول أناتي . هذه صنعتموها وسكت . ظننتم اني مثلكم . أو بخكم واصف خطاياكم أمام عينيكم . افهموا هذا ياأيها الناسون الله لئلا أفترسكم ولا منقذ (مز ٥٠ : ٢١ و ٢٢).

فكما أصعدتم الى أذنى صراخ خطاياكم وصياح آثامكم واغظتمونى بذميم أفعالكم ودنس لذاتكم فليصعد الآن صراخ عذابكم وصياح الآمكم » لأنى دعوت فأبيتم ومددت يدى وليس من يبالى . بل رفضتم كل مشورتى ولم ترضوا توبيخى . فأنا أيضاً أضحك عند بليتكم . اشمت عند مجئ خوفكم . إذا جاء خوفكم كعاصفة وأتت بليتكم كالزوبعة إذا جاءت عليكم شدة وضيق حينئذ يدعوننى فلا أستجيب . يبكرون الى فلا يجدوننى لأنهم أبغضوا العلم ولم يختاروا مخافة الرب . لم يرضوا مشورتى . رذلوا كل توبيخى . « لذلك يأكلون من ثمر طريقهم و يشبعون من مؤامراتهم . لأن ارتداد الحمقى يقتلهم وراحة الجهال تبيدهم » (ام ١ : ٢٤ — ٣٢).

« ما كان أحكمكم فى الشر والخبث والمكر والرياء والحقد والمذمات حتى ملأتم مكيال آثامكم أيها الحيات أولاد الأفاعى كيف تهربون من دينونة جهنم (مت ٢٣ : ٣٣) لماذا تتضجرون من عقاب ما جنته أيديكم ومن احتمال دينونة الشر الذى ارتكبتموه ضد ارادتى .

قد صورتكم وأبدعتم وأنتم التصقتم بغيرى . خلقت لكم السموات والأرض وما فيها وأنتم صيرتموها لاحتقارى خلقت لكم سمعاً لتسمعوا ما تقوله الكتب المقدسة وأنتم اصغيتم الى الأغانى السمجة والخرافات الباطلة . أبدعت لكم نظراً لتبصروا نور أوامرى وتعملوا بها وأنتم فتحتم أعينكم الى كل دناءة وقبح . وضعت لكم فماً لتمجدونى وترتلوا المزامير الروحية وأنتم تصرفتم به للولائم والشراهة والحنث والتجديف وأصلحت لكم الأيدى لتبسطوها الى التضرع وعمل الخير وأنتم مددتموها الى الخطف والضرب والسلب .

« كانت أبواب كنائسى مفتوحة على الدوام و وصاياى تتلى فيها كل يوم فلم تسمح لكم شروركم ومطامعكم بالذهاب اليها لتسمعوا كلامى وتحفظوا أقوالى . ولكن عندما كنتم تدعون لعرس أو وليمة كنتم تركضون اليها مسرعين وتذهبون اليها . كنتم تفضلون السعى وراء خيرات العالم عن سماع مشورتى فأين الأموال التى اقتنيتموها وأين البيوت المشيدة التى أقمتوها ؟ أين الترفه والتنعم . أين الملذات

والمآكل والمشارب التى تمتعتم بها ؟ يالشقاوتكم .

والنساء أيضا كن يسمعن خدام كلمتى فلا يهمهن من ذلك شئ ولكنهن كن يسرعن فى مشترى الملابس والحلى وكامل أسباب الزينة . فأين الآن الملابس الأنيقة المزخرفة وأين الحلى والجواهر الكريمة ؟ أين الجمال الفتان والبهرجة ؟ يالتعاستهن .

« وأنت أيها الشيخ بماذا تعتذر و بأى كلام تجيب . هل لم يكن لديك وقت كاف لكى تتوب وترجع الىّ . لقد صبرت عليك وقتاً طو يلاً وأطلت فى أجلك ولكنك قضيته فى مزاولة الأعمال التى لا ترضينى فارتكبت المعاصى وأتيت الموبقات . فكيف تلتمس رحمة الآن . ألا تخجل ألا تستحى !!

وأنت أيها الشاب . ألم أقل لك على لسان الحكيم « اذكر خالقك فى أيام شبابك قبل أن تأتى أيام الشر أو تجئ السنون إذ تقول ليس لى فيها سرور » (جا ١٢ : ١).

لماذا أهملت ؟ قد كنت تؤجل وقت التوبة منتظراً أيام الشيخوخة لكى تتوب فيها . قد كنت تروم أن تعطى ابليس زهرة شبابك وأما أنا فتقدم لى فضلة عمرك . هل لك حجة علىّ . ألم أوفر لك أسباب القوة والصحة لكى تستخدمها لارضائى فخدمت بها رغائب الشيطان . هل يوجد عندك جواب على ذلك !

وأنت أيتها المرأة أى شئ أعاقك . هل تقولين اننى كنت مشغولة بالزينة والأمور الفارغة ألم أقل لك إن الزينة الحقيقية هى طهارة القلب . هل لك عذر !

وأنتم أيها الاغنياء بماذا تعتذرون . لعلكم تقولون إن انهماكنا فى جمع المال لم يسمح لنا أن نتوب . انعطفوا الى أموالكم إذاً ، بما انكم اتخذتموها إلهاً لكم عوضاً عنى فلماذا تطلبون منى رحمة ؟ التمسوها من أموالكم لعلها تخفف لوعتكم . ياو يلكم ألم أوضح لكم خطر محبة المال . ألم أقل لكم إن محبة المال عداوة لى (يع ٤ : ٤) « هلم الآن أيها الأغنياء ابكوا مولولين على شقاوتكم القادمة . غناكم

قد تهرأ وثيابكم قد أكلها العث . ذهبكم وفضتكم قد صدئا وصدأهما يكون شهادة عليكم و يأكل لحومكم كنار » (يع ٥ : ١ ــ ٣).

أفلا تستحقون اذن الجزاء عدلاً والقصاص حقاً . هل فى قضائى ظلم !.

فعندما يسمع الأشرار هذه الأقوال المحزنة المخيفة و يعلمون أنه قد انقطع كل رجاء فى نجاتهم و بلغ اليأس منهم مبلغه و يتأكدون انه قد قضى عليهم نهائياً بالعذاب المؤبد و يذكرون قول الله : « اضحك عند بليتكم واشمت عند مجئ خوفكم » و يتم قول المرتل « الساكن فى السموات يضحك . الرب يستهزئ بهم » (مز ٢ : ٤) يرفعون عيونهم الى الله وهم فى هاوية العذاب و يشاهدون الله ينظر اليهم ضاحكاً مسروراً وهم يتقلبون فى النار عند ذلك يشتد حزنهم و يكادون يتمزقون من الغيظ فيصرخون حينئذ نائحين باكين من أعماق أفئدتهم قائلين « أنحن نحزن والله يضحك علينا . أنحن نتعذب والله يستهزئ بنا : أيها الاله ضاعف النار أضعافاً : قو أججها ما شئت واعدل عن الاستهزاء بنا فإن هذا الاستهزاء أمر علينا من عذاب النار وأشد وخزاً من لدغ الديدان ، لماذا لا تحوى جهنم أباراً أعمق نسقط فيها ونهرب من وجه الهنا العادل . لقد غرنا كثيراً من قال إن عذابنا الاعظم سيكون فى مشاهدة اله غضوب وكان الاولى به إن يقول لنا انه سيكون فى مشاهدة وجه اله ضاحك . اننا نريد الآن أن تقع الجبال علينا أو تنفتح الأرض وتبتلعنا لنستتر عن وجهه : أين هى الظلمة التى قيل لنا عنها « محفوظ لها قتام الظلام الى الأبد » (يه ١٣) لماذا لا تغطينا من وجه الله الهازئ بنا . آهاً لشقائنا لأن الشئ الذى يؤلمنا نراه جلياً والذى نريده لا نراه مطلقاً .

وإذ لا يجد الأشرار بأيديهم سلاحاً يحاربون به اله السماء ينعكفون على أنفسهم فيقطعون شعورهم و يصفعون وجوههم و يضربون أجسادهم و يصرون على أسنانهم بحرقة وكل ذلك يزيد فى عذابهم وآلامهم . وفى ذلك قال الرائى « وكانوا يعضون على ألسنتهم من الوجع » (رؤ ١٦ : ١٠) بل يبتغون أن يقوروا عيونهم حتى لا يبصروا من يستطيع أن يعذبهم وهو يضحك عليهم ولكن مهما بكوا وولولوا لا يستطيعون أن يحجبوا عن نظرهم مشهد عرش الله ووجهه يتلألأ بالاستهزاء بهم .

فكم يشتد غيظهم وكم يعظم تجديفهم . أكثر فأكثر لا سيما كلما يرون ذلك الاله العادل جالساً على عرشه المهيب لا يلين ولا يضجر من عذابهم وتمررهم بل يستمر ضاحكاً ومستهزئاً بهم هكذا تم قول موسى النبى « وكما فرح الرب لكم ليحسن اليكم و يكثركم كذلك يفرح الرب لكم ليفنيكم ويهلككم » (تث ٢٨ : ٦٣).

وماذا يفعل الأشرار حينئذ . سيصرخ كل واحد منهم قائلاً « لأن أيامى قد فنيت فى دخان وعظامى مثل وقيد قد يبست . ملفوح كالعشب و يابس قلبى حتى سهوت عن أكل خبزى . من صوت تنهدى لصق عظمى بلحمى » (مز ١٠٢ : ٣ ، ٥) أجل : سيصرخون قائلين « ماذا كسبنا من كثرة التنعم والترفه ؟ وماذا انتفعنا من التلذذ والتنزه سوى هذا الدود الذى لا ينام . وماذا ربحنا من تذليل هذه البشرة وملاطفتنا اياها واراحتنا لها ؟ ماذا استفدنا من الترف والمجد الفارغ . وماذا كسبنا من الثروة والغنى الزائد ؟ ها هى عبرت وجازت كالدخان و بقيت لنا الخطية التى ولدنا فيها وهوذا نحن نلتهب الآن محترقين من جرائها . وأية فائدة استفدناها من هذا الجسد الملعون النتن الذى خضعنا لارادته وهواه منذ حداثتنا . وكنا نرفهه ونخدمه بالسكر والزنا والفسق والمشاحنات الكثيرة والعداوة المستديمة . ماذا استفدنا من خدمته سوى هذا اللهيب الذى نتقلب فيه الى أبد الابدين .

« ياليتنا كنا خلقنا بلا عيون ولم ننظر نظرة شر يرة . أوجبلنا بلا آذان ولم نسمع كلمة باطلة . و بلا ألسن ولم ننطق كلمة رديئة . ياليتنا ولدنا مقعدين ولم نخط خطوة واحدة فى سبيل الخطيئة . ليت ما كانت لنا قلوب اشتهت الشر بل ليتنا ما خلقنا أصلاً وليت أمهاتنا ما ولدتنا لأجل عذابنا هذا ، فإذا كان أيوب من آلام هذه الحياة الهينة القصيرة ضج وصرخ قائلاً « ليته هلك اليوم الذى ولدت فيه والليل الذى قال قد حبل برجل . ليكن ذلك اليوم ظلاماً : لا يعتن به الله من فوق ولا يشرق عليه نهار . . لأنه لم يغلق أبواب بطن أمى ولم يستر الشقاوة عن عينى لم لم أمت من الرحم . عندما خرجت من البطن لم لم أسلم الروح » (أى ٣ : ٣ و ٤ و ١٠ و ١١) فبماذا تتصور يكون ضجيج وصراخ ندامة الأشرار فى الجحيم .

سيلعنون البطون التى حملتهم والأيام التى ولدوا فيها واللبن الذى رضعوه والشمس التى أشرقت عليهم والنسيم الذى استنشقوه والوالدين الذين تغاضوا عن تربيتهم والشيطان الذى أغراهم والخطية التى خدعتهم و يعترفون بخطاياهم التى أوصلتهم الى هذا العذاب . سيسمع قايين يعترف للهالكين باثمه الفظيع حينما قتل أخاه وقد كان أنكره على الله ، وسيعترف كل خاطئ بفظاعة الشر الذى ارتكبه وهو لم يكن يدرى أنه شنيع .

قال السيد المسيح عندما كان حاملاً صليبه ورأى نسوة كن يلطمن و ينحن عليه « يابنات أورشليم لا تبكين على بل ابكين على أنفسكن وعلى أولادكن لأنه هوذا أيام تأتى يقولون فيها طوبى للعواقر والبطون التى لم تلد والثدى التى لم ترضع » (لو ٢٣ : ٢٨ و ٢٩).

أجل : وستكون ندامة الأشرار بالأخص على نعمة الله التى وهبت لهم واقتربت منهم ولكنهم رفضوها واحتقروها . سيصرخون بمرارة « لقد كان الخلاص بين أيدينا وكان نواله سهلاً علينا فاستهنا به ، وكانت التوبة مدروكة لنا فاستخففنا بها . لم نكترث بالآخرة ولم نبال بالعقاب ، ولكن ماذا تفيدنا الندامة الآن ».

قال خادم : انى رأيت فى حياتى مجنوناً لا يتكلم إلا كلمة واحدة وهى « ياليتنى » فإذا تكلمت يحدق اليك بنظره حتى تظن أن مقلتيه كادتا أن تخرجا من وجهة وحينئذ يصرخ بصوت عظيم « ياليتنى . ياليتنى » فهذا المجنون كان قبل أن يجن حارس جسر فى الطريق الحديدية وكانت وظيفته أن يفتح الجسر لمرور المراكب و يغلقه لمرور مركبات البخار . ففى أحد الأيام أتت اليه برقية بأنه فيما بين الساعة كذا والساعة كذا سيمر على الجسر قطار يجر عدداً من المركبات فعليك أن تبقى الجسر مغلوقاً ولكن لم تحدد له اللحظة التى سيمر فيها القطار بالتمام . وكان هذا الحارس أميناً فى عمله مطيعاً لأوامر رؤسائه فأتى اليه كثير من أصحاب السفن يطلبون منه إن يفتح الجسر لتمر سفنهم فلم يجبهم الى طلبهم وأخيراً أتى اليه أحد أصحابه الذى كان ربانا لسفينة صغيرة وطلب اليه بالحاح شديد أن يفتح الجسر

لمرور سفينته فأستمع له وشرع بفتح الجسر و بينما هو يعمل ذلك إذا بصفير القطار قد دوى فاضطرب ولم يمكنه حينئذ أن يعمل شيئاً ما ، فلا هو بقادر أن يفتح الجسر لمرور السفينة ولا أن يقفله لمرور القطار والمركبات لأن الرعب أخذ منه مأخذاً ور بط يديه عن العمل وكان يصرخ قائلاً « ياليتنى . ياليتنى » ومن ثم كانت النتيجة أن سقطت جميع المركبات وتحطمت وهلك جميع من فيها . ومن ذلك الوقت أصيب ذلك المسكين بالجنون وكانت نهايته سيئة جداً .

ليت كل انسان تغر به الخطية على الاستمرار ولو لحظة واحدة من الزمان يعرف ذلك حتى لا يدع نفسه تصرخ بلا فائدة فى قاع الجحيم « ياليتنى . ياليتنى ».

الفصل السابع والعشرون
فى صعوبة العذاب الأبدى

«من منا يسكن فى نار آكلة ، من منا يسكن فى وقائد أبدية » (اش ٣٣ : ١٤)

لما أراد الله أن يظهر رحمته أظهرها بطريقة أذهلت الناس حتى أن كثيرين لم يصدقوها . هكذا إذا أراد أن يظهر عدله فسيظهره بطريقة تخفى على عقول الناس . فلا تتصوروا أن عذاب جهنم سينحصر فى الخسارة والعار والسجن والأسر والجلد والموت ، تلك الأمور التى لا نتحملها فى هذا العالم ولا نطيقها . لأن كل عذاب العالم اخترعه البشر لا يقاس بالعذاب الذى أعده الله للاشرار الهالكين . إن الثيران النحاسية اخترعها بارتس ، والكراسى الحديدية استنبطها ثكليس ، وأوجد المصريون نوع العذاب المر وهو نقب الأظافر بقصب محرف . واخترع نيرون تلبيس البشر جلود الوحوش والقاءهم الى الكلاب الكاسرة . واخترع مكنتيوش ربط الأحياء بجثث الموتى ليأكلهم الدود وهم أحياء . هذه كلها كانت آلات للتعذيب من اختراع البشر . وإذا كنا نعتبر ما يخترعه الانسان للتعذيب قاسياً ، فكم تكون قساوة تلك العذابات التى يعدها الله للاشرار إن أنواع العذاب الموجودة فى العالم لو اجتمعت كلها فوق رأس انسان تكون كنقطة صغيرة من بحر إذا ما قورنت بعذاب الآخرة .

قال الله على لسان حزقيال النبى «فلا تشفق عينى ولا أعفو بل أجلب عليك كطرقك ورجاساتك تكون فى وسطك فتعلمون انى أنا الرب الضارب » (حز ٧ : ٩) فما أعظم العذاب الذى سيحل بالخطاة لا سيما لأن الله أعده ليكفر بمعاقبتهم عما تناول مجده من الاهانة بسبب خطاياهم وإذا أردنا أن ندرك شدة عذاب جهنم فعلينا أن نتأمل فى باقى الكمالات الالهية . وكما أن عقولنا أقصر من

أن تدرك صفة واحدة من صفات الله فهى أيضا أضعف من أن تدرك كيف يعاقب الله الأشرار . إذا تجاسر رجل ولطم رجلاً فقيراً يكون عقابه خفيفاً . اما إذا لطم رجلاً شريفاً يكون عقابه أشد وأعظم . ولكن إذا اتصلت به الجسارة فلطم الملك فكم يكون انه سيريهم بشدة ذلك العقاب مقدار عظمة مجده وكم كان ينبغى أن يطيعوا أوامره .

أجل أن الأشرار حينما يطرحون فى جهنم يستحوذ عليهم العذاب و يتملكهم امتلاكاً لأن حواسهم وأعضاءهم وكل قوى نفوسهم الروحية تستولى عليها المرارة والألم والشقاء واللعنة . وكل عضو من أعضائهم يصيبه من الألم ما لا حد له . قال الرائى «فهو أيضاً سيشرب من خمر غضب الله المصبوب صرفاً فى كأس غضبه و يعذب بنار وكبريت أمام الملائكة والقديسين وأمام الخروف » (رؤ ١٤ : ١٠).

فالاعضاء التى كانت آلة فى يد الخطيئة تكون آلة فى يد العذاب ، وكل شهوة كانت تلذ لأى عضو من أعضاء الجسد تحل محلها نقمة وشدة تعذباته ، فحاسة النظر التى كانت أثمن حواس الانسان والتى كان يشتهى بها إن يتطلع الى كل جميل وبهيج ستبتلى بالظلام المدلهم « أرض ظلام مثل دجى ظل الموت و بلا ترتيب واشراقها كالدجى » (أى ١٠ : ٢٢).

قال القديس يوحنا ذهبى الفم «لأنه من شدة الظلام الحالك المستحوذ هناك لا يقدر المقيمون أن ينظروا شيئاً أو أن يتبينوا من فى جانبهم بل كل واحد يعاقب على حدة ، ولوقيل إن هناك ناراً ولهيباً فانه لا اشراق لها بالفعل بل الكائنون فيها يحترقون فى ظلام وهم لا يستنيرون ولا يخمد عنهم اللهيب » فيتم عليهم قول أيوب الصديق «يتلمسون فى الظلام وليس نور و يرنحهم مثل السكران » (أى ١٢ : ٢٥) إن الذين يحكم عليهم بالبقاء فى مكان مظلم ولوسنة واحدة يفضلون الموت على الحياة فكم بالحرى الذين يحكم ببقائهم الى الأبد فى ظلام دامس !

العيون التى طالما تطلعت الى الوجوه الحسنة ستنفجر منها هناك ينابيع دموع

دائمة لا تنضب . قال أحدهم : « ولكن النيران تحرق تلك الدموع فيكون الشرير باكياً ومحترقاً فى آن واحد » وقال آخر « إن الله يعطى الهالكين بين آن وآخر شيئاً من الضياء فى جهنم لكى يروا بواسطته صور الشياطين المخيفة وأشكالهم المرعبة وأدوات عذابهم المريعة ليزداد شقاؤهم وحزنهم وألمهم ».

وحاسة الشم التى كان يلذ لها أن تتنسم الروائح الزكية والطيوب النقية سيكون عذابها عظيماً لشدة ما تشتمه من النتانة المتصاعدة من جثث المعذبين وإذا كان التصاق انسان حى بجثة انسان ميت كافياً لهلاكه نظراً لشدة نتانة رائحته فماذا يعمل الخاطئ والروائح النتنة التى تصعد من جثث الهالين تحيط به من كل ناحية . « لو أخرجت جثة من جهنم لأفسدت رائحة المسكونة كلها ».

وماذا أقول عن عذاب اللسان الذى نرتكب به خطايا كثيرة كالكذب والوقيعة والمكر والسب والذى طالما أطلقناه يغنى و يطرب . إن الغنى بقوله « يا أبى ابراهيم ارحمنى وأرسل لعازر ليبل طرف اصبعه بماء و يبرد لسانى لأنى معذب فى هذا اللهيب » (لو١٦ : ٢٤) يصف لنا أن العضو الذى سيصيبه من العذاب أشده هو اللسان .

أولئك الذين تنعموا فى هذه الحياة بالغنى والمراتب ، أولئك الذين كانوا إذا طلبوا طعاماً أحضرت لهم المأكولات على اختلاف أنواعها شهية ودسمة . وإذا طلبوا شراباً قدمت لهم الأقداح المملوءة بما لذ وطاب ، تراهم حينئذ يلتمسون قليلاً من الخبز فلا يجدون و يتوسلون الى نقطة ماء بارد فلا يعطيهم أحد .

وحاسة اللمس التى بها نضرب غيرنا ونشهر الأسلحة على بعضنا ونسفك دماء الأبرياء ونوقع بها الصكوك المزورة سيكون عذابها شديداً بملامسة كل شئ جارح ومؤلم ومخيف .

وكذلك يتعذب الانسان فى قوة ذاكرته وفكره . ذلك الفكر الذى كان يطلق له العنان ليتأمل فى لذة الخطيئة سيتعذب هناك كلما تذكر الزمن الذى أضاعه ، والنعمة التى فقدها ، والنعيم الذى خسره .

وأخيراً يتعذب فى أنه لن يجاب الى طلب ما ، فإذا أراد الخروج فممنوع عليه وإذا طلب الراحة فلن يدركها وعليه أن يقضى هكذا فى العذاب الى أبد الآبدين . النار تحرقه والدود يلدغه . هناك ينوح و يتوجع وليس من يرحم . هناك الآلام المبرحة وليس من يشفق . هناك الحريق المعذب وليس من مرهم يخففه . العطش الشديد وليس من يرويه ، الجوع الكالب وليس من قوت يسده . الحزن العميق وليس من رقاد يسكنه . العار الفاضح وليس من نقاب يستره .

أسفاً على أولئك الذين أرخوا لأنفسهم هنا عنان الشرور والشهوات فانهم هناك يقيدون بقيود أبدية تحت الظلام (يه ٦) لقد قضى قديماً على مدينتى سدوم وعمورة والمدن التى حولها بالاحتراق بالنار والكبريت . ولكن الذين أحرقتهم النيران فى سدوم وعمورة ماتوا واستراحوا من العذاب ، والنار بالطبع انطفأت . ولكن ما أمر نار غضب القدير . فانها فى جهنم لا تطفأ على الدوام وأجساد الخطاة تتلظى بها الى الأبد . لما غضب الله على هيرودس الملك ضربه ملاك الرب بدود فصار يأكله الدود ومات (اع ١٢ : ٢٣) فإن كان الذى قضى عليه بأن يموت على هذه الحالة اعتبر موته هذا تعذيباً له فما بال الذين يأكل فيهم الدود الجهنمى ولا يموتون كما أن الدود نفسه لا يموت .

وفى المستقبل يقضى الله على العالم بضربات شديدة معينة من ضمنها ضربة جراد لداغ يعذب الناس وعذابه كعذاب العقرب إذا لدغ انساناً . ولحرارة لدغاته يطلب الناس الموت فيهرب الموت منهم ولا يجدونه . ثم ضربة خيول رؤوسها كرؤوس الأسود وتخرج من أفواهها ناراً وكبريتاً تعذب الناس بهما ولها أذناب تشبه الحيات ولها رؤوس وبها تضر (رؤ ٩ : ٣ــ ١٩) فإن كان عذاب الجراد الذى يلدغ بأذنابه الحادة وعذاب الخيول التى تحرق بما تخرجه من أفواهها من اللهيب ، يؤلم و يعذب حتى يحمل الناس على طلب الموت مع أن الموت عدو مخيف يخشاه الناس ويهربون منه فما بال عذاب اللهيب الذى لا يطفأ والدود الذى لا ينام .

إن الأطباء قد أعدوا لكل مرض دواء ولكن لا دواء لعذاب الجحيم وليته كان

هناك سبيل الى الموت فالعذاب متواصل ، والموت مستحيل . كثيرون كرهوا الحياة في الدنيا لأمراض أصابتهم أو لخسارة فادحة لحقت بهم فتخصلوا منها بالانتحار ولكن هناك لا خلاص من العذاب بأي حال من الأحوال . إن أعظم عذاب في هذه الأرض هو عذاب النار . فالموت احتراقاً من أعظم الميتات المرة . ولكن نار هذا العالم لا تذكر إذا ما قورنت بنار جهنم ، لأن نار هذا العالم تحرق الجسم وتلاشيه ثم تنطفئ وأما نار جهنم فانها تحرق الجسم ولكن لا تلاشيه ولا تنطفئ كما انها لا تقضي على شعور الخطاة واحساسهم بل يبقى الهالك متيقظاً منتبهاً لكل عذاب شاعراً به شعوراً تاماً . فلا تحرق نار جهنم العظام والقلب والأحشاء وترمدها ولكنها تؤلم الخاطئ وتعذبه ولكنها لا تميته .

إن نار هذا العالم تحرق الجسد دون النفس ولو أنها تعذبها لاتحادها بالجسد ولكن الله يعطي النار في جهنم فوق طبيعتها لتكون آلة انتقام أي أنه يسلطها على النفس فتعذبها عذاباً أشد لأنها هي العلة الأولى للخطية . قال قديس « إن نار هذه الأرض بالنسبة الى نار الجحيم برد وزمهرير ».

وقال أحد الأفاضل « لا تتصوروا أن نار جهنم هي مثل نار هذا العالم لأن هذه خلقت لمنفعتنا أما تلك فقد خلقت للتعذيب وهي أشد رعباً لثلاث صفات كميتها وكيفيتها وقوة فاعليتها . أما من جهة كميتها فكلما زاد الأتون عظم لهيبه ولا يستطيع انسان إن يصف مقدار اتساع جهنم الذي يجمع جميع الخطاة في كل زمان ومكان . ومن جهة كيفيتها فقد اخترع العلماء ناراً تشتعل في وسط المياه ولا تنطفئ . ولكن نار جهنم لم يصنعها البشر بل صنعها الله فلابد أن تكون شديدة للغاية . أما عن قوة فاعليتها فذلك واضح من أن جميع الخطاة سيكونون فيها وقد أغلقت عليهم أبواب الجحيم فيظل اللهب مرتفعاً ونازلاً وملتفاً بأجسام الهالكين من كل ناحية بشدة .

وفي تلك النار الشديدة الالتهاب يكون مسكن الهالكين الى أبد الآبدين و يكون كل من الأشرار مطروحاً في جوفها وهي لا تحرقه من الخارج فقط بل تدخل الى الداخل أيضا فتحرق عقله وتشتعل في أحشائه وتلتهب في أحعائه لتعذبه باطناً وخارجاً . قال الكتاب « تجعلهم مثل تنور نار في زمان حضورك . الرب

بسخطه يبتلعهم وتأكلهم النار » (مز ٢١ : ٩).

قال بولس الرسول « الذين سيعاقبون بهلاك أبدى من وجه الرب (٢ تس ١ : ٩) وقال ميخا النبى « من أجل نجاسة تهلك والهلاك شديد » (مى ٢ : ١٠) فلو وجه الانسان فكره لذلك العذاب الرهيب والعقاب الشديد اللذين قضى بهما على الأشرار لفزع قلبه وارتعدت فرائصه من هولها المريع ولصرخ قائلا « آها وحسرة من العذاب المقضى به على الخطاة الهالكين » .

إن بعض الخطاة يخدعون أنفسهم و يقولون « دعنا فلا نار ولا عذاب إنما هو كلام » واخرون ظنوه عذاباً فكرياً أو أنه مجرد البعد عن الله . وفى هذا قال القديس يوحنا ذهبى الفم « حقاً إن جهنم شر لا يطاق وعذابها مخيف ومرعب جداً غير أنه لو أرانى أحد ألف جهنم فلا أخاف منها ولا أرتعب كما أجزع وأرهب من فقد المجد الأبدى واستماع صوت السيد المسيح القائل لى بوجه غضوب « لا أعرفك » وتوبيخه اياى لأنى لم أطعمه فى حين احتياجه وجوعه ولم أسقه فى حين عطشه .

قيل إن سناسيوس الجليل كان عنده عبد وكان ذلك العبد رذلاً سكيراً مسرفاً فهرب من وجه سيده فكتب سيده الى أخيه رسالة يقول فيها « ياأخى لقد هرب من عندى من هو عبد قلباً وقالباً . ولذلك أرسلت اليك لتفتش عليه ، وإذا وجدته كتفه وقيده ولا ترسل الى بل الى بلدته ، لأن تلك المدينة التى ولدت الشر ينبغى إن تضمه . وإما من جهتى فلست أؤدبه لأن الرذيلة التى فيه كفؤ لتأديبه . ولا أجد له عذاباً أشد من الرذيلة المستحوذة عليه ولست أريد أن أقتص منه لأن الشر كاف ليقتص من الشرير » فإن كان الشرير لا يعتبر أن عذاب الفكر فى جهنم أشد من عذاب النار فما أجهله وإن وجد من لا يؤمن بهذه الحقيقة فلابد أن يكون فاسد الفكر ولا يريد أن يعتقد هذا الاعتقاد لكى لا ينغص عليه عيشه و يكدر صفوه . يروم الأشرار أن لا يكون وجود لجهنم النار وأن تبقى آثامهم بدون أن يتناولهم عليها تأديب أو قصاص . ليت شعرى كيف يتأتى لهؤلاء أن يتعاموا ويحاولوا اقناع أنفسهم بعدم وجود جهنم . فإن قالوا لا وجود لها فما هم إلا كذبة مملؤون سفاهة وضميرهم يكذبهم . قال القديس أوغسطينوس « انك تتجاسر وتتفوه بذلك لكنك

لا تتجاسر على الاعتقاد بصحة ما تقول لأن ضميرك يشهد لك بالخلاف . فعبثاً تروم محاولاً اخفاء نخس هذا الضمير فانه يعلمك دائماً بأن جهنم تتوعدك وأنت نفسك تظهر بأنك تستوجبها ».

لكن الواقع الذى لا ريب فيه أنه توجد نار للعذاب لأن الوحى قرر هكذا مراراً وعلى الأخص فى تصريح السيد المسيح له المجد إذ قال عنها انها نار ممتزجة بدود لداغ فدعكم من الظنون الباطلة فانه ولا شك عندما يرى الخطاة اضطرام اللهيب وزفير اللظى وهم مساقون ليطرحوا فيها تخفق قلوبهم ندامة و يستولى عليهم الرعب وعندما يتحققون انها نار مضطرمة يصرخون متحسر ين ومستجير ين ومستغيثين ومستنجدين .

أنه لا يجرأ على انكار حقيقة وجود جهنم إلا كل مكابر فاسد السيرة سقيم الرأى والعقيدة . وهب أنه لا توجد جهنم فعلاً وانه لا عقاب يكون للأشرار سوى طرحهم بعيداً عن الله فكفى بالبعد عن الله عذاباً وآلاماً . لأن الرسول يقول « لأن الخوف له عذاب » (١ يو ٤ : ١٨ ورؤ ١٨ : ١٠) وإذا قيل أليس الله رحوماً فلماذا هذا القصاص المريع الذى لا يطاق ! فأجيب أن الاثمة لم يكتفوا بأنهم اضجروا الناس بل أضجروا الله أيضا (اش ٧ : ١٣) وأغاظوه وأهانوه بل أثاروا غضبه فمن ثم استحقوا دينونة عادلة لا ظلم فيها ولا جور .

نعم ما أهول الشقاء الذى توعد به الله غير التائبين (اش ١ : ٤ ، مت ١١ : ٢٠) سيكون عذابهم عظيماً ولا تكون له نهاية . قال أحد الأفاضل . « إن جهنم بلية شديدة حتى أنه لو فرض أنه سيحكم على انسان واحد فقط من بنى البشر كافة بالعذاب فيها لكان يلزم كل منا أن يخاف من أن يكون هو ذلك الشقى المنكود الحظ » ولا يستطيع العقل البشرى أن يتصور مقدار شناعة حالة الهالكين فإن دوى صراخهم يشق الصخور الصلدة وأوجاعهم كاوية مرة حتى أن ساعة واحدة فى هذا العذاب لأشد هولاً من وقوع الانسان بين مخالب المرض القاسى سنين طويلة فى الحياة .

هذا هو مدفن لذات العالم وهذا هو حد الشهوة والطمع فما أصعب وما أمر عذاب تلك الأجسام التى تعامل فى الحياة بكل لطف وتتنعم مترهفة فإن كنت تخاف من بلايا هذه الحياة التى لا تدوم سوى مدة وجيزة فلم لا ترتعب من بلايا أشد وأصعب مكتوب لها بالدوام . إن كنت تتألم هنا من لدغ نحلة فكيف تتحمل هناك تلك النار المفترسة ؟ لما أحضر نبوخذنصر علماء الكدانيين لأجل تفسير حلمه وضع لهم هذا الشرط المحدد بوعد ووعيد وهو إن بينتم الحلم وتعبيره تنالون من قبلى هدايا وحلاوين واكراماً عظيماً وإن لم تبينوا الحلم وتعبيره فقضاؤكم واحد تصيرون اربأ اربأ وتجعل بيوتكم مزبلة (دا ٢ : ٥ و ٩) وهكذا السيد المسيح قد حدد شرطاً للخلاص من العذاب الأبدى بوعد ووعيد . فقال فى وعده « فكن غيوراً وتب هأنذا واقف على الباب واقرع . إن سمع أحد صوتى وفتح الباب ادخل اليه وأتعشى معه وهو معى » (رؤ ٣ : ١٩ و ٢٠) ثم قال فى توعده « وأعطيتها زماناً لكى تتوب عن زناها ولم تتب . ها أنا ألقيها فى فراش والذين يزنون معها فى ضيقة عظيمة إن كانوا لا يتوبون عن أعمالهم . وأولادها أقتلهم بالموت فستعرف جميع الكنائس انى أنا هو الفاحص الكلى والقلوب وسأعطى كل واحد منكم بحسب أعماله » (رؤ ٢ : ٢١ ــ ٢٣) .

وهكذا جاءت وعود وتوعدات لقضائه عدلاً . فقال « إن شئتم وسمعتم تأكلون خير الأرض وإن أبيتم وتمردتم تؤكلون بالسيف لأن فم الرب تكلم » (اش ١ : ١٩ و ٢٠) وقال أيضا « قولوا للصديق خير . لأنهم يأكلون ثمر أفعالهم . ويل للشرير شر . لأن مجازاة يديه تعمل به » (اش ٣ : ١٠ و ١١).

الفصل الثامن والعشرون
فى الأبدية المخيفة

« و يصعد دخان عذابهم الى أبد الأبدين ولا تكون راحة نهاراً وليلاً » (رؤ ١٤ : ١١)

بيننا فى الفصل السابق «صعوبة العذاب الأبدى » وأوضحنا كذلك أنه فوق طاقة الانسان ، ونقول هنا انه لو كان ذلك العذاب الى أوقات معينة ولو ملايين السنين لما بكت العيون ولا انهمرت العبرات من الجفون ولكانت عاقبة ارتكاب الشر من أهون الأمور . ولكن ما يولد الخوف والاضطراب ويملأ القلب جزعاً وفزعاً هو أن ذلك العذاب لا حد ولا نهاية له ، وتلك الأبدية لا قرار لها .

إن أبدية الخطاة ظلام دامس دائم لا يضئ فيه نور الشمس أبداً . وأفق عذابهم لا يلمح فيه برق على الدوام . وكل ساعة يقضونها فى جهنم المظلمة يخالونها ألوفاً من السنين . هذا هو الذى يجعل العذاب على ما هو عليه من الهول والشدة .

لقد مضى على قايين أكثر من خمسة آلاف سنة وهو يتعذب فى الجحيم ومع ذلك لم يتقدم ولم يخط خطوة واحدة فى أبديته بل كأن هذا اليوم هو اليوم الأول من دخوله فيها . ولقد مر أكثر من ألف وتسعمائة سنة وذلك الغنى الشرير يئن و يتنهد ولم تستطع دموعه السخينة أن تسكن عذابه دقيقة واحدة .

ولقد ضرب أحدهم مثلاً على دوام الأبدية فقال : « لو كان أحد الهالكين فى جهنم يقطر من عينيه كل مائة سنة دمعة واحدة وتحفظ دموعه كلها ليتكون منها بحر عجاج فترى كم من آلاف الدهور وربوات السنين تمر ولا يتكون من دموعه بحر بل ولا مجرى ماء صغير ، ولو فرضنا إن تكون الأبدية حينئذ قد بلغت نهايتها ؟ كلا بل

تكون كأنها فى دور الابتداء ، ولوتكررت عملية استجماع دموعه آلاف المرات وتكونت منها بحور أخرى فى ربوات أضعاف الدهور التى تكون فيها البحر الأول فلا تكون الأبدية قد قاربت من الانتهاء بل لا تكون إلا فى بدايتها فقط ».

وقال أخر « وما معنى قول الكتاب الى أبد الآبدين » هل معناه أن الخطاة يتعذبون مدة تساوى المدة التى فيها يستطيع عصفور أن يجفف جميع مياه البحار إذا أتى كل سنة مرة واحدة وشرب نقطة واحدة لا غير ؟ هل معناه انهم يتعذبون زمناً يقدر بالزمن الذى تتمكن فيه دودة صغيرة من أن تفنى كل أشجار الأرض إذا قرضت كل سنة قرضة واحدة فقط ! هل معناه أنهم يتعذبون دهوراً تقدر بالدهور التى تتمكن فيها نملة من الطواف بالأرض بأسرها إذا مشيت كل سنة شبراً واحداً فقط ! لا بل هم يتعذبون الى أمد أطول من ذلك بكثير جداً . حتى لوفرض إن العالم كله مملوء بالرمل ونقلت منه كل مائة سنة ذرة واحدة لأنتهى ما فى العالم من رمل ولما انتهت الأبدية .

يقدر البروفسور « دانا » العالم الجيولوجى إن العصر الذى وجدت فيه آثار الحياة بدأ على الأقل منذ ١٦ مليون سنة مضت وإن العصر العظيم المسمى بعصر الظلام الذى وجد قبل ذلك لابد انه يرجع الى أمد أبعد من ذلك بمراحل كثيرة منذ أن أوجد الله الكرة الأرضية ، ومع ذلك فلوقضى الخاطئ مثل هذه المدة فى الأبدية لكان لا يزال فى أولها فقط ، وقد قدرت المسافة الشاسعة التى تفصل أبعد كوكب يمكن للمرء أن يراه بأقوى منظار فى الأرض باثنين ونصف كوادرليون ميل ، ومع ذلك فإن هذا النجم البعيد ليس هو نهاية الفضاء وهو مستمر فى الدوران بلا نهاية ، هكذا الأبدية فانها تشبه محيطاً زاخراً لا حدود له . والشقى يكون فيه دائم الدوران .

كل ذلك لأن النفس غير قابلة للفناء فلا يقدر القاتل على ملاشاتها ولا السكير على اغراقها ولا محب العالم على دفنها بالمال فهى اعجب وأبقى من كل العوالم السابحة فى الفضاء الذى لا نهاية له فيتحول القمر الى دم وتحترق الأرض بنار وتنطوى السموات كدرج وتنتهى كل هذه المشاهد العظمى . النفس البارة تبقى فى النعيم دائمة الخلود والنفس الخاطئة تبقى فى العذاب الى الأبد .

على هذا الحال يقيم أولئك الأشقياء فى وسط هذه النار الآكلة والعذاب المؤبد الى مالا نهاية . ليست جميع البشر يتأملون فى ذلك ولودقائق قليلة فانهم لوعرفوا ذلك جيداً لأصلحوا سيرتهم وتغيرت حالتهم .

أيها الأشرار اشفقوا على أنفسكم . تصوروا ذلك العذاب الأبدى وذلك الالتهاب الدائم ، وان كان لا يستطيع أحد منا أن يتحمل وضع شظية من النار على أى عضو من أعضاء جسمه ولو لمدة دقيقة واحد ولا يطيق صبراً على تحمل مرض أو ألم يحل به فيسارع باستدعاء الاطباء لاغاثته ، فما بالنا لا نجزع إذا ما تصورنا آلام الجسد وعذاباتها التى تتناول الجسد والنفس معاً ؟ إن ليلة واحدة تمر علينا فى الحمى أوفى ملاطمة أمواج البحر ونحن بين الحياة والموت تظهر لنا طويلة جداً . فالشمس تظهر للمتألم كأنها نسيت دورانها وكأن كل شرائع الطبيعة قد انقلبت . فإذاً ماذا تكون حال أولئك الأشقياء الساقطين فى هاوية الغضب الالهى بعدما يقضون أجيالاً ودهوراً لا عد لها لا يمكنهم إلا أن يعترفوا قائلين « إن هذه كلها ليست إلا دقيقة واحدة من دقائق شقائنا وسنبقى فى مثل عذاب هذه الأجيال الطويلة بعيدين عن السعادة السموية معذبين بعذاب اللهيب الآكل وتوبيخ الضمير المؤلم ونزيد خطايانا بكثرة تجديفنا على الله ونبقى فى اللعنة الى الأبد والى أبد الآبدين ».

بقدر ما تطعم النار مواداً ووقوداً هكذا يستمر التهابها ، والمادة التى تشتعل بها نيران جهنم هى الخطية وكما أن الخطية لا تزول عن أهل المعاصى لأنهم هبطوا بها الى النيران فستظل النيران مستعرة تعذبهم ليلاً ونهاراً بلا انتهاء ، وكما أن حشائش الأرض بعد أن تأكلها الحيوانات تنبت ثانية ، كذلك الخطاة تأكل فيهم نار جهنم فى كل وقت ولكنها لا تفنيهم .

قيل إن أحد الاسبانيين الشرفاء المدعو يداكس لما أن أبلغ فى احدى الليالى وهو فى سجنه بالحكم عليه بالاعدام شاب شعره فى تلك الليلة ولم يكن قد تجاوز العشرين من العمر ولاح كأنه قد تجاوز الستين . فإن كان يمكن أن يقال عن تلك الليلة ما أطولها على ذلك التعس وما أشد هولها حتى جعلت شبابه يتحول الى شيب

فماذا يقال عن ليلة جهنم التى ليس لطولها نهاية والتى تشيب الهالك فى كل لحظة بأهوالها . وفى الوقت نفسه تستبقيه وسط النيران شاباً يتعذب ولا ينصهر . و يرعى فى جسمه الدود لادغاً منه آكلاً ولكنه لا يفنى ولا يضمحل .

أيها الخاطئ . انك تتمنى أن يطول عمرك فى هذه الحياة كما طال عمر متوشالح ليكون لك من التمتع بالملذات القسط الأوفر . ولكن هناك فى الجحيم ستطلب الموت فلا تجده . اصغ الى صوت أبيمالك يصرخ من أعماق الجحيم قائلاً أين السيف الذى قتلت به نفسى فتخلصت من العار الذى كنت أخشى أن يلحق بى فى الحياة لأهلك به نفسى هنا (قض ٩ : ٥٤) و يقول زمرى أين النار التى أحرقت بها نفسى لأموت بها ثانية (١ مل ١٦ : ١٨) و يقول اخيتوفل أين الحبل الذى خنقت به نفسى لأعيد الكرة عليها (٢ صم ١٧ : ٢٣) وهناك سيدفن الأشرار أنفسهم فى أشد أنواع العذاب دفناً لعله يقضى على حياتهم ولكنهم لا يجدون الى ذلك سبيلاً .

يالـه من ملل عظيم يستحوذ على الخطاة . وإذا كان الأشرار هنا كثيراً ما يملون من لذاتهم فكم بالحري يكون ملل المعذبين من عذابهم ؟ قال القديس أوغسطينوس « يالـه من جنون عظيم وهو انك تخاف من أن تتوب لئلا تقضى الحياة القصيرة معارضاً لشهواتك ولا تخاف من أبدية النيران . فإن كنت تحترس احتراساً عظيماً من الموت . ومن مرض لا يدوم سوى زماناً يسيراً فلم لا تحترس لكى تجتنب موتاً وعذاباً يبقيان ».

فإن كنت تخاف وتكتئب إذا مكثت بين أجساد الموتى بغير مصباح فكيف تحتمل أن تمكث دائماً فى القتام والظلام المدلهم بين جملة الهالكين حيث لا ترى نوراً ولا شمساً ولا قمراً ولا نجوماً . وإن كنت لا تحتمل مشاهدة شيطان واحد فكيف تستطيع أن تعاين جماهير الأرواح الشيطانية الكثيرة العدد المختلفة الأشكال والهيئات المزعجة المخيفة ؟ وإن كنت لا تحتمل أن تبقى اصبعك دقيقة فى النار فكيف تحتمل أن تكون ملقى بجملتك طريحاً الى الأبد فى هوة جهنم التى لا يحتمل سعيرها ؟ وإن كانت نازلة من النوازل الهينة أو مصيبة من المصائب البسيطة تجعلك تمقت هذه الحياة فكيف يمكنك أن تصبر على تلك الشدائد والأمراض المتباينة التى

تعذبك وتمتلك جسمك ، والتى لا ينفع فيها دواء ولا طبيب ؟

قال أحد الوعاظ فى عظة له عن « الأبدية ». أيها الأخوة : ما أهول هذه الكلمة ولو فى هذه الحياة الدنيا وما أشد البلية التى لا نجاة منها وما أصعب سمع كلمة الأبدية فى حال العذاب الأليم . فقيود أهل النار أبدية ، وسلاسلهم أبدية ، وسجنهم أبدى ، وكل اذلال وتعيير وعذاب دائم الى الأبد .

أيها البشر الأشقياء ما أجهلكم ألا تعلمون أن الحياة ليست إلا أسرع من الوشيعة (أى ٧ : ٦) وانها تزول كسنة فهى ليست أبدية ؟ إن الأبدية أيها الغافلون لا نهاية لها فهى مما لا تدركه عقول المخلوقات ولا نهاية لأبدية الهالكين .

اننى أكاد أعيا وأسقط تحت ثقل هذا الموضوع وانى حين أرى نفسى وأصحابى وأقربائى وشعب رعيتى وكل هذا الجمع وأفكر فى اننا كلنا مهددون بذلك العذاب العظيم وأرى أننا مستخفون بالمقاصد الروحية ، أشعر بأن سماً قاتلاً قد توزع فى أزمنة حياتى وجعل الفة أصدقائى نفوراً ولذة الطعام ألماً وأفراح الحياة أحزاناً والحياة نفسها مرة ولا أتعجب حينئذ لما أسمع أن الخوف من جهنم جعل البعض عابسين وغيرهم مجانين ، وهذا الخوف قد حمل البعض على أن يهربوا من مخالطة كل بشر وجعل غيرهم يحتملون أشد الآلام الجسدية .

فاحذروا أيها الاحباء واعلموا أن ليس لكم فرصة للخلاص من ذلك العذاب العظيم إلا فى هذه الحياة القصيرة . أما بعدها فلن تلقى عليكم خطب ولا عظات ولن يكون هنالك محل لقبول التوبة ولو كانت بالدموع والتنهدات ففكروا فى قصر الحياة وفى أنكم ربما تفارقونها بعد سنة واحدة أو شهر واحد أو يوم واحد أو ساعة واحدة أو دقيقة واحدة واعملوا حالاً للخلاص من ذلك الشقاء الأبدى . تأملوا وانظروا فى شفقة الله عليكم ومحبته لكم فانه يحثكم و يسألكم بكل لين ورفق أن تهربوا من تلك الأهوال قائلاً : ليت شعبى يصغى الى . فتعلموا أيها الناس لئلا تفارقكم نفسى فلماذا تموتون يابيت اسرائيل (مز ٨١ : ٨ ، ار ٦ : ٨ ، حز ١٨ : ٤١) .

قال الكتاب « و يصعد دخان عذابهم الى أبد الآبدين ولا تكون راحة نهاراً ولا ليلاً » فالمر يض مهما ثقل مرضه قد يرتاح وقتاً ما وأما هناك فلا راحة مطلقاً . ما أطول الليل على العليل ولكنه عندما يرى انبثاق الفجر يستر يح ، أما ليل جهنم فلا فجر له بل هو ليل لا نهاية له بالمرة .

فلنترك القساوة ولنرجع الى عقولنا . إن كثير ين قد يتفوهون بجسارة و يقولون انهم مستعدون للذهاب الى جهنم وأنهم عالمون أن مثواهم النار وأن ذلك لا يهمهم ولا يرعبهم فهؤلاء أشبه باللصوص وقطاع الطرق والقتلة الذين يتظاهرون بأنهم لا يخشون الاحكام فيقولون « السجن للأبطال الموت للرجال » ولكن إذا قبض عليهم وأودعوا السجن أو حكم عليهم بالاعدام فانهم يقضون الأيام والليالى يتقلبون على أحر من الجمر فى الندامة والتحسر . وهكذا الخطاة فى الدنيا فانهم لا يبالون بالعقاب ولكن لما يأتى وقت القضاء يقولون « آهاً » (اش ٣٣ : ١٤ ، لو١٦ : ٣١).

وكما أن عذاب الأشرار فى جهنم لا ينتهى فهو أيضا لا يتغير ولا تخف حدته بل كما يكون فى بدئه هكذا يكون الى الأبد فالنار هى هى لا تتغير . والدود هو هو لا يموت . ولعمرى إن هذا الأمر يملأ قلوب الخطاة خوفاً ورعباً لا سيما حينما يعلمون إن عذابهم لا مفر منه ولا علاج له ولا مخفف لشدته .

يعترض البعض قائلاً « كيف يوافق عدل الله أن يقضى على الانسان بالعذاب الأبدى مقابل خطية صغيرة ارتكبها فى زمن وجيز » فنجيب بأن الله رحيم حقاً ولكنه غيور على القداسة فالذى يموت بخطيتة لا يمكن أن يخلص منها فى الجحيم و بالتالى لا يتجاوز الله عن عقابه لأجلها باعتبار أنها ضد صفته الكاملة « القداسة » وهوذا اشعياء النبى يصرخ قائلاً « ها ان يد الرب لم تقصر عن ان تخلص ولم تثقل أذنه عن إن تسمع بل آثامكم صارت فاصلة بينكم و بين الهكم وخطاياكم سترت وجهه عنكم حتى لا يسمع » (اش ٥٩ : ١ و ٢) قال أحدهم « إن الله لا ينظر الى الأفعال بل الى النية فبعدل يحق له أن لا ينهى عقاب جميع الذين كان فى نيتهم أن لا ينتهوا عن فعل الخطية فى جميع أيام حياتهم وألا يجعل

حداً لعذاب الذين لم يجعلوا حداً لخطيتهم . نعم إن ارتكاب الخطية كان قصيراً منتهياً إلا إن حب الخطية كان دائماً غير متناه لأن الخاطئ كان يتمنى أن يحيا بلا انتهاء ليخطئ بغير انتهاء ، وقال القديس أوغسطينوس « انه بكل وجه من الحق تتعذب النية الشريرة ولو لم يلحقها الفعل الشرير فينتج إذاً أنه إن مات الانسان في خطية يكون راغباً في فعلها الى الأبد لو اتفق له أن يحيا الى الأبد فإن الله يعذبه الى الأبد ».

وقال العلامة ترتوليانوس « إن الله يحتمل في هذا الزمان آثام الناس بطول أناة لأن الأبدية بتمامها في قبضة يده فيقاصصهم بها . صبور لأنه أبدي . على انه تعالى إذا ما صبر فانه بصبر كاله وإذا ما عاقب في الجحيم فانه أيضا يعاقب كاله » وعلى هذا المنوال يستحق الخاطئ الخلود في العذاب لأن عظم الذلة إنما يقاس بحسب عظمة قدر من صدرت في حقه . والحال أن المجد الالهي غير متناه . والخطية هي ذلة صادرة ضد الجلال الالهي فهي غير متناهية ، و بالتالي تستحق أن تعاقب عقاباً غير متناه .

قال أحدهم تحت عنوان « الى أين ! الى أين !» مات في القرن الثامن عشر أحد الشيوخ في أمر يكا وترك لابنه وصية تتضمن هذه الكلمات : « أذكر أنه توجد أبدية طويلة » فحفظ هذه الوصية جميع أفراد عائلته وأثمرت ثمراً حسناً في تحسين سيرتهم . وقال أحد السياح « دخلت منزلاً فرأيت في أحدى غرفه ورقه مكتوباً عليها هذه الكلمات « يارجل أعرف هذه الأشياء . الله والدقيقة والأبدية » وقال رتشرد بكستر إن أحد معاصريه القسوس جعل محور وعظه طول حياته عن الأبدية . فزار مرة امرأة مشرفة على الموت وحالماً دنا منها صرخت « ادع الوقت ليرجع ــ ادع الوقت ليرجع » فأجابها عبثاً ما تبتغين فإن رجوع الوقت مستحيل كتقصير الأبدية .

اسأل نفسك أيها الانسان « الى أين أنا ذاهب ؟ الى أين أيتها الأوراق المتساقطة ؟ لا أعلم . الى أين أيتها الريح ؟ لا أعلم . الى أين أيتها الأمواج المزبدة . لا أعلم ، لكن الانسان ليس ورقاً ولا ريحاً ولا أمواجاً ولا شيئاً من مثل

هذه يجيب « لا أعلم » بل عليه أن يعلم أنه منطلق اما الى سعادة ابدية او الى شقاء أبدى .

« الى أين ؟ » قال أحدهم وهو على فراش الموت وكان ممن لم يبالوا بهذا السؤال طول مدة حياتهم « أرى ظلمة دامسة محدقة بى من كل ناحية » وقال آخر ممن كانوا على شاكلته فى مثل حالته « اننى خائف جداً » وقال آخر وهو على حافة الأبدية « أنا مائت ولا أعلم الى أين أنا ذاهب ، فيالها من ساعات مخيفة حينما يبلغ الانسان الدقيقة الأخيرة من الحياة و يرى أن الفرص الثمينة قد انتهت وإن الظلام الأبدى قد أقبل وإن أنوار الرجاء قد انطفأت .

فليتنبه الخاطئ من غفلته وليفتح عينيه وليهتم بما هو قادر عليه الآن فيداوى ما لا يقدر على مداواته فيما بعد . إن الزمان الحاضر مناسب ومقبول . الآن فى دقيقة واحدة يمكننا أن نكسب ما لا يمكن أن نكسبه فى الأبدية كلها .

الفصل التاسع والعشرون
فى سعادة الأبرار ومجد القديسين

« ما لم ترعين ولم تسمع أذن ولم يخطر على بال انسان ما أعده الله للذين يحبونه » (١ كو ٢ : ٩)

قال الله لملاك كنيسة سميرنا « كن أميناً الى الموت فسأعطيك اكليل الحياة » (رؤ ٢ : ١٠) وهذا الوعد هو لكل انسان . فمن كان أميناً فى محبة المسيح وخدمته وعهوده الى الموت فسينال منه اكليل الحياة ويحظى بالشركة معه فى الميراث السماوى والأمجاد الأبدية . وعلى ذلك فالجهاد والآلام هى طريق الوصول الى الأمجاد وكذلك احتمال الضيقات والأمانة الى الموت فانها سبيل التمتع بنوال اكليل الظفر ، فالمسيحى الأمين متى فارق هذه الحياة يلاقى ربه باسم الثغر وضاح الجبين ، و يكون كالجندى الباسل الأمين عندما يعود من ساحة الحرب منتصراً لينال جزاء جهاده وأمانته . إن يوسف حصل على خاتم الشركة والسلطان بعد خروجه من السجن ، و بولس يقول « جاهدت الجهاد الحسن .. وأخيراً وضع لى اكليل البر ».

فلا تضجر أيها المؤمن إذا أصابتك البلايا وتراكمت عليك المخاوف والأحزان بل اثبت على ما تعلمت وأيقنت لكى تتمجد فى السماء بالأمجاد التى يعجز اللسان عن وصفها . تلك الأمجاد التى لما عاينها بولس الرسول لم يقدر أن يتكلم عنها ولم يجد فى قواميس اللغة ألفاظاً تساعده على وصفها فاكتفى بقوله « ما لم ترعين ولم تسمع أذن ولم يخطر على بال انسان ما أعده الله للذين يحبونه ».

ولعمرى أنه كفى بالقديسين أن يتمتعوا بالوجود فى حضرة الله فهذا هو منتهى الفخر والمجد والسعادة التى تفوق كل سعادة . والغنى الذى هو أعظم من كل غنى

العالم ، ولا ريب أنه ما من كنز يضاهي هذا الكنز ولا امتلاك اعظم من هذا الامتلاك ، أي امتلاك الانسان لله سبحانه وتعالى . أية وراثة أكثر قيمة من ملك السموات والأرض . وأيما ذهب أغلى من خالق الذهب وهو يقدم لنا كل غنى لنمتلكه .

وفي ذلك يقول المرتل « يروون من دسم بيتك ومن نهر نعمتك تسقيهم لأن عندك ينبوع الحياة . بنورك نرى نوراً ».

اننا هنا لا نرى الاله الذي خلقنا وافتدانا والذي يحيطنا دائماً بالحسنات و يقدم لنا فيض نعمته لنمتلكها ولكننا هناك سنراه كما هو بل ونجلس معه ونشابهه في جسد مجده قال بطرس الرسول « الذي وإن لم تروه تحبونه » (١ بط ١ : ٨) فما أعظم الفرح الذي يملأ المؤمن عندما يشاهد رب البرايا يحتفي به و يضمه الى صدره بمحبة وحنان . ومن هو الانسان الذي يكون موضع اهتمام مبدع الوجود وخالق الكائنات ؟ وأي سرور أعظم من سرور النفس التي تتمتع بجمال الخالق وبجميع كمالاته ؟ وإذا كان يعقوب لبث يخدم لابان مدة أربع عشر سنة لأجل جمال راحيل . فأية خدمة يجب أن نقدمها لله تعالى لكي يكون لنا حق التمتع بجمال من هو أبرع جمالاً من البشر ، ولهذا يقول داود « أما أنا فبالبر أنظر وجهك . أشبع إذا استيقظت بشبهك » (مز ١٧ : ١٥).

هناك يتمتع المؤمنون بخيرات لا عد لها وأفراحهم لا تحصى . فليبتهج إذاً المؤمنون المدعوون الى هذه الخيرات العظيمة و يتهللوا لأن الله تعالى قد خلق السماء لأجلهم ولتتعز قلوبهم ولتتقو برجاء هذه الأفراح الأبدية .

أيها المؤمنون . يامن التحفتم بالضيق وتسربلتم بالتجارب ابتهجوا الآن « لأن الله ليس بظالم حتى ينسى تعبكم وعمل محبتكم » انكم ستنالون جزاء أمانتكم وجهادكم وأعمالكم الصالحة ، وها الكتاب يبشركم « قولوا للصديق خير . لأنهم يأكلون ثمر أفعالهم ».

أجل «إن عيشة الصديقين في هذا العالم مملوءة من الأحزان والمشقات والأنين

والاتعاب . ولكن ايمانهم بأن سيدهم سيجازيهم على أتعابهم ويخفف أحزانهم . فلولا رجاء السماء لكانوا أشقى جميع الناس (١ كو١٥ : ١٩) إن عزاء رجال الله المتضايقين فى هذا العالم هو أنهم سيحظون بالأفراح العظيمة فى أورشليم الجديدة حيث عريسهم الرب يسوع المسيح .

قد نجد رجال الله فى هذا العالم فقراء ومزدرى بهم بينما نجد الكثيرين من الأشرار أغنياء وأصحاب جاه . ولكن غنى هذه الأرض لا يعتد به ولا قيمة له وإنما الغنى الحقيقى هو فى المسيح الذى اشترانا بدمه . ومن كان المسيح نصيبه فهو حائز على جميع الأمجاد والمقتنيات الفضلى والسعادة العظمى والهناء والسرور . فأغنياء هذا العالم الأشرار يحل بهم الفقر المدقع فى العالم الآتى ، أما المؤمنون فانهم يعنون اسماً عظيماً ومجداً (رؤ ٢ : ١٧) « هناك يكف المنافقون عن الشغب وهناك يستريح المتعبون . الأسرى يطمئنون جميعاً ، لا يسمعون صوت المسخر » (أى ٣ : ١٧ و ١٨).

هذا ما جعل الرسول بولس يهتف قائلاً « لأن لى الحياة هى المسيح والموت هو ربح .. لى اشتهاء إن انطلق وأكون مع المسيح . ذاك أفضل جداً » (فى ١ : ٢١ و ٢٣) وكما أن أحسن ما يبتغيه الابن هو أن يكون فى بيت أبيه حاصلاً على كل احتياجاته فإن أفضل شئ وأكمل نصيب للمؤمنين هو أن يكونوا فى بيت الأب الحنون نائلين الاجتماع الذى لا يعقبه فراق فى بيته السماوى ، فى ذلك المكان الذى ذهب اليه وأعده لهم المسيح ليأخذهم اليه فيتمتعون بلقاء الحبيب ويحظون بفرح ذاك العرس المجيد . إذ تجتمع العروس بعريسها المحبوب يسوع مخلصنا وتشترك فى القداسة الالهية فى السماء ، لابسة ثياب المجد والبهاء ، حاصلة على الجمال العجيب لأنها اكتسبت الجمال والكمال من حبيبها يسوع . ذاك الذى حلقه حلاوة وكله مشتهيات وهو مشتهى كل الأمم . وهذا ما كان يتمناه داود ويتوق للحصول عليه بقوله « واحدة سألت من الرب وإياها ألتمس . أن أسكن فى بيت الرب كل أيام حياتى لكى أنظر الى جمال الرب وأتفرس فى هيكله » (مز ٢٧ : ٤).

فما أعظم السرور الذى يشمل المؤمنين إذ ذاك عندما يرون أن أتعابهم قد انقضت وانهم انتصروا على أعدائهم وفازوا بالخلاص الأبدى . إن كان موسى الكليم و بنو اسرائيل هتفوا مسبحين ورنمت مريم النبية مع نسائهم بنغمات شجية وألحان مطربة على دفوفهن راقصات فى احتفال عظيم عندما نجوا من فرعون وجيشه وعبروا البحر على الأقدام كأنه أرض يابسة و وصلوا الى شاطئه بسلام . نعم إن كانوا فى لحظة نسوا كل عبودية مصر المرة ومشقاتها الصعبة التي تكبدوها مدة سنين عديدة وفرحوا فرحاً هذا مقداره مع أنهم لم يكونوا قد تمتعوا بعد بأرض الموعد بل أتوا الى برية مقفرة (خر ١٥ : ١ ــ ٢١) أفما نبتهج نحن بالأولى ونفرح عندما نعبر بحار مصائب العالم ونتخلص من كل تجاربه المرة وننتهى من ديار نحيبه ومن محاربات الأعداء المقاومين لنا فيه . كيف لا نبتهج عندما نصل الى فردوس النعيم حيث ننسى كل ما قاسيناه فى هذا العالم من أتعاب شديدة وأحزان عديدة ونكون سابحين فى بحار أفراح لا يعرف قرارها كأننا محمولون على أفلاك السماء على أجنحة حمامة مغشاة بفضة وريشها بصفرة الذهب فنرنم ترانيم النصرة وترنيمة موسى والخروف قائلين « عظيمة وعجيبة هى أعمالك أيها الرب الاله القادر على كل شئ . عادلة وحق هى طرقك ياملك القديسين . من لا يخافك يارب ويمجد اسمك لأنك وحدك قدوس لأن جميع الأمم سيأتون و يسجدون أمامك لأن أحكامك قد أظهرت (رؤ ١٥ : ٣ و ٤) ثم نشترك مع الذين قالوا « مستحق هو الخروف المذبوح أن يأخذ القدرة والغنى والحكمة والقوة والكرامة والمجد والبركة ، وكل خليقة مما فى السماء وعلى الارض وتحت الأرض وما على البحر كل ما فيها سمعتها قائلة للجالس على العرش وللخروف البركة والكرامة والمجد والسلطان الى أبد الآبدين » (رؤ ٥ : ١٢ و ١٣) ولا سيما حينما « نكون كل حين مع الرب » (١ تس ٤ : ١٧).

إن موسى لما عاين لمحة صغيرة من وراء مجد الرب تلألأ وجهه بالنور حتى لم يستطع بنو اسرائيل أن يروا وجهه فكان يغطيه ببرقع (خر ٣٣ : ١٨ ــ ٢٣) وكذلك بطرس و يعقوب و يوحنا عندما تجلى المسيح لهم ذهلوا لمجد ذلك النور العجيب وفضلوا البقاء فى الجبل (مر ٩ : ٢ ــ ٥) فما بالنا نحن الذين سنكون على هيئة من النور تضاهى هيئة المسيح نفسه وسنراه كما هو « لأنه سيغير شكل جسد تواضعنا

ليكون على صورة جسد مجده » (فى ٣ : ٢١) وقال الرسول «متى ظهر المسيح حياتنا فحينئذ تظهرون أنتم أيضاً معه فى المجد » (كو ٣ : ٤) « إذا أظهر نكون مثله لأننا سنراه كما هو » (١ يو ٣ : ٢) « ونحن جميعاً ناظرين مجد الرب بوجه مكشوف كما فى مرآة نتغير الى تلك الصورة عينها من مجد الى مجد كما من الرب الروح » (٢ كو ٣ : ١٨).

فتصور أيها المؤمن أسمى الأفراح وأبهج المسرات واعتقد أنك ستعطى أكثر منها. قيل إن الاسكندر الكبير لما التمس منه فور يلس أحد ندمائه مساعدة لتجهيز احدى كريماته أمر له بخمسين وزنة. فاستطعم النديم الهدية وعرض على الملك أن يكتفى بعشرة وزنات فقط فأجابه الملك «إن كانت عشر وزنات تكفيك أنت احساناً فلا تكفينى أنا عطاء » وهكذا فإن عطاء الحياة الأبدية للنفس المختارة هو أعظم من استحقاقها لأنه سيكون بنسبة جود الله وسخائه.

يعلمنا الكتاب أن مظاهر مجدنا فى السماء تقوم على أربعة أمور:

(١) ثياب البهاء والمجد البيضاء التى يلبسها أبناء الله المفديون فى السماء. وهذا يظهر من رؤيا يوحنا الحبيب حينما رأى الأربعة وعشرين شيخاً الذين يكنى بهم عن كل المفديين فقد رآهم متسربلين بثياب بيض وعلى رؤوسهم الأكاليل من الذهب (رؤ ١ : ٤) وكذلك رأى جميع المفديين من الشعوب والقبائل واقفين أمام العرش وامام الخروف متسربلين بثياب بيض وفى أيديهم سعف النخل. فقال واحد من الشيوخ ليوحنا هؤلاء اللابسين الثياب البيض من هم ومن أين أتوا؟ فقال له ياسيد أنت تعلم فأجابه هؤلاء هم الذين أتوا من الضيقة العظيمة وقد غسلوا ثيابهم و بيضوها بدم الخروف (رؤ ٧ : ٩ ــ ١٤) فينتج من ذلك أن الشئ الأول فى مجد القديسين هو أن يلبسوا ثياب المجد والبهاء البيضاء التى تشير الى القداسة والطهارة التى حصلوا عليها بالمسيح يسوع قدوس اسرائيل.

فلا يوجد فى السماء قتام ولا ظلام بل كل شئ أبيض منير. فما أمجد وما أبهى تلك الحال وذلك المنظر البهيج فالظلام كله ظلام الحزن والجهل والخطية يترك فى الأرض. ومن أين تكون الظلمة فى المجد السماوى ونور شمسه المنيره التى

لا تغيب ؟ ومن أين القتام والخطية لا توجد هناك ؟ فطوبى لمن نال الثياب البيضاء .

(٢) أكاليل المجد قال بولس الرسول «قد جاهدت الجهاد الحسن أكملت السعى حفظت الايمان وأخيراً وضع لى إكليل البر الذى يهبه لى فى ذلك اليوم الرب الديان العادل وليس لى فقط بل لجميع الذى يحبون ظهوره أيضا » (٢ تى ٤ : ٧ و ٨) وقال يعقوب الرسول «طوبى للرجل الذى يحتمل التجربة . لأنه إذا تزكى ينال إكليل الحياة الذى وعد به الرب للذين يحبونه » (يع ٢ : ١٢) وقال بطرس الرسول « ومتى ظهر رئيس الرعاة تنالون إكليل المجد الذى لا يبلى » (١ بط ٥ . ٤).

لما كان بولس و برنابا فى لستره وشفيا المقعد قدم لهما الجمهور أكاليلاً وثيراناً كأنهما من الالهة ولكنهما لم يقبلا ذلك بل مزقا ثيابهما ولم يسمحا لأولئك الجهلاء أن يقدموا المجد لهما لأنهما يعلمان أن مجد الأرض باطل وأكاليلها زائلة (اع ١٤) أما إكليل الحياة فمجيد وثمين لا يفنى ولا يضمحل . قال الرسول بولس عن المجاهدين من اليونان الذين يركضون فى ميدان الألعاب انهم يأخذون إكليلاً يفنى وأما نحن فإكليلاً لا يفنى (١ كو ٩ : ٢٥) غير أنه يلزم أن نركض لكى ننال . فما أسعد المؤمنين الذين يلبسون تلك الأكاليل المقدسة من ملك الملوك ، التى يعطيها لعبيده جزاء لغلبتهم وانتصارهم .

(٣) عروش المجد . قال الرائى « ورأيت عروشاً فجلسوا عليها وأعطوا حكماً ورأيت نفوس الذين قتلوا من أجل شهادة يسوع ومن أجل كلمة الله والذين لم يسجدوا للوحش ولا لصورته ولم يقبلوا السمة على جباههم وعلى أيديهم فعاشوا وملكوا مع المسيح ألف سنة » (رؤ ٢٠ : ٤) إن الأكاليل والعروش إشارة الى الملك السماوى مع ملك الملوك ورب الأرباب يسوع المسيح . فالمؤمنون الحقيقيون بيسوع يلبسهم الثياب البيضاء الزاهية و يكللهم بأكاليل المجد الأبدى ويجلسهم على عروش السماء . فما أعظم مقام المسيحى الحقيقى وما أشرف نسبته . إن الذين ينالون الحظوة بالمثول لدى ملوك الأرض يعظم فرحهم وانشراحهم . فما بالنا نحن

الذين نشترك مع ملك السماء والأرض فى أمجاده وفى دينونة الأشرار ؟

(٤) النور السماوى اللامع . وأى مجد نبلغ اليه حينما نجلس حول العرش المجيد ونكون كبدور تتألق فى قبة أفلاك المجد والبهاء بل حينما نجلس فوق الشمس والكواكب البهية على المتكآت السماوية ونتلألأ كأنوار باهرة وكواكب زاهرة وشموس ساطعة وأنوار لامعة حول شمس البر الحقيقى ببهاء عظيم هذا مقداره .

إن شمس عالمنا هذه تفتخر على بقية الأنواع لشدة سطوع نورها وقوة ضيائها . فانها إذا ما أشرقت توارت جميع الكواكب خجلاً منها وتوارى معها القمر . هكذا نحن حينما نكون فى أوج السماء مضيئين كالشمس (مت ١٣ : ٤٣) يعترى جميع الأنوار الكسوف وتتوارى جميعها بما فيها الشمس خجلاً.ولا تستطيع أن تظهر أمام العروس التى تدخل دار السماء بمجد عظيم وبهاء لامع حتى يتعجب الجميع قائلين « من هى المشرقة مثل الصباح . جميلة كالقمرطاهرة كالشمس . مرهبة كجيش بألوية » (نش ٦ : ١٥).

و بالاجمال ما من حالة من حالات الجلال والمجد والعظمة نشاهدها فى هذا العالم إلا وسنكون على أعظم منها . فلا تفتخر أيها الغنى بغناك ولا تغتر أيها الملك بعظمتك . ولا تتباه أيها المتزين بأنواع الزينة . فمجد السماء وخيراتها يفوقان كل مجد رأيناه وكل عظمة سمعنا عنها .

و يالله من فرح دائم الى الأبد لأن موضوعه دائم الى أبد الآبدين . وإذا كان الانسان فى هذه الحياة يفرح بالمال أو بالصحة أو بالبنين فإن فرحه سيزول بمجرد زوال أسبابه . وعلى ذلك ففرح الانسان الذى أخصبت كورته قد زال فى تلك الليلة التى أفتخر فيها وتنزع فيها عنه غناه . وفرح آدم وحواء بقايين وهابيل قد انتهى بقتل هابيل ، وفرح شمشمون بقوته زال بزوال قوته وحل بعده الحزن والتعب ، وسرور يعقوب بيوسف انقلب الى أكدار وتنهدات . وكل فرح فى العالم لا يدوم . أما أفراح السماء فهى دائمة الى الأبد ولا تزول مطلقاً ولا يمكن أن يتخللها أحزان ولا أوجاع لأنه لا سبيل لها فى ذلك المكان الذى أعد لراحة المؤمنين .

فالانسان مهما كان مجيداً وشريفاً على الأرض فما هو إلا كعشب يبيس وحياته كالبخار تظهر قليلاً ثم تضمحل (يع ٤ : ٤) أما المجد السماوى فهو أبدى لا ينتهى ولا يزول وما أعظم الفرق بينهما « فالعالم يمضى وشهوته وأما الذى يصنع مشيئة الله فيثبت الى الأبد » (١ يو ٢ : ١٧).

كل أمجاد العظماء زالت بزوالهم ولكن مجد أبناء الله المؤمنين ليس كذلك فانه يبتدئ بزوال حياتهم الأرضية ولا ينتهى الى الأبد لقد حصل موسى على شئ عظيم من مجد العالم إذ كان معتبراً كابن لابنة فرعون مصر ولكن لما نظر الى المجد السماوى وقابله بالأرضيات فضل أن يذل مع شعب الله « لأنه كان ينظر الى المجازاة » وهكذا تمجد يوسف فى مصر ، ومردخاى فى شوشن القصر ، ودانيال فى بابل ، ولكنهم لم يبالوا بهذا المجد لأنهم كانوا ينتظرون مجداً أعظم وأفضل .

فلا مجد فى العالم يقاس بتلك الأمجاد السماوية ولا سعادة تقابل بالسعادة الأبدية . إن سليمان الملك حالما تبوأ كرسى الملك الاسرائيلى ضربت الأبواق هاتفة . وقدم له الشعب التحيات اللائقة ضاربين بأصوات الناى المطربة حتى انشقت الأرض من أصواتهم المرنمة . ولكن هل يعد ذلك شيئاً إذا ما قورن بالفرح والابتهاج اللذين سيكون عليهما الأبرار عندما يستوون على كراسى المجد و يكللون رؤوسهم بتيجان المملكة السماوية و يتسربلون بالثياب البيضاء ويحتفى بهم ملك الملوك وجيوش الملائكة فرحين مرنمين مهللين .

و بالجملة فإن المجد السماوى يفوق كل مجد سواه . ولوجمعت كل مفاخر الملوك من بدء الخليقة الى نهايتها ووضعت على هامة ملك واحد فانها لا تعادل ولا تشابه ذلك الملك العتيد لأنها جميعها لا تخرج عن كونها ملكاً أرضياً بشرياً زائلاً ، أما ذلك الملك فهو ملك سماوى الهى أبدى . وكما أنه لا توجد معادلة بين الذهب والتراب و بين الثرى والثرى فبهذا المقدار وأكثر يعلو مجد السماء لما احتواه من الأبهة والجلال عن المجد الأرضى الذاهب للزوال .

قال أحد الأفاضل « كل فرح عالمى بالنسبة الى الفرح الالهى إنما هو صعب

الاحتمال ، وكل لذة ألم ، وكل حلاوة مرارة ، و بالجملة كلما يطرب الناس و يبهجهم فى هذه الحياة إنما هو بالمقابلة مع ما وصفناه شدة وثقل لا يحتملان . تلك هى الخيرات الأهية الجوهر ية التى ينبغى أن نرتاح اليها ونجنح الى محبتها وهذه هى الغاية التى لأجلها وجدنا . فأجعل نصب عينيك أيها الحبيب أرض الأحياء واسع اليها كعبد أمين وأعرض عن أمور هذه الحياة الفانية وتنح عن الخطية لتكون أهلاً للتمتع بذلك المجد العالمى الذى لا يزول ».

إننا سنسملك فخر مجد لا يوصف حيث نكون جالسين كملوك وعظماء حول عرش الملك العظيم . على كراسى ملكية ومتسر بلين بأبهى الحلل الر بانية متوجين بالأكاليل النورانية . متنعمين بأطايب المائدة الروحية وكؤوس أفراح السماء . ومترنمين بنغمات رخيمة شجية . بينما أصوات الجماهير السماو ية تهتف قائلة مباركون ومقدسون ومغبوطون ومستحقون يامن نلتم هذا الملك العظيم والمجد الرفيع قدموا بالسيادة مغبوطين بهناء خالد . متنعمين بالسعادة الأبدية . حيث تملكون الى أبد الآبدين ودهر الداهر ين (رؤ ٢٢ : ٥).

ابتهج أيها المؤمن الواثق بخلاص نفسك . ابتهج بذلك المجد المعد لك وكيف لا تبتهج وهناك لا تجد شيئاً تكرهه مطلقاً بل لك كل ما تحب وتشتهى . كيف لا وكل ما فى الحياة من ظلمة وآلام سيدفن فى القبر وستغبط وتطوب نفسك حينما تخرج من سجنك الى عرشك .

تأمل طو يلاً فى ذلك المجد . تصوره أمامك كل حين . ضعه نصب عينيك فى كل وقت ، وحينئذ تحتقر مجد العالم وتجده كلا شئ . أكد لنفسك دائماً أن حواسك ستحصل فى السماء على اللذة الحقيقية التى لا تنتهى ، فلن تمل العين من النظر ولا الأذن من السمع ولا اللسان من التغنى والترنم . أطلب من الله أن تمتلك هذه الخواطر فؤادك وأن يسكن الشوق الى السماء قلبك وناد هكذا « تعالى الى أيتها السعادة الأبدية لأستر يح فيك لأنى سعيت الى سعادة العالم فلم أجدها أما أنت فوجودة حقاً . متى يرتفع الحجاب لأطير اليك . متى تأتى الساعة التى أرى فيها حبيبى يسوع وأسجد عند قدميه فيقيمنى بيده المباركة ويملكنى تلك السعادة

امتلاكاً أبدياً ».

هنيئاً لكم سكان السماء مجدكم ، هنيئاً لكم سعادتكم وعزكم . نحن على أنهار بابل نبكي صهيون وأما أنتم فقد جزتم بحر سوف ووقفتم على شاطئه ترنمون ترنيمات النصرة : نعم إن هبة الله ودعوته بلا ندامة فلابد أن نغلب بقوته ونصل السماء فنرى بالعيان ما صدقناه بالايمان .

الفصل الثلاثون
تأملات روحية

«قف وتأمل بعجائب الله» (أى ٣٧ : ١٤)

تأملى إذاً يانفسى تأملاً عميقاً فى كل الحقائق التى مر ذكرها ، وتأملى أيضاً فى :ـــ

(١) الموت : نعم إن التأمل فيه مخيف ولكن تشجعى يانفسى وتجرعى هذه الكأس المرة بثبات . تصورى فى مخيلتك انك وصلت الى أبواب الموت وأوشكت روحك أن تفارق جسدك . فكم يكون هذا الانفصال صعباً عليك . كم يؤلمك فراق هذا الجسد الذى كنت مستعبدة له فى هذه الحياة . كم مرة خالفت الهك ومصدر حياتك لكى تلذذى هذا الجسد ، والآن حين دنا وقت فراقك له التمسى منه أن يكافئك على خدمتك اياه ! يالشقاوتك . تأمليه بعد فراقك اياه لتجديه قد صار جيفة كريهة . أين اللذات التى تلذذ بها والتنعم الذى تنعمه ؟.

قومى إذاً يانفسى من سباتك وأميتى هذا الجسد وادفنى كل حركاته حتى يمكنك أن تحيى فى البر وقداسة الحق . وهوذا روح الحق ينادى قائلاً «لانه إن عشتم حسب الجسد فستموتون . ولكن إن كنتم بالروح تميتون أعمال الجسد فستحيون» (رو ٨ : ١٣).

تأملى يانفسى أيضا فى :

(٢) يوم الدينونة : نعم ستلبس الأرواح هناك أجسادها لتدان على أعمالها هنا خيراً كانت أم شراً ففكرى الآن يانفسى وميزى أفعالك . تأملى جيداً فى

تصرفاتك ، هل إذا ذكرت أمام الديان يكون لك فرح أم حزن . هل إذا ذكرت ينظر اليك الملك برضى أم بغضب . قيل إن ملكاً أرضياً نظر شذراً الى اثنين من أكابر مملكته واظهر الغضب فى وجهه نحوهما لأجل ذنب خفيف ارتكباه . فمن شدة الرعب والخوف الذى استحوذ عليهما سقط احدهما فى الحال ميتاً وألم بالثانى مرض قتال ولحق رفيقه بعد أيام قليلة : فإن كانت نظرة غضب من ملك ارضى فعلت هكذا فكم تكون نظرة ملك الملوك . قولى لى أيتها الشقية التى تميلين الى الكبرياء والتنعم هل تستطيعين الهروب من أمام وجه الديان ؟ إن ذلك مستحيل . وهل تحتملين الوقوف أمام وجهه الغضوب . هل يمكنك أن تسمعى صوت توبيخه حينما يقول لك لقد طرقت كثيراً أبواب قلبك لكى تدخلينى اليه . ولكنك صميت اذنيك وقسيت قلبك ولم تريدى أن تدخلينى اليه . وأبلغ من ذلك انك طردتينى وأدخلت الشيطان مكانى . لا أظنك تقوين على استماع صوت هذا التوبيخ . إذا قومى من غفلتك وتيقظى من سباتك واطلبى نعمة الرب لتغلبى بها أعداء خلاصك . وبهذا تقفين يوم الدينونة غير خائفة ولا وجلة بل واثقة ومطمئنة لأنك سبقت وانتهزت الفرصة وقدمت التوبة ونلت الخلاص قبل موتك .

تأملى أيضاً يانفسى فى :

(٣) عذاب جهنم . نعم فى عذاب جهنم تأملى . هنا اللذة وهناك العذاب . هنا السرور وهناك الغم : هنا التنعم وهناك الشقاء ، فقد تعودت هنا النوم على الفراش الحرير ية ولكن هناك ستنامين على أشواك من اللهيب المستعر . مسكينة أنت يامحبة اللذات ، عوض الشعور باللذة يكون الشعور بالوجع الذى لا يطاق . إذاً انفضى عنك غبار اللذات وإذا حاول الشيطان إن يصور لك لذة أمام عينيك أو يمثلها بخاطرك فتصورى أنت عذاب جهنم وآلامها وقولى لأبليس اللعين « اذهب عنى فاللذة التى تغرينى بها وقتية ولكن جزاؤها العذاب الأبدى ».

تأملى أيضا يانفسى فى :

(٤) السعادة الأبدية . ياله من نهار دائم لا ليل له . أى شئ ذلك الذى قال عنه

الرسول « ما لم تره عين » هل يمكن أن تدركى أى شئ هو يانفسى « هو الله نفسه » هو وحده الذى سيكون نصيبك وحظك ، فهل بعد تمتعك به تقولين انى احتاج الى شئ ما . إن قلبك لا يعرف الشبع هنا . ذلك لأنه لا يشبع قلبك إلا الله وحده . لذلك يقول الكتاب عن فرح السماء انه أبدى لأن الله ينبوع الفرح الأبدى . من يستطيع أن يكشف لك يانفسى عن قليل من مجد السماء وسرورها . كفاك أن تعرفى أن هناك يستقر القلب فى مركزه الحقيقى الأبدى وحينئذ يصرخ قائلاً « نعم . نعم . هذه هى السعادة التى كنت اشتهيها ».

فهل لا يستحق مجد السماء وسعادتها يانفسى بعد ذلك ان تحتقرى العالم لأجله ؟ هل يمكن للعالم مهما تلألأ أن يعتبر بقيمة لحظة قصيرة فى ملكوت السموات . قولى للعالم إذاً اذهب عنى أيها العالم . لتغب عنى كل أمجادك فانى لا أحزن على فراقها . انى أتوقع عند سيدى يسوع مجداً حقيقياً أبدياً . انى أريد أن أخسر كل شئ لأربح المسيح ».

تأملى أيضا يانفسى فى :

(٥) قدرة يسوع على خلاصك . لعلك حينما تتطلعين الى مجد السماء تقنطين من الحصول عليه لما تشعرين به من الضعف فيك فطبيعتنا حقاً فاسدة ولهذا ليس مما يبهج جسدنا أن نعيش لله . ليس من يدعى أنه بطبيعته وقوته يستطيع أن يخطو خطوة واحدة فى سبيل التقوى فطريق السماء وعرة على الانسان البشرى . ولكن الله أمرنا أن نجاهد وتعهد أن يساعدنا فى جهادنا فنحن إذا سعينا بقوتنا لا نصيب إلا الفشل والسقوط ، ولكن إذا سعينا متكلين على مساعدة نعمة الله كتب لنا الفوز والنصرة . .

يانفس المشتاقة الى مجد السماء ارفعى نظرك الى فوق حيث المسيح جالس : تطلعى اليه لتجدى صورة الصليب مرسومة فى عرشه . اسمعى صوت الروح الالهى ينادى قائلاً بأن الذى لم يشفق على ابنه بل بذله لأجلكم أجمعين كيف لا يهبكم أيضا معه كل شئ (رو ٨ : ٣٢).

« فإن كان أمراً محققاً اننا لا نستطيع أن نخلص أنفسنا فالأمر الأكثر تحقيقاً أن يسوع يقدر أن ينيلنا هذا الخلاص فعلينا أن نسعى ناظرين اليه كرئيس ايماننا وقائد جيشنا . فحينئذ يحول ضعفنا الى قوة ، وفقرنا الى غنى . وحينئذ نصرخ مع الرسول بولس قائلين : نستطيع كل شئ فى المسيح الذى يقوينا (فى ٤ : ١٣)

الخاتمـــة

طريق السماء

« هذا الباب للرب . الصديقون يدخلون فيه » (مز ١١٨ : ٢٠)

ذكرنا وصفاً موجزاً للأمجاد السماوية بل أن ما قد ذكرناه عنها ليس إلا كنقطة من بحر عجاج لأنه ليس لنا ولا لغيرنا القدرة أو الاستطاعة على ايفاء وصف تلك الأمجاد حقه ولا يمكن أن يتاح ذلك لنا أو لأحد من البشر حتى نحظى بها ونشاهدها بعيوننا ونتمتع بها . عند ذلك نراه فوق ما كنا نظن أو نقدر .

والواجب علينا إذاً بصفة كوننا مسافرين الى تلك الديار الأبدية أن نسير فى الطريق الذى يؤدى الى الأمجاد المذكورة . يوجد فى العالم طريقان كما قال الرب « هأنذا أجعل أمامكم طريق الحياة وطريق الموت » (ار ٢١ : ٨) فطريق الحياة يؤدى الى الحياة والخلود كما قال « المقوم طريقه أريه خلاص الله » (مز ٥٠ : ٢٣) وطريق الموت يؤدى الى الجحيم حيث اللهيب والدود وهو الذى قال عنه الحكيم « يابنى لا تسلك فى الطريق معهم امنع رجلك عن مسالكهم » (ام ١ : ١٥) وقد ترك الله للانسان الحرية فى أن يختار لنفسه أى الطريقين لكى يكون بلا عذر (رو ٢ : ١).

أما طريق المجد السماوى فهو السيد المسيح لأنه الطريق والحق والحياة (يو ١٤ : ٦) فعلى الذى يرغب الوصول الى المجد أن يترك السير وراء العالم و يبتع المسيح مقتفياً آثاره . وسالكاً سبله . ولا يهتم بمجد العالم ولا يعبأ بزخارفه الفانية .

لنتقدم الى يسوع الذى مات لأجلنا ليحيينا ، وليقل كل منا « اختبرنى يا الله واعرف قلبى . امتحنى واعرف أفكارى . وانظر إن كان فى طريق باطل واهدنى طريقاً أبدياً » (مز ١٣٩ : ٢٣ و ٢٤).

إن كنت ترغب الصعود الى المجد السماوى فهذا هو الطريق اتبعه حتى تأتى الى علية صهيون ، ومن هناك ترتفع الى أعلى السموات فلا طريق للسماء غير هذا الطريق . لا يضللك عدو الخير ولا تنخدع وتسير وراءه . قد يظهر لك طريقه بمظهر حسن ويجذبك للسير فيها وراءه ، ولكن تأكد أنها توصلك الى هاوية العذاب . فى بدايتها سرور وانشراح ولكن خاتمتها أحزان وأتراح كما قال الحكيم « توجد طريق تظهر للانسان مستقيمة وعاقبتها طرق الموت » (ام ١٤ : ١٢) . تبصر . لا تتقدم فيها خطوة واحدة احذر لأن الخطر أمامك . وها الحكيم ينصحك قائلاً « لا تدخل فى سبيل الأشرار ولا تسر فى طريق الأثمة . تنكب عنه . لا تمر به . حد عنه واعبر » (ام ٤ : ١٤ و ١٥).

كان الرومان قديماً إذا ما أرادوا أن ينبهوا عن خطر عظيم يضربون الجرس خمس مرات . فإذا تأخر أحد قدمه يكون على رأسه . وهكذا يضرب الله لك الجرس الالهى ليحذرك من خطر الخطية قائلاً لك « لا تسر فى طريق الأثمة » . اسمعه ينادیك بما نادى به الملاكان لوط و يقول لك « اهرب لحياتك » (تك ١٩ : ١٧) فحاذر أن يميل قلبك الى الوراء . احترس ولا تنظر الى سادوم لئلا تصير عامود ملح كامرأة لوط » (لو ١٧ : ٣٢) احترس ان تنظر الى الوراء لئلا تهلك « لتنظر عيناك الى قدامك وأجفانك الى أمامك مستقيماً . مهد سبيل رجلك فتثبت كل طرقك لا تمل يمنة ولا يسرة . باعد رجلك عن الشر » (أم ٤ : ٢٥ ــ ٢٧) عليك أن تترك كل شئ وتتبع مخلصك يسوع . أنكر ذاتك واحمل صليبك واسع نحو المجد فى هذا الطريق فتفوز بالحياة الأبدية . وقل مع النبى « تمسكت خطواتى بآثارك فما زلت قدماى » (مز ١٧ : ٥).

قال الرسول « افعل شيئاً واحداً إذ أنا أنسى ما هو وراء وامتد الى ما هو قدام » (فى ٣ : ١٣) فالسعى الى نوال الأمجاد السماوية إنما هو جهاد متواصل وسير الى

الأمام متتابع فى طريق البر وسبل التقوى بدون التفات الى الوراء . وما أشبهه بجرى العربات خلف القطار على قضيب السكة الحديدية التى إن مالت قليلاً الى أحد الجانبين انقلبت وانكسرت ولا يمكنها أن تواصل سيرها لأننا إذا كنا أثناء سعينا وراء المسيح نميل بقلوبنا الى شئ من خيرات هذا العالم فاننا نتعطل عن السير ونتأخر عن الذين يتسابقون معنا . وما أخر بنى اسرائيل فى البرية إلا ميلهم لأرض مصر واشتياقهم اليها ورغبتهم فى أكل « الكرات والبصل والثوم » قال الرب « عيناى على أمناء الأرض ... السالك طريقاً كاملاً هو يخدمنى » (مز ١٠١ : ٦).

علينا أثناء سعينا هذا إن لا نحيد يمنة ولا يسرة . لا ننظر للأموال ولا ننشغل بالمناصب ولانتعلق بالأمجاد الدنيوية ولا نندفع وراء الشهوات العالمية . لا يستهوى فؤادك مجد العالم الغرار حتى يجعلك تتفكر بالاثم على مضجعك وتقف فى طريق غير صالح ولا ترفض الشر (مز ٣٦ : ٤).

حاذروا حتى تكونوا على الدوام متطلعين نحو المجد الأبدى والجعالة السموية . جاء فى أساطير الأقدمين انه كان يوجد جبل مرصود وضع على قمته كنز ثمين ، وجعل هذا الكنز جزاء لمن يتسلق الجبل و يصل الى قمته بدون أن ينظر الى الوراء . والوصيمة والوعيد لكل شاب يتسلق هذا الجبل هما « لا تنظر الى ما وراءك لئلا تصير حجراً » وقد حاول كثير من الشبان أن يصلوا الى ذلك الكنز فلم يقدروا وصار كل منهم حجراً . لأن الطريق الى رأس الجبل كانت تتفرع منها طرق أخرى الى رياض جميلة تكسو جوانب ذلك الجبل وكانت فى تلك الرياض طيور تغرد كما كانت تسمع منها أصوات موسيقية تأخذ بمجامع النفس فتغرى المارين لكى يقفوا و يستريحوا قليلاً فينسون الوصية و يصيرون أحجاراً حتى اكتظت فى وقت قصير جوانب الجبل بالشبان الذين تحولوا الى حجارة لأنهم لم يحفظوا الوصية .

هذه القصة وإن كانت خرافية إلا أنها تمثل لنا الجهاد والسعى نحو الجعالة السموية . فالله يوصينا قائلاً : لا تنظروا الى ما ورائكم . اهربوا لحياتكم . لا تلتفتوا يميناً أو شمالاً . لا تنظروا الى ملذات العالم الجسدية والأغانى العالمية

والشهوات الشبابية التى تحارب النفس . على المجاهد أن يثبت نظره فى الإكليل ولا يتحول عنه و يصبر الى النهاية ، ولكن ابليس يأتى فى وسط طريق الجهاد و يغرس حديقة الخطيئة ويجعل فيها كل ما هو من شهوة الجسد وشهوة العين وتعظم المعيشة ، و بطرق عديدة متنوعة اختبرها فوجدها محبوبة للبشر ، يغريهم ويخدعهم حتى يلتفتوا اليه فيقنصهم لارادته ، فهو كالرجل الظالم يغوى صاحبه و يسوقه الى طريق غير صالح (ام ١٦ : ٢٩).

وجاء أيضا فى تاريخ اليونان « انه كانت هناك فى قديم الزمان ابنة مشهورة بسرعة العدو (الجرى) وكانت تحرز فى ذلك دائماً قصب السبق وأصرت على أن لا تقترن إلا بمن يسبقها فى العدو فجاء شاب محتال وأعلن أنه يستطيع أن يسبقها وتحدد ميعاد للمباراة بينهما . فذهب الى الميدان قبل الميعاد المحدد ومعه ثلاثة تفاحات ذهبية جميلة المنظر و بطريقة خفية ألقى باحداها فى الطريق المقررة للسباق . ولما حان موعد السباق و بدأ الجرى معاً أخذت تسبقه حتى وصلت الى حيث التفاحة فاستلفت نظرها شكل تلك التفاحة فانحنت وأخذتها من الأرض وفى هذه الأثناء كان مناظرها قد سبقها فأجهدت نفسها فى العدو وما كادت تلحق به حتى ألقى اليها التفاحة الثانية فمالت اليها وأخذتها فسبقها الشاب بمسافة كبيرة فجاهدت لتلحق به وما كادت تسبقه حتى ألقى اليها التفاحة الثالثة فوقفت عن الجرى ومدت يدها وتناولتها فسبقها الشاب . وبهذه الحيلة تمكن من الوصول قبلها الى نهاية المسافة ففاز عليها ونال إكليل السبق .

هكذا يوجد من هو أكثر حيلة من ذلك الشاب ، وهو ابليس عدونا الذى يسعى ليلهينا و يؤخرنا عن سعينا وراء المسيح فيطرح أمامنا تفاحاً من محبة العالم وغروره وشهواته وأمواله ومقتنياته . وبهذه الواسطة يعطل الكثيرين عن الجهاد كما عطل عاخان وجيحزى وديماس وسيمون وغيرهم من الذين خسروا أكاليلهم وجعالاتهم .

أما الذين لم يتبعوا المسيح للآن ولم يذوقوا لذة السير فى طريقه الموصل الى السماء فيجب عليهم أن يسرعوا بالمجئ اليه حالاً تائبين ملتمسين منه الخلاص لكى يختموا به قبل أن يتخذ صورة غضبه .

لنتقدم اليه وهو حمل وديع قبل أن يتحول الى أسد مفترس . يجب أن نسرع الى التوبة ونسعى فى الحصول عليها حالاً إذ لا عذر لنا بعد أن عرفنا وتأكدنا شدة وصعوبة عذاب غير التائبين . لنشفق على أنفسنا بقدر ما أشفق ابن الله علينا وقدم نفسه للموت من أجل خلاصنا ، انه يدعونا اليه و يسر هو وملائكته بتوبتنا (لو ١٥ : ١ ــ ٧) لنشفق على نفوسنا ولنسرع بالرجوع اليه تائبين توبة نقية خالصة . لنرحم ذواتنا ونهرب من الغضب الآتي ولا نتهاون بنفوسنا كما يفعل أولئك الذين بينما هم ملوثون بالخطايا و يريدون البقاء فيها وفى دنسها يخدعون نفوسهم قائلين « إن الله رحوم » نعم انه رحوم ولكن رحمته فى التوبة (اش ٥٥ : ٧) أو يقولون « إن دم المسيح يطهر من كل خطية » نعم انه يطهر ولكن مع التوبة (ام ٢٨ : ١٣ ، ١ يو ١ : ٧ ــ ١٠).

قال أحد الأفاضل يوجد نبع مفتوح للتطهير من الخطية (زك ١٣ : ١) لكن بشرط الاقبال الى الله بتوبة نقية . أما إذا لم تقبلوا هذا الشرط وعشتم فى شروركم وشهواتكم فباطلاً تنتظرون تطهيراً لأن دم يسوع لا يمتزج مع الدنس « أية خلطة البر مع الأثم » لاحظوا أن دم يسوع الكريم لا يتدنس مع الخطايا مطلقاً . قد تجد واحداً يدنس نفسه . بالكبرياء و بالبغضة وآخر بالحقد ، وآخر بالطمع ، وآخر بالغش ، وآخر بالبخل . وأخرى تدنس نفسها بالعجب بملابسها أو حليها أو تفتخر بعظيم نسبها ، وأخرى بالخصام ، وأخرى بالنميمة والمذمة وأخرى بالكذب . فهل بعد ذلك تقولون « أن دم المسيح يطهرنا من كل خطية » لننزع عن نفوسنا أولاً الخطايا والشرور ونبتعد عن الاثم والدنس ونتقدم الى المسيح تائبين نادمين فحينئذ يطهرنا بدمه الذكي الكريم .

أما إذا لم نتقدم بالتوبة فلا طهارة لنا بل يمكث غضب الله علينا فليت الخاطئ يتوب آسفاً والأثيم يرجع نادماً لكي ينال غفران الخطايا قبل فوات فرصة النجاة وحتى لا يقع تحت الدينونة حيث لا ينفع وقتئذ ندم .

لقد ندم الكثيرون ولكن بعد فوات الفرصة كقايين وعيسو وعاخان وشاول وأمون وأبشالوم وهيرودس فلم ينفعهم الندم . فانهضوا اذن من غفلتكم واستفيقوا

من سكركم واهجروا الخطية لكى لا تبتلعكم وأميتوا حركاتها لكى لا تلقيكم أحياء فى عذاب قصاصها . تجنبوا حب المال لئلا تشتعل فيكم نيرانه الآكلة ، اهربوا من الطمع لئلا يفترسكم بأنيابه . امتنعوا عن الشهوات لئلا تلدغكم بسمومها . اطرحوا عنكم حمل الشرور لئلا تهبط بكم الى قرار البحيرة المتقدة بنار وكبريت .

لما قضى على قايين بالتعنة استجار بالرب وقال إن « ذنبى أعظم من أن يحتمل » (تك ٤ : ١٣) فإذا كان قايين لم يحتمل ذنباً واحداً فما بال الواقعين فى جهنم تحت نير ذنوب لا تعد وخطايا لا تحصى .

أناشدكم ياقوم بحق من فداكم وهو واقف أمامكم مادا اليكم يديه يدعوكم أن تقبلوا اليه بالتوبة لتنالوا غفران الخطايا قائلاً لكم « التفتوا لنداء قلبى المحب الذى ذاب على الصليب كذوبان الشمع لأجلكم : انظروا الى حالتكم وقدروا قيمة نفوسكم الثمينة . اسرعوا بالتوبة قبلما ينتهى الأجل و يأتى يوم الدينونة . تعالوا اليه قبلما يغلق الباب فتتضرعون لكى يفتح لكم فلا تجابوا . تقدموا واطرحوا ذواتكم بين يديه اللتين تمزقتا بدق المسامير . تضرعوا أمام القلب الذى احترق والجنب الذى طعن . والأحشاء التى تمزقت ، والروح التى ذابت بسيف العدل الالهى المتقلب . .

لنطلب الرحمة الالهية بتوبة صادقة نقية لكى يطهرنا المسيح بدمه الكريم و يقبلنا فى ملكوته العظيم .

له المجد مع أبيه الصالح وروحه القدوس من الآن والى الأبد أمين .

فهرس الكتاب

	الموضوع	الصفحة
	كلمه عن المؤلف	٥
	دعاء	١٢
الفصل الاول :	فى الحياه الفانيه والحياه الباقية	١٣
الفصل الثانى :	فى أن هذه الحياة ليست نصيباً لنا	١٩
الفصل الثالث :	فى أننا غرباء على هذه الارض	٢٣
الفصل الرابع :	فى حقيقة الموت	٢٨
الفصل الخامس :	فى خداع الدنيا وغرور الحياة	٣٦
الفصل السادس :	فى ان ظاهر الدنيا خلاف باطنها	٤٧
الفصل السابع :	فى انه لا سعادة فى العالم	٥٤
الفصل الثامن :	فى سرعة زوال هذه الحياة	٦٢
الفصل التاسع :	فى فناء المجد العالمى و بطلانه	٦٩
الفصل العاشر :	فى سرعة اضمحلال امجاد العالم	٧٦
الفصل الحادى عشر :	فى ضرورة الاستعداد للموت	٨٢
الفصل الثانى عشر :	فى عبر الموت	٩٠
الفصل الثالث عشر :	فى عبرة زيارة المدافن	٩٧
الفصل الرابع عشر :	فى عبرة الأبدية	١٠٧
الفصل الخامس عشر :	فى انتقال الصالح	١١٣
الفصل السادس عشر :	فى موت الأثيم	١٢٣
الفصل السابع عشر :	فى أن توبة الخاطىء عند الموت لا تقبل غالباً	١٣٠
الفصل الثامن عشر :	فى أن يوم الموت يأتى بغتة	١٤٠
الفصل التاسع عشر :	فى وجوب اغتنام الفرصة	١٤٦
الفصل العشرون :	فى قيامة الأموات	١٥٤
الفصل الحادى والعشرون :	فى يوم مجىء الرب العظيم الثانى	١٦٣
الفصل الثانى والعشرون :	فى الدينونة العامة	١٧٠
الفصل الثالث والعشرون :	فى افتضاح المنافقين	١٨٨
الفصل الرابع والعشرون :	فى صعوبة الانفصال الأبدى	١٩٧

فهرس الكتاب

	الموضوع	الصفحة
الفصل الخامس والعشرون :	فى النهاية المريعة	٢٠٥
الفصل السادس والعشرون :	فى انه لا رحمة بعد الحكم	٢١٥
الفصل السابع والعشرون :	فى صعوبة العذاب الأبدى	٢٢٨
الفصل الثامن والعشرون :	فى الأبدية المخيفة	٢٣٦
الفصل التاسع والعشرون :	فى سعادة الابرار ومجد القديسين	٢٤٤
الفصل الثلاثون :	تأملات روحية	٢٥٤
الخاتمه :	طريق السماء	٢٥٧

٨٣ / ٣١٤٤

٨ ـ ٠٢٣ ـ ١٨٧ ـ ٩٧٧

مطابع شركة تريكرومى للطباعة
ت ٩٣٥٧٥٦ القاهرة

مجموعة مؤلفات "القس منسى يوحنا":

- طريق السماء
- يسوع المصلوب
- شمس البر
- النور الباهر في الدليل إلى الكتاب الطاهر
- قارورة طيب كثير الثمن
- كمال البرهان على حقيقة الإيمان
- حل مشاكل الكتاب المقدس
- حياة آدم
- تاريخ الكنيسة القبطية

صور ودروس التربية الكنسية والتربية ال
كتب كنسية ودينية • جوائز مـ
صور دينية • أيقونات قبطية • أدو
كاسيت ألحان وترانيم وقداسات
مناظر طبيعية • هدايا وبراويز • مـ

مكتبة المحبة
MB

٣٠ ش كامل صدقي بالفجالة
ت ٩٣٩٢٩٤ - ٩٠٣٨٢٥